لات لغوية(١)

شهادات ومتابعات

ألفه

أبو أوس إبراهيم الشمسان

قدم له

سعد عبدالعزيز مصلوح

مداخلات لغوية(١)

[redacted]

ألفه

أبو أوس إبراهيم الشمسان

قدم له

سعد عبد العزيز مصلوح

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشمسان، أبوأوس إبراهيم

مداخلات لغوية(١) شهادات ومتابعات/ أبوأوس إبراهيم الشمسان — الرياض، ١٤٣٦هـ

٣٣٦ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٤-٧٦٨٥-٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- اللغة العربية — مجموعات أ. العنوان

ديوي ٤١٠,٨ ١٤٣٦/٣٦٢٣

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٣٦٢٣هـ

ردمك: ٤-٧٦٨٥-٠١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى من امتلك ناصية اللغة فأبدع بها نثرًا وشعرًا،

كتب النثر مطرزًا بألوان البديع المدهش،

وكتب الشعر ببيان ساحر،

وأما خلقه فسر محبة الناس له،

رجل تميّز بالإيثار.

إلى الصديق العزيز

الدكتور أبي يزن إبراهيم التركي

المحتويات

رابعًا–متابعات

خامسًا–من هموم اللغة وتعليمها

تَقْدِمَةٌ وتَحِيَّةٌ

الْحمدُ للهِ على نَعْمائِه، والصلاةُ والسلامُ على صَفْوَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ وأنْبيائه، وعلى الْمُصْطَفَيْنَ الأخيارِ مِن أهْلِ كَرامتِهِ وأوليائه.

أما بعدُ؛ فلقد تَاحَتْ لي مع أخي العالِم الجليل أبي أَوْس إبراهيم الشَّمْسان جلساتُ عِلمٍ مُبارَكَةٌ، ألقاهُ فيها الحَيْنَةَ بعدَ الحَيْنَة، على تباعُدٍ قَضى بهِ تَنائي الديار. وكان أن تَذاكَرنا ذاتَ لقاءٍ مُداخَلاتِهِ اللغويةَ التي يُثْريْها على صفحات جريدة (الجزيرة) السعودية، مما لا تَفيضُ بهِ إلا أَذهانُ الرَّاضَةِ مِن أهلِ العِلْم، والذَّادَةِ عن حُرْمة ذلكم التراثِ الجليلِ العوائد. وسَألتُهُ أن يُوعِبَها في ضُمامَةٍ تكونُ زادًا حاضِرًا بين أيدي طُلاب العِلم. ولَقَد شَفى نَفسي أنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِقَولي، فَإذا هُوَ في اللقاءِ التالي يَحمِلُ مَعَهُ نَخِيلَةَ ما كَتَبْ مجموعًا بين دِفَّتين، ورَأَيْتُ مِنْهُ حين صَفَحْتُهُ نَبعًا بَجيسًا بكلِ ما هوَ عَذْبٌ فُراتٌ سَائِغٌ شَرابُه مِن الدَّقائقِ والأطَاريفِ، واسْتَعْظَمتُ جَدَاهُ حَالَ الجَمْعِ بِما لَمْ أَسْتَشْعِرهُ حينَ قَرَأتُهُ فُرَادى وتَفَاريق.

غَيرَ أنَّ الصديقَ الكَريم بَدَهَني؛ إذ رَغِبَ إليَّ أنْ أُقَدِّمَ لِعَمَلِه مطبوعًا. وسَاءَلْتُ نَفسي إذْ فَجِئَني بِالطلَبْ: ما الذي يَحْمِلُ عَالِمًا جَليلًا مِثْلَه على مِثْلِ هذهِ الرَّغيبَة مع استغْنَاءِ الكتابِ بِنَفْسِهِ وصاحِبِهِ عَن كُلِّ تقديم. لَقَد اسْتَأحَدَ الرَجُل، وأَقَرَّهُ على مكانتِهِ في فَنِّهِ العُدُولُ مِن أهلِ العِلم، وعَرَفوهُ باحِثًا قدْ استمرّتْ مَريْرَتُهُ على الجِدِّ، آخِذًا نَفْسَهُ بما فيهِ مَنْبَهَةٌ للعقولِ ومَشْحَذَةٌ للفُهوم. قّدْ رَاضَ نَفسَهُ على طلبِ الحقيقةِ، غَيْرَ حَفولٍ بالتَّوافِهِ. لا يَسْتَرشي مَدْحًا مِنْ أحد، ولا يَعْبَأُ بتكثيرِ السَّوادِ على البَياضِ في غيرِ ما مَنْفعَةٍ أو عائِدةٍ، بل يُوجِدُكَ مُبْتَغاكَ مِن أَقْصَرِ طَرِيقٍ، ولا يَنتهي إلى رَأيٍ حتى يَتَخَبَّرَهُ بانتقالٍ لَطيفٍ مِن الجليِّ إلى الخَفيِّ، واسْتدلالٍ بالظَاهِرِ على الغَائِب، وبِذلِكُم تتصِلُ أسْبابُهُ بالقَولِ الرَاجحِ والمذْهَبِ المنْصور.

على أنَّ لأبي أوس – حفظه الله – خليقةً هي مِن كَرائِمِ أخْلاقِ العُلَماءِ لا تَجدُها عند كثيرٍ ممن نراهم ونقرأ لهم من المنتسبين إلى الدرس النحوي والصرفي في التراث العربي. إنه

لا يكتبُ إلا في ما يُجيدُ ويُفيد، غير آبهٍ أن يتقحمَ على محافلَ قد تَطَوَّسَتْ وتَزَينت بتخاييل الحداثةِ زورًا ودعوى، مُعرضًا عن أولئك الذين يتحككون بحداثةٍ ما لهم فيها مِن خَلاق، فلستَ ترى منهم إلا كُلَ هَجُومٍ على ما لا يُحسن، أخَّاذٍ نَبَّاذ، لا يقوم كلامُهُ إلا على القطفِ والخطفِ، مُستعظِمًا صغيرَ ما يصلُ إليهِ، عارِضًا إيَّاهُ على الناس مُختالًا نَظَّارًا في عِطْفَيه. ولا كذلكَ أبو أوس – حَرسَ اللهُ مُهجَتَه – فقليلًا ما تجدُ مِن أهل فَنِّهِ متواضِعًا كتواضعِهِ، ذائقًا فائقًا كَذَوْقِهِ وَفَوْقِهِ. والحمدُ للهِ الذي عافى أهلَ محبتِهِ مما ابتلى بهِ كثيرًا مِن خَلْقِه.

وأقولُ نَعم؛ لقد تجاوبتْ تِلكم الأسئلةُ في واعيتي عن كَمينِ رَغْبةِ هذا العالِم الفاضل في استضافتي لتقديمِ هذه المائدةِ العامرةِ إلى قُرَّائهِ، فلمْ أَجِدْ لذلكُم جوابًا إلا أنَّ العَالِمَ الحَقِّي دائمًا ما يهضِمُ نَفسَه، ولا يَتَمَزَّى بِعِلْمِهِ على أحدٍ من الخَلْق، ولعلهُ قد اسْتَأنسَ لِصُحبةِ قلمٍ صديقٍ مُحبٍّ، يحمِلُ لهُ مِنَ الوَدادةِ والإجْلالِ كلَّ ما هوَ مُتمكِنٌ أَمْكَنُ، فما أحْظاني بما طَلَب، وما أحراني بأنْ أُجيب. وإنِّي لَأَحمَدُ اللهَ أنْ يَسَّرَ لِهذا العِلمِ المستطيل أن يخرجَ للناس على هذه الصورة الجامعة الماتِعة، ولعلَّ لي باستجابةِ عالِمنا الجليل لِما دَعوتهُ إليه أَجْرًا أَحْتَبَئهُ عند ربي لِخيرٍ عظيمٍ كُنتُ – بفضل من الله – سببًا فيه. ولعلهُ قد آنَ الأوان لِأُخَليَ بين القارئِ وهذا الثمر الشهيِّ الْمُجْتَنَى.

والحمد للهِ على ما وفقَ وأعان.

حرر في الكويت في يوم الجمعة الحادي والعشرين من شهر المحرم لسنة ١٤٣٦ من الهجرة الشريفة

الرابع عشر من شهر نوفمبر لسنة ٢٠١٤ للميلاد.

وكتبه

سعد بن عبد العزيز مصلوح

مُقَدِّمَة

هذه مجموعة من الموضوعات التي نشرتها لي المجلة الثقافية (صحيفة الجزيرة) حتى نهاية عام ١٤٣٥هـ، جمعت منها ما كتبته في موضوعين تواصليين، أما الأول فشهادات كانت إما بمناسبة تكريم أحد أساتذتي أو كان في تأبين من اختاره الله منهم، وأما الآخِر فمراجعات مختلفة، فمنها قراءات في أعمال إبداعية، ومنها ما كان غبّ قراءة رسالة علمية أو دراسة نشرت في كتاب، ومنها متابعات غبّ قراءة أبحاث أو مقالات ذات علاقة باللغة وقضاياها، ومنها موضوعات يجمعها أنها معبرة عن هموم اللغة وتعليمها، واجتهدت في إعادة نشر كل ذلك ليكون بين يدي القراء من العلماء والطلاب والمثقفين وعشاق العربية، تلبية لرغبة بعض زملائي وطلابي، وما نصيحتهم بإخراجها إلا لقناعتهم بما تتضمنه من فائدة إن شاء الله.

وهذه المراجعات كانت تعنّ لي أثناء القراءة، وليس ما كتبته فيها ترديدًا وتكرارًا لما ورثناه بل محاولة صادقة للاستفادة من ذلك التراث والانطلاق منه لشرح غامض أو استيفاء نقص أو إيجاد بديل أراه نافعًا، وحاولت معاودة النظر في مقولات النحويين وإبداء رأي قد يوافقني فيه بعض القراء وقد يخالفني غيرهم لميلهم إلى ما ألفوه من الأحكام المقررات والأقوال المشهورة المتداولة، ومعلوم في العقل أن الشهرة والتداول لا تعني صحة الشيء فكثير من شؤون البشر التي أطبقوا على مزاولتها يتبين زيفها عند التحقيق، وليست كثرة أتباع أمر من الأمور بدليل على سلامته وصحته فالناس أكثر ما يكونون أسرًا للعادة والإلف.

والمنجزات اللغوية العربية الشامخة ببنائها ثمرة جهود أجيال من اللغويين العظام الذين نفخر بهم ونحس الضآلة أمام صنيعهم الذي نحن عالة عليه، ولكن

الواجب يدعونا لمواصلة جهودهم وأن نسير على خطاهم ونسلك سلوكهم الذي كان من أوضح معالمه إبداء الرأي والشجاعة في الخلاف والاختلاف وتحري الحكمة وترك التعصب، مستفيدين ما أمكن من جهود علماء اللغة المحدثين من عرب وغير عرب.

حاولت تصنيف المسائل تحت عنوانات رتبتها ترتيبًا هجائيًا، جمعت تحت كل عنوان المسائل التي رأيتها أليق بالعنوان وإن كانت صالحة للدخول تحت عنوان آخر، وربما غيرت تغييرًا يسيرًا في بعض عنوانات المسائل كما عرضت في زاوية المداخلات اللغوية من المجلة الثقافية، وهذا التغيير ربما اقتضاه التصنيف.

ومن فوائد هذا التصنيف إرشاد القارئ إلى باب المسألة التي قد يغيب عنه بسبب عنوانها الخاص. وقد تكون المسألة نشرت منجّمة في المجلة الثقافية رعاية للمساحة المخصصة ولكني دمجتها في الكتاب، وقد يكون الموضوع ظهر في مسألتين نشرتا في أوقات متباعدة فضممتهما في حيز واحد. وربما وضعت عنوانًا جديدًا لتدخل تحته غير مسألة من المسائل التي تعالج موضوعًا واحدًا.

أرجو أن يجد عملي هذا القبول وأن يكون مجالًا لحوار بناء يعيد للعربية شيئًا من حيويتها يتجاوز به ما نالها من جمود في الدرس .

المؤلف

أولًا–شهادات

أستاذنا أحمد محمد الضبيب

١–أيام الدرس مع د. الضبيب

كنا مجموعة صغيرة من الطلاب (العجاجي، المرزوق، العامر، الأتاسي، الشمسان، الغامدي، العويشق، أبو جبال)، مقبلين على الدرس والتحصيل، بادرت وقد علمت أن الدكتور الضبيب سيعلمنا الأدب الجاهلي والأموي إلى اقتناء كتاب الدكتور شوقي ضيف الأدب الجاهلي وبدأت قراءته استعدادًا لفهم الدروس. كانت المفاجأة لنا جميعًا أن أستاذنا العزيز دخل علينا وبيده شرح المعلقات السبع للزوزني، وهكذا وضعنا مباشرة أمام نصوص الشعر الجاهلي، وبدرس شمولي كانت القراءة من كل فرد بالتناوب، كان علينا لذلك أن نستعد بقراءة تلك القصائد لنحسن قراءتها في الفصل، وطالبنا أستاذنا بالتحليل الأسلوبي الأدبي لتلك القصائد مراعين أثر الجرس في التعبير عن مضامين القصائد وعلاقة المعجم بمقتضيات الوفاء بالتعبير عن تلك المضامين، كل واحد منا كان يجتهد في كتابة تحليله للقصيدة ثم يأتي ليقرأها أمام الزملاء ليناقشها الآخرون مناقشة ناقدة مستفيدين جميعًا من ملاحظات أستاذنا وتوجيهاته، بدأت محاولاتنا ساذجة سطحية أول الأمر ثم أخذت تتحسن مع الوقت، ولست أنسى ما وقع بيني وبين أستاذي من الخلاف في بيت لبيد بن أبي ربيعة:

مِنْ كلِّ سَارِيَةٍ وغادٍ مُدْجِنٍ***وعشيَّةٍ متجاوبٍ إرْزامُهَا

إذ كنت حين كتبت محللا قصيدته زعمت أنه استعمل (مدجنٍ) وما فيها

من تنوين وهبها رقة لا تناسب صورة السحب المتراكمة برعودها، فقال أستاذي بل هي مصورة بجرسها وما فيها من تفخيم الميم المضمومة والدال المنفجرة والجيم الشديدة، ثم إنه ملأ فمه بالكلمة وهو يلفظها ليقنعني؛ ولكن العناد استولى عليّ فلفظتها متعمدًا ترقيقها، فصار يلفظها مفخمة وألفظها مرققة، فلما استيأس مني تركني بعنادي لأدرك بعد ذلك أني أخطأت.

كانت تجربة قراءة القصائد وشرحها ثم كتابة تحليل لها ثم عرضه لنقد الزملاء تجربة ثرية وتدريبًا مبكرًا على مزاولة العمل العلمي، ولم يكتف أستاذنا بهذا بل كلفنا قراءة كتب تتعلق ببعض القضايا المهمة في تاريخ الشعر الجاهلي فقرأنا كتاب مصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد، وقرأنا ما كتبه طه حسين وغيره عن قضية الانتحال، ومن أهم التجارب العلمية المبكرة التي عرضنا لها أستاذنا تكليفه لنا بصنع معاجم مفهرِسة لدواوين مختارة من الشعر الجاهلي وكان علينا أن نفهرسه كلمة كلمة، فصنعت معجمًا لديوان امرئ القيس، وأذكر أن الغامدي صنع معجم ديوان أوس بن حجر. كان لصنع المعجم أثره في تدريبنا على دقة العمل والتصنيف والصبر على العمل الشاق. كان أستاذنا مع لطفه ودماثة خلقه حازمًا.

أذكر أنني تأخرت عن تحليل بائية ذي الرُّمّة:

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ   كَأَنَّهُ مِنَ كُلى مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ

كانت الاختبارات النهائية على الأبواب، وكنت أريد الانصرف إلى الاستعداد لها، فرجوته أن يقيلني من تحليل القصيدة وقد كانت آخر التكاليف؛ ولكنه رفض رفضًا باتًا، ثمّ إني دفعت بزميلي الغامدي أن يتوسط لديه فرده ردًّا حازمًا، فوجدت نفسي ملزمًا بذلك التحليل، فكان أكثر ما كتبت توفيقًا بشهادة أستاذي الذي

وجه طلابه الذين خلفونا إلى قراءته. ويظل أستاذنا موضع الإعجاب والتقدير، فهو من أكثر المهتمين بالعربية المنافحين عنها الحاملين همومها المشاركين بفعالية بكل ما من شأنه تطوير درسها، وهو مثابر على شهادة المؤتمرات والمشاركة فيها وحضور الندوات والتعقيب بما يثري جوانب موضوعاتها، فما حضرت له محاضرة أو سمعت له تعقيبًا إلا ازددت منه معرفة، وتعلمت منه شيئًا جديدًا، فلا زال الله منعمًا عليه بالصحة ونافعًا به العربية، وأهلها.

٢–وأنتْ

اليوم الخميس ١٤٣١/١٠/٢١هـ، في دارة العرب حيث تعقد الندوة الخميسية تشرفت بلقائي أستاذي معالي الأستاذ الدكتور أحمد الضبيب، تلقاني بابتسامته الرائعة، وقال لي بعتاب رقيق: ما قرأت رسالتي. فلما بدت عليّ إمارات الدهشة قال: علقت على مداخلتك عن "العربية بين الإنقراض والتطور" المنشورة في الجزيرة يوم ٢٤شعبان، وكنت في كندا. فقلت إني لم أرها، وهذا صحيح لأني أبادر إلى قراءة الصحيفة بليل لأطلع على الموضوع وحفظه في الحاسوب، ورفعه في منتديين أثيرين عندي (الفصحى) و(ضفاف اللغة العربية)، ثم لا أعود إلى الصحيفة مرة أخرى، وهذا يفسر كيف فات علي الاطلاع على تعليق أستاذي الكريم الذي لا يفتأ يكرمني بحسن رعايته وتشجيعه، وهي رعاية ممتدة منذ عهد التلمذة على يده في قسم اللغة العربية إلى يومنا هذا الذي ما أزال فيه تلميذًا أنتفع من كتاباته وتعليقاته الشفاهية في الندوات والمؤتمرات.

وأما الرسالة فهذا نصها:

"أحسنت

أحسنت يا أبا أوس..لكن لقد أسمعت لو ناديت حيا..ومع ذلك يجب أن لا نيأس، سيأتي اليوم الذي يفيق فيه العرب من غفوتهم اللغوية. وسيعرفون –وأرجو أن يكون قبل فوات الأوان– بأن لا نهضة بلا لغة قومية قوية هي لغتهم العربية التي تملك من الإمكانات ما يفوق كثيرًا من اللغات العالمية المعاصرة. وإلى أن يأتي ذلك اليوم يجب أن يستمر المخلصون من أمثالك في رفع الصوت والمطالبة بأن تحل اللغة العربية مكانها اللائق في جميع البلاد العربية.

٢٠١٠/٠٨/٠٧م ٠٤:٣١ د.أحمد الضبيب"

فالشكر لك أستاذي النبيل أن تلطفت بقراءة ما كتبت مقتنصًا الوقت لذلك، ثم أن علقت بيدك الكريمة هذا التعليق الرائع، وكنت أشرت في البحث الذي ألقيته في جلسة افتتاح مؤتمر جاكرتا إلى جهد أستاذي في المنافحة عن العربية، وهو أمر جعله همّ حياته، فليس يترك فرصة إلا اهتبلها في سبيل دعم العربية والمدافعة عنها. والجميل ما تحمله تضاعيف نفسه من أمل قويّ بصلاح الأحوال، في وقت يكاد يستولي اليأس على المهمومين بأمر العربية؛ فهو يرجو كما يتبين من رسالته أن يأتي الوقت الذي يحس العرب فيه أهمية اعتمادهم لغتهم القومية سبيلا إلى نهضتهم، وهو يرجو أن لا يطول هذا الوقت.

وإني لأرجو من أستاذي أن يقبل عذري عن تقصيري.

٣–الهدية

لماذا لا تأتي إلى ملتقى حمد الجاسر؟ قال لي ذلك وابتسامة يشرق بها وجهه، ثم أردف: لك عندي هدية، ظللت أحملها معي غير مرة حتى مللت من ذلك فتركتها في البيت، زرنا. ابتسمت باستحياء واعتذرت عن قلة حضوري بالانشغال، وخرجنا من مركز الشيخ حمد الجاسر الثقافي وقد عزمت على زيارته في بيته بعد

صلاة الجمعة، وهو الوقت الذي خصصه لاستقبال طلابه وزملائه ومريديه؛ ولكن حال دون ذلك أنّ وزارة الثقافة والإعلام أقامت احتفالها السنوي الذي تكرم به العاملين على جائزة الكتاب الذي تقدمها كل عام لعشرة كتب سعودية، ولما كنت من المدعوّين الذين يهمهم الأمر أرجأت الزيارة في ذهني إلى الجمعة الآتية، ثمّ تفاجأت به يهاتفني ليدعوني لحضور عشاء في بيته على شرف الدكتور حسن الشافعي رئيس مجمع اللغة العربية في القاهرة الذي يزور الرياض ليشهد اجتماع أمناء مركز الملك عبدالله الدولي لخدمة اللغة العربية وهو أحد الأمناء. ومنذ ذلك اليوم الذي ذكر فيه الهدية وأنا أحاول تخمين ماهية تلك الهدية، أقول ربما هي كتاب أرسله معه من عرفني في البلاد التي زارها مؤخرًا، أو نسخة من مقال كتبه لم يبلغني، وجاءت دعوته لي لتكون فرصة سانحة للمطالبة بالهدية، وهكذا كان، إذ بعد أن انتهينا من تناول العشاء الفاخر وخرجت من غرفة الطعام كان يسايرني ليدعوني للبقاء لتناول شاي ما بعد العشاء، فشكرته لدعوته ودعوت له وتجرأت فطالبت بالهدية، فقال: نعم. ومضى نحو ركن وتناول شيئًا كان على منضدة تحمل فانوس إنارة، وأتى به إلي، وسلمه مصحوبًا بابتسامة حلوة، تناولت الظرف ومضيت إلى المجلس، حتى إذا استويت جالسًا شرحت بفض خاتم الظرف لأخرج الهدية المترقبة المنتظرة، لم تكن الهدية كتابًا من أحد، ولا مقالا كتبه أستاذي، بل كان عملًا أنا نفسي كتبته حين كنت طالبًا في السنة الثانية في قسم اللغة العربية (١٣٩١هـ/١٩٧١م)، وهو جزء من أعمال السنة التي كلفناها أستاذنا الحبيب معالي الأستاذ الدكتور أحمد الضبيب، نهضت من مقعدي وكان في واقفًا في وسط المجلس لأقول له: إنها مفاجأة. وضحك لقولي، وقال: هذا مخطوط. وصدق

أستاذي فهو مخطوط كتب على الورق الحجازي، لأننا في ذلك الزمن لا نستطيع أن نطبع بيسر ما نكتبه من تكاليف وأعمال وبحوث؛ لأن الحواسيب لم تكن وصلت إلينا، وآلات الكتابة البدائية عزيزة، وليس كل أحد يتقن العمل عليها، ولم تكن آلات النسخ والتصوير وصلت إلينا أيضًا، إذ كان من يريد نسخة يستعمل ما يسمى ورق الكربون، وأما العمل فهو فهرسة لديوان امرئ القيس، فهرسة لكل اسم وفعل وحرف جاء في رواية الأصمعي لذلك الديوان، وكان أستاذنا كلفنا من بين ما كلفناه أنّ يفهرس كل طالب ديوانًا من دواوين الشعر العربي.

كان من كرم أستاذي أن أضاف ورقة بيضاء بين يدي المخطوط ليكتب فيها إهداءًا لطيفًا هذا نصه "أخي الجليل أبي أوس الشمسان. هذه بضاعتكم ردت إليكم، بعد أن ازددتم الكثير من العلم والمعرفة. وتميزتم في مسيرتكم العلمية والتعليمية. حفظك الله وأدام توفيقك. أحمد الضبيب ١/٢٣ /١٤٣٥هـ". وكان فرحي بهذه الكلمات فوق فرحي بالهدية نفسها، فما أكرم أستاذي أحمد الضبيب الذي تكلف حفظ هذا العمل كل هذه السنوات الطوال على كثرة ما لديه من الأعمال والأوراق التي تنوء بها العصبة أولو القوة، وإن كلماته هذه تاج أزين به رأسي، وهي شهادة عالم جهبذ يعز نظيرها، وإني أرجو أن أكون عند حسن ظنه بي، أطال الله بقاء أستاذنا الجليل الأستاذ الدكتور أحمد الضبيب الذي عرفته في قاعة الدرس وتعلمت منه محبة الأدب العربي وتراثه وما زلت أتعلم منه إلى يومنا هذا. وكان من فرحي أن سكّنت النسخة ورفعتها إلى العنكبية ليطلع عليها من أراد ولينتفع بها من قد يجد فيها نفعًا، وهي عمل طلابي يصور تواضع المبتدئين، وهذا رابط الموضع: http://www.4shared.com/office/ZbryPqTfce/____.html

أستاذنا الحازمي

ما رأيت أحدًا مثل أستاذنا الدكتور منصور إبراهيم الحازمي، زويت له العلوم والثقافات، فهو المعلم الأكاديمي وهو الأديب والشاعر والناقد، وأشتهر بتعليقاته ونوادره اللطيفة التي تسعد من حوله، وهي صفة نادرة، وهو في كتاباته ربما نحا أسلوبا طريفًا ساخرًا، حتى قرنه الدكتور أحمد غانم بالجاحظ والمازني من أدباء العرب الساخرين، والذي يعرف الأستاذ عن قرب يجده يجمع بين أمرين متضادين الجدّ والهزل، ولعل اسمه موافق لرسمه، فحازمي نسبة إلى (حازم) وإن عكست القراءة قلت (مزّاح). وآية ما ذكرته من أدبه ودأبه أنه حين كرمه قسم اللغة العربية يوم الأربعاء الماضي ١٤٣١/٣/١٠هـ لم يكتف بالكلمة الرصينة التي ارتجلها يشكر فيها المتحدثين، بل أخرج من جيبه ورقة قد كتب فيها قراءة لموضوعات الكتاب الذي أهداه إليه القسم، وكانت كتابته وإن سماها مخربشات قطعة أدبية نقدية حازمية الطرافة ممتعة أيما إمتاع، لابد أنه كتبها بعناية واقتدار عجيب.

ويعود الذهن بي إلى أيام التلمذة حين كنت وزملائي ننتظر محاضرة أستاذنا الحازمي بشغف، إذ لم تكن كأي محاضرة، فهي مزيج من العلم والأدب، كان وقت المحاضرة يمضي سريعًا دون أن ندرك، وأذكر دليلًا على تمكنه وحفظه أنه قدم للأدب الحديث بمحاضرة قالها عن ظهر قلب على التحولات السياسية والاجتماعية التي واكبت النهضة الأدبية الحديثة في العالم العربي.

وبعد أن عدت من البعثة وتشرفت بالانضمام إلى عضوية التدريس في قسم اللغة العربية ازددت معرفة بأستاذنا، فعرفت فيه الجانب الإداري المتصف بالحكمة والمرونة والمبادرة، كان قسم اللغة العربية في أيام رئاسته مزدهرًا يعج بالطلاب فكان

يلقاهم في مكتبه مشتكين من بعض أساتذتهم فيسمع لهم ويوجههم وينصحهم أن يراجعوا الأساتذة أنفسهم.

أما أنا فلست أحصي أياديه البيضاء عليّ وكرم تعامله، فلست ألقاه إلا محييًا إياي مرحبًا وربما موجهًا بلطف، أذكر أنه سألني مرة عن أستاذنا المرحوم الدكتور حسن شاذلي فرهود، فقلت له: لا أعلم فمنذ مدة طويلة لم أره، فقال: حرام عليك هذا أستاذكم. ومن مواقفه النبيلة التي لا أنساها أنه صادف دخولنا المصعد معًا فنظر إلي فأدرك بذكائه وفطنته أنني كاسف البال، فلم يتركني بل قال: ما لَك؟ فقلت له إن أستاذي الدكتور يوسف خليف يحتفل به الليلة لنيله جائزة الملك فيصل ولم أُدعَ إلى الحضور. فقال: لا تهتم، بعد قليل تصلك الدعوة. وبعد قليل من وصولي مكتبي جاءتني الدعوة الموجهة له شخصيًّا، آثرني بها ولم يشهد الاحتفال.

أستاذنا حسن شاذلي فرهود

١-عاش بصمت وبصمت رحل

في يوم الأربعاء ١٣من محرم سنة ١٤٣١ﻫ بهدوء وصمت أودع الثرى جسد أستاذنا عالم العربية وأستاذ الأجيال الدكتور حسن شاذلي فرهود، أما هو فظل بيننا وسيظل أبدًا، كتب بيديه مجده بصمت وهدوء وعمل دؤوب لا يكل ولا يمل. كانت العربية همه الأول وعشقه الوحيد، وكانت مكتبته مكانه المقدس الذي ينسى الدنيا ومن فيها حين ينزوي فيها فتنداح له بالمطالعة والتحقيق دوائر غير متناهية من المعرفة بالدقائق. قال لي بعيد وفاة زوجته رحمهما الله رحمة واسعة إن ابنتي تريد أن ننتقل إلى جدة؛ ولكني لا أستطيع أن أستغني عن مكتبتي يومًا واحدًا.

كأنه أمس القريب حين دخل علينا قاعة الدرس في مبنى كلية الآداب في الملز، كنا طلاب السنة الأولى، وهي سنة تمهيدية يمضي من يجتازها ثلاث سنوات تخصص في قسم من أقسام الكلية الأربعة، كان الأستاذ في يومه الأول يحمل كتابًا صغيرًا حتى إذا انتظم الفصل وهدأ الجمع من مهابته دفع بالكتاب إلى أحد الطلاب ليقرأ منه أسطرًا وهو يصغي ثم ينقله من واحد إلى آخر، تبين لنا بعد ذلك أن الكتاب هو (الأيام) لطه حسين، وتبين لنا أن الأستاذ يقيس مهارتنا في القراءة الجهرية، ويتعرف جوانب الضعف فيها. لم تكن هذه السنة التحضيرية مؤهلة لدرس كتاب نحوي من المتون أو الشروح التراثية التي يصعب التأتي إليها، فكان أن رأى إعداد مذكرة تزوي أهم أحكام النحو مما له علاقة ماسة بالأداء كالنواسخ الفعلية والحرفية ونواصب المضارع وجوازمه، قدم ذلك وغيره بلغة واضحة سهلة وضرب الأمثلة الدالة، لم يحشد الشواهد ولم يورد النوادر والشواذ، ولم يشغل

الطالب بالحدود وما تجمع وما تمنع. كان ممن يختلف إلى بيتنا زائرًا من حين إلى آخر صديق أخي الذي كان ينهي سنواته الأخيرة في كلية اللغة العربية، فرأى المذكرة بين يدي فتناولها وتصفحها والدهشة تأخذ منه كل مأخذ، فأنَّى يقدم النحو الذي عانى منه في سنوات دراسته كلها بهذا الوضوح وبهذه الطريقة المباشرة السهلة. قال لي: سلّم لي عليه، وهي جملة لازم معناها إنشاء المدح والتعبير عن الإعجاب. وكما كان أمر إتقان العربية ونحوها همه الأول كان الطريق إليه بعث التراث النحوي بتحقيقه تحقيقًا علميًّا دقيقًا، وهكذا بدأ حياته العلمية بتحقيق كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسيّ ثم كتاب (التكملة) الذي يعد الجزء الثاني من الإيضاح على اختلاف بينهما في المنهج والهدف، فقد كان الإيضاح كتابًا تعليميًّا يسير العبارة واضحها، وهو ما دعا النحويين من بعده كالجرجاني وابن الحاجب إلى بسطه بالشرح، وهكذا قضى رحمه الله حياته في تخير الأعمال الجليلة والعكوف على إخراجها إلى الناس، لا يرجو منها سوى المثوبة من الله، كان حفيًّا بالتحقيق وأهله، والمشتغلون بالتحقيق من كل الجامعات يعرفون له فضله، ولا ينسون عونه لهم وإرشاده.

ما اجتمعنا مرة إلا دعاني بلطف ورغبة في الخير شديدة إلى مزاولة التحقيق، غير أني أعتذر؛ لأني لا أملك مؤهلات المحقق من صبر شديد ومعاناة متواصلة في التنقير عن الدقائق في كتب غير متناهية. كان أستاذنا شديد الوفاء للتراث شديد التمسك بآراء القدماء، ولعل هذا من أسباب عكوفه على بعث تراثهم وتحقيقه، ولكنه مع ذلك قارئ دقيق لا يترك شاردة ولا واردة، خبرت هذا حين فاجأني باحتفاظه بأبحاث كتبتها أيام التلمذة عليه في الكلية، بحث عن حروف الجر في

السنة الأولى وبحث عن أسماء الفعل في السنة الثانية مخطوطين بل أطلعني على رسائلي إليه كنت أبعثها إليه من القاهرة. وكنت كلما زرته يخبرني أنه قرأ ما كتبته في المجلة الثقافية، أعلم أنه ربما لا يكون راضيًا عن بعض ما أكتب؛ ولكنه لا يشير إلى ذلك بل يدعوني إلى الكتابة في موضوعات يقترحها.

٢-علو في الحياة وفي الممات

أكثر ما يستقبل أستاذنا حسن شاذلي فرهود زواره من طلابه ومريديه في مكتبته التي تشغل الدور الأول الأرضي من عمارته الصغيرة، كان يمضي في تلك المكتبة سحابة نهاره يقرأ فيها ما شاء الله له أن يقرأ ويحقق ما يوفقه الله إلى تحقيقه، لا يمل التنقل بين كنوزها التي أنفق عمره في جمعها وتخيرها وتجليدها والعناية بتنظيمها وترتيبها، كان يعيش بين تلك الكتب كأنه في حديقة غناء ذات أزهار وأطيار، لم أر عاشقًا لمكتبته كأستاذنا رحمه الله، قال لي بُعيد وفاة زوجته رحمها الله إن ابنته تلح عليه أن ينتقلا إلى جدة لتعمل هناك ولكي يكونا إلى جوار عمها، ولكنه قال: لا أستطيع أن أترك مكتبتي، لا أطيق تركها يومًا واحدًا. وأما في زياراتنا له فإن محور الحديث يدور حول تحقيق الكتب وأخطاء الكتاب والمؤلفين، وكان أهم حديث يتكرر قصة افتتاحه قسم المخطوطات في جامعة الملك سعود، وقصة الاهتمام البالغ بالمكتبة المركزية وتزييدها بالكتب، فكان له فضل كبير في رفدها بجملة من الكتب النادرة؛ إذ ما يسمع عن انتقال عالم من العلماء إلى جوار ربه إلا بادر بالتوجه إلى ذويه لشراء مكتبته وضمها إلى كنوز مكتبة الجامعة، حدثنا عن سفراته المتعددة إلى مصر وتفاوضه مع ورثة العلماء لشراء مكتباتهم، ولم يكن ينسى فضل الدكتور عبدالله بن ناصر الوهيبي رحمه الله وكان أمين الجامعة في أمر

مساندته ومده بالاعتمادات المالية اللازمة لتحقيق الغرض، وهكذا تكونت مكتبة الجامعة نوعيًّا فصارت قبلة الناس من الدارسين من داخل المملكة وخارجها.

هذا الأستاذ العظيم رحمه الله بذل نفسه لجامعة الملك سعود علمًا وعملا، ولكن قيل لي إنه بعد أن تقاعد احتاج شهادة تعريف لأمر من أمور الروتين العقيم فجاء يطلبها من الجامعة فلم ينلها بحجة واهية هي أنه لم يعد على رأس العمل، هكذا النكران، ومضى محبطًا آسفًا. وحين تقدم بعض طلابه إلى قسم اللغة العربية باقتراح أن يكتب كتاب يضم بحوثًا تهدى إليه اعترض بعضهم ذلك الاقتراح، وكان أن اضطر أولئك إلى أن يكتبوا الكتاب بنية أن يطبعوه خارج الجامعة على نفقتهم الخاصة؛ ولكن قيض الله له عميد كلية الآداب الشهم الأستاذ الدكتور سليمان العقيل فسعى إلى أن تنشره مطابع الجامعة، وهكذا ظهر كتاب (الشاذليات) الذي أبهج ظهوره أستاذنا رحمه الله، وخير تكريم ما يشهده المرء في حياته. وبعد وفاة أستاذنا لم أنس أن أوصي ابننا الدكتور ناصر الحجيلان عميد المكتبات حفظه الله ووفقه أن يسعى إلى اقتناء مكتبة الشاذلي لما كنت أعلمه من أهمية المكتبة ونفاستها، فقال لي: هذا أول ما سأفعله. ومضت أشهر لا أعلم ما حدث من أمر تلك المكتبة، ولما سألت الدكتور ناصرًا عن أمر المكتبة وكنت خشيت أن يسبق إليها قال لي: لقد تبين أن الأستاذ قد كتب في وصيته أن تضم إلى مكتبة جامعة الملك سعود، هكذا زود الشاذلي مكتبة الجامعة في حياته وبعد مماته.

علو في الحياة وفي الممات   لحق أنت إحدى المعجزات

الدكتور عبدالصبور

عرفت الدكتور عبدالصبور شاهين أثناء بعثتي الدراسية إلى القاهرة، عرفته أولًا من كتبه اللغوية التي أقبلت على قراءتها؛ لأني كنت أرغب في معرفة بعض الدراسات الحديثة، ومن كتبه التي قرأتها "القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث"، و"المنهج الصوتي للبنية العربية"، وقرأت له ترجمته لكتاب هنري فلش "العربية الفصحى". وعرفته حين أكرمني باستقبالي في بيته، وكنت اتصلت به أستأذنه في حمل نسخة من رسالتي للماجستير إليه لأنه أحد المناقشين، كان استقباله لي رائعًا أطلعني على مكتبته وعلى مشاريعه في الكتابة والترجمة وحدثني عن معاناة النشر التي يواجهها، اطلع على رسالتي وأنا جالس عنده ونظر في مراجعي وإذا بكتاب ليس لديه فصارحني بحاجته إلى النظر في الكتاب وهو (الواضح في اللغة العربية للزبيدي) فوعدته بإحضاره، وهكذا تيسر لي أن أزوره مرة أخرى وآنس بحديثه وأنتفع من علمه، لا أنسى أنه صحح لي نطق الوصف (الصلب) فكنت أفتح الصاد فأوصاني بضمها. وكان رحمه الله يمتاز بجهارة الصوت ووضوح مخارج الأصوات وسلامتها فأنت تسمعها منه سماعكها من قراء القرآن الكريم، وليس بغريب منه هذا فقد حفظ القرآن في الصغر وتعلم في الأزهر الشريف، وإنك لتلمس اختلاف نطقه الأصوات عن نطق الدكتور أحمد مختار عمر رحمه الله الذي تسمع منه الثاء سينًا، أما هو فيخرجها من بين الأسنان كما يجب أن تخرج. كان الدكتور عبدالصبور شاهين وزميله الدكتور عبدالعزيز مطر هما تلميذي العالم اللغوي إبراهيم أنيس رحمهم الله جميعًا. قال لي الدكتور عبدالصبور

اتصلت الشرطة بي يومًا، وقالوا: هنا رجل مجهول صدمته عربية فمات، ووجدنا في جيبه ورقة فيها اسمك. كان للدكتور عبدالصبور شاهين حضور في وسائل الإعلام من تلفاز وإذاعة، وكان خطيبًا مشهورًا. قال فلما مضيت هناك وكشفت أوراق الجرائد التي سجّي بها إذا بأستاذي إبراهيم أنيس رحمه الله ملقى أمام باب مجمع اللغة العربية، خرج لا يلوي على شيء غير منتبه لما يموج به الشارع من حركة الحياة المضطربة فاقتحمته العربة فخر صريعًا. أطلعني رحمه الله على بعض الرسائل التي أشرف عليها، وكان من أهمها عندي رسالة (رسم المصحف) لغانم قدوري الحمد، فاستأذنته في تصويرها، فسلمها لي من غير تردد.

كان في كلية دار العلوم قسمان متنافسان أحدهما قسم النحو والصرف حيث تعلم علوم العربية التقليدية وآخر قسم اللغة حيث تعلم علوم اللغة الحديثة، وفيه مع الدكتور عبدالصبور الدكتور محمد كمال بشر والدكتور عبدالرحمن أيوب والدكتور تمام حسان، وقال لي تلميذه الدكتور محمد حماسة عبداللطيف: كان ما يفتله الدكتور عبدالصبور في قسم اللغة ننقضه في قسم النحو والصرف، فكان يقول لي: "بلاش نأطّع[نقطّع] على بعض"، وهذه من اللهجة المصرية، أي: لا يفسدن أحدنا على الآخر أمره. رحم الله أستاذنا الدكتور عبد الصبور ومتع بعمر تلميذه أستاذنا الدكتور محمد حماسة عبداللطيف.

القوزي

١-القوزي والفصحى والإعلام

الأستاذ الدكتور عوض بن حمد القوزي عالم من علماء اللغة العربية، عضو المجمع اللغوي، وهو الجندي الذي نذر نفسه لخدمة اللغة العربية الفصيحة والذود عنها، وهو ذود عن بصيرة، كتب بخط يده "حبنا للعربية لا يدعونا إلى التقعر بألفاظها...وينبغي ألا يحرمنا من الاقتراض اللغوي...وألا يحرمنا من تعلم اللغات الأجنبية...وحبنا للفصحى لا يلغي اعترافنا بأن نسبة كبيرة من الألفاظ في العاميات هي فصيحة".

ألقى الدكتور القوزي في يوم الاثنين ١٤٣١/١١/١٠هـ محاضرة عن "الفصحى وتحديات الإعلام" بيّن فيها قدم هذا التحدي بوحي من دعاة التغريب الذين اتخذوا الإعلام للدعوة إلى العامية بدلًا من الفصحى، وحاولوا إقناع المثقفين بفضل العامية وسهولة الكتابة بها، ودعوا إلى أن يستبدل بالحرف العربي حرفًا لاتينيًّا، ثم كان لاتساع الاتصال بالغرب أن دخلت الرطانة في ثنايا الخطاب تباهيًا بمعرفة لغة أجنبية، وهذا الذي يرفضه الغيورون على لغتهم يرونه نذير ضعف الشخصية. والإعلام الذي هو لسان الأمة المعبر عن آمالها وآلامها سعى إلى هدم صروحها وتقويض أركان لغتها فهذه الهجنة اللغوية قطعت أوصال العروبة وفصحاها، وعمت اللغة الملحونة وسادت العاميات المفرقة بين الشعوب، صارت الفصحى هي الاستثناء والعاميات هي القاعدة، ولم تسلم الصحافة من هذا الداء فصار يكتب بالعامية وبلغة هجينة بل أفردت صفحات للآداب الشعبية والفلكلور. ويستدل الأستاذ لما تعانيه الفصحى من اغتيال الإعلام لطهرها بتلك

المؤتمرات والندوات التي تقام كل عام للمنافحة عن تلك اللغة. وعلى الرغم من أن على الإعلام رسالة ثقيلة تجاه المجتمع وثقافته تخلى عنها؛ فنراه ينشر العاميات ويشيع التلوث اللغوي، كل ذلك على الرغم من أن الدساتير المدنية العربية تفرض على الإعلام اللغة العربية الفصحى، والقرارات تمنع انتشار الإعلانات باللغات الأجنبية. ويتساءل بحسرة "ولست أدري متى نستعيد ثقتنا بأنفسنا، ونأخذ مكاننا اللائق بين شعوب العالم؟!".

تلك كانت صرخة من صرخات تتعالى من أفواه المجاهدين في وجه الريح العاتية والإعصار الذي يعصف بالأمة، ليس الإعلام تسلية بريئة عابرة بل هو المسيطر على عقل الأمة وأفئدة أبنائها، فهو الآن ولي تربية الأجيال، تولى تربية الأبناء في البيت والمدرسة ملغيًا أثرهما، وما لم تتنبه الأمة للخطر المحدق فإنها صائرة إلى التشرذم والقطيعة متى استفحلت العاميات وأخذت طريقها إلى الاستقلال لتكون لغة مختلفة عن أختها؛ فتلقى الفصحى من المصير ما لقيته اللاتينية المنقرضة، وإن لغة لا يتكلمها الناس في الشوارع والأهل في البيوت والمزارع لغة منقرضة أو في حكمها.

٢-رحم الله عوض القوزيّ

في يوم الخميس١٩/١٢/١٤٣٤هـ توفي أستاذنا الجليل الدكتور عوض بن حمد القوزي أستاذ النحو والصرف في قسم اللغة العربية-كلية الآداب-جامعة الملك سعود، وكان قد تعرض لحادث مروريّ أليم وهو في طريق عودته من مدينة القوز إلى جدّة التي نقل إليها وأدخل إلى العناية المركزة في مستشفى الملك فهد حيث توفي بعد أيّام قليلة، رحم الله أستاذنا رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنّاته،

وألهم ذويه وزملاءه وطلابه الصبر والسلوان. كان من بين قلّة من الأساتذة الذين زويت لهم علوم العربية والثقافة الغربية، فقد أنهى دراسة الماجستير في جامعة الملك سعود حيث كتب رسالة عن (المصطلح النحوي-نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري)، ثمّ استكمل دراساته العليا في جامعة أكسفورد فأنهى دراسة الدكتوراه وكتب موازنة بين شروح كتاب سيبويه في القرن الرابع الهجري، ولما عاد للتعليم في القسم واصل اهتمامه بكتاب سيبويه فاستخرج من شرح السيرافي ما كتبه عن الضرورات الشعرية وجعله كتابًا منفصلًا (ما يحتمل الشعر من الضرورة)، وحقق كتاب (التعليقة على كتاب سيبويه) لأبي عليّ الفارسيّ، ومما يتعلق بعنايته بسيبويه ما كتبه من أبحاث (رحلة كتاب سيبويه من البصرة)، و(زعم الخليل في كتاب سيبويه)، و(أقوال العرب في كتاب سيبويه)، و(أثر كتاب سيبويه في الدرس اللغوي). ووجه بعض طلابه ليدرسوا موضوعات تتعلق بسيبويه فكان منها رسالة الماجستير (المسائل الافتراضية في الكتاب لسيبويه)، ورسالة الدكتوراه (الاستطراد في كتاب سيبويه)، وكان رحمه الله له من السمعة العلمية ما جعلته عضوًا في المجامع والجمعيات اللغوية، شارك في مؤتمرات وندوات داخل المملكة وخارجها، واختير حكمًا لكثير من البحوث والكتب، ناقش رسائل ماجستير ودكتوراه، وأشرف على عدد من طلاب الماجستير والدكتوراه، يشهد له طلابه بفضله وعلمه وكرمه وشدة عنايته بهم والحرص عليهم، وقد رأيت السجل الذي كان يدوّن فيه تواريخ لقائه بالطلاب لمناقشتهم في إعدادهم رسائلهم، ورأيته يكتب تقارير عنهم بخطّ نسخيّ رائع، وأما زملاؤه في القسم والجامعة فمجمعون على الثناء عليه لدماثة خلقه وصدق قوله ومعاونته لهم. وكان رحمه الله وفيًّا محبًّا لأساتذته وبخاصة

المرحوم الأستاذ الدكتور حسن شاذلي فرهود، وآية ذلك تشجيعه لي أن نشترك في كتاب يهدى إليه فكان كتاب (الشاذليات) الذي شاركنا الكتابة فيه الدكتور محمد الباتل الحربيّ، والأستاذ الدكتور تركي بن سهو العتيبي من جامعة الإمام، وكان لي شرف مشاركته غير ندوة ومؤتمر، وما دخلت قسم اللغة العربية إلا عرجت على مكتبه لأجلس إليه وأسمع منه ونناقش هموم العربية التي كان من أشدّ الناس غيرة عليها ومن أكثرهم دفاعًا عنها، ومن أمثلة ما كتب عنها جملة من البحوث منها: (رؤية مستقبلية لتدريس اللغة العربية)، و(الضعف اللغوي – التشخيص والعلاج)، (اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين)، و(رؤية تربوية في مناهج اللغة العربية)، و(إحياء الدخيل على رفات الفصيح)، و(الوعي اللغوي – نشأته وتطوره)، و(العربية الفصحى في مواجهة تحديات العولمة)، و(الضعف اللغوي – أسبابه وعلاجه)، و(الإعلان واللغة)، و(الجهود المبعثرة في خدمة التراث)،و(اللغة والهويَّة)، و(حصار الضَّاد). رحم الله أبا محمد الذي عرفته بنبل خلقه، وسعة معرفته، وسابغ كرمه، وإنّ العربية بذهابه خسرت أحد أهم سدنتها، فلعل الله ينفع بما خلفه من علم وبمن علّم من طلابه ليواصلوا رسالته التي نذر نفسه لها.

رحمك الله يا تمام

رحم الله أستاذنا أستاذ العربية العلامة تمام حسان، علم أجيالا من الباحثين المبدعين وتعلم على كتبه خلق لا حصر لهم، ومنذ أن عاد من أوربا ليعلم في دار العلوم شارك في نشر مبادئ المذهب الوصفي في درس اللغة، فكتب (مناهج البحث في اللّغة)، وكتابه (اللغة بين المعيارية والوصفية) الذي بيّن فيه أنّ المعيار هو ما يهتدي به مستعمل اللغة وأما الوصف فوسيلة الباحث إلى الكشف عن ذلك المعيار وتفسيره، ولم يكتف كغيره بنقد النحو العربي ونظرية العامل بل حاول في كتابه (العربية معناها ومبناها) أن يدرس اللغة العربية حسب مستويات الدرس اللغوي فدرس أصواتها وصرفها ونحوها ومعجمعها، ومن أبرز ما عالج في الكتاب أنه طرح فيه بديلًا عن (نظرية العامل) التي هي عماد تفسير ظاهرة التصرف الإعرابي في العربية، فاعتمد حسب منهج وصفي على (القرائن اللغوية) اللفظية والمعنوية، وهي منتزعة من الوصف اللغوي للغة من غير تعسف أو تأويل، ولم تكن نظرية القرائن هذه بعيدة عن روح النحو العربي بل صادرة من رحمه مستثمرة لكثير من معطياته وموظفة لجملة من مصطلحاته، فكانت بذلك قريبة من فهم القارئ، فتلقاها الدارسون قبولًا حسنًا، ولكنها كغيرها من الجهود والمحاولات البحثية القديمة والحديثة لم تأخذ مكانها من التعليم العام لسيطرة النحو المالكيّ الذي حجب ما قبله وما بعده. وكان لتعمق أستاذنا في الدرس التراثي أن وهب المكتبة العربية كتابه (الأصول: دراسة إيبستيمولوجيّة لأصول الفكر اللّغويّ العربيّ) درس فيه أصول النحو دراسة عميقة نادرة المثال، وكتب عن البيان القرآني سفرًا كبيرًا أودعه كثيرًا

من تأملاته وآرائه هو (البيان في روائع القرآن) فكان الدرس الوصفي منطلقًا من نصّ لغويّ حيّ غنيّ بتراكيبه وأساليبه.

ولاطلاع تمام على اللغات الأجنبية شارك في الترجمة عنها في علوم اللغوية والفكر؛ إذ ترجم (مسالك الثّقافة الإغريقيّة إلى العرب)، و(أثر العلم في المجتمع)، و(اللّغة في المجتمع)، و(الفكر العربيّ ومكانه في التّاريخ)، و(النّص والخطاب والإجراء).

تشرفت بمشاركته مناقشة طالبه النابه (محمد بن حماد بن ساعد القرشي) الأستاذ في جامعة أم القرى الآن، وأذكر أنّي وجهت إلى الطالب ملاحظة فرد أستاذنا بما كان درسًا لي لا أنساه حين قال "اللغة أعم من قواعدها"، كلمة جامعة ما أزال أرددها على طلابي.

ومن طلاب الدكتور الذين تشرفت بمعرفتهم الأستاذ الصديق الدكتور محمد حماسة عبداللطيف صاحب المصنفات النحوية التي جمعت بين عمق المعرفة التراثية وثمرة الاتصال بالعلوم اللغوية الحديثة، والأستاذ الصديق الدكتور سعد مصلوح اللغوي والأسلوبي المتميز، وعرفت الدكتور محمد عبيد الذي زاملنا فترة في قسم اللغة العربية فعرفت فيه عمق معرفته التراثية ومدى عشقه للعربية.

نالت الدكتور تمام جوائز متعددة ولكن أهمها جائزة الملك فيصل العالمية في عام ٢٠٠٥م.

تركنا الدكتور تمام حسّان بجسده ولكنه سيظل هو وأمثاله أحياء أبد الدهر؛ لأنهم نقشوا أسماءهم في القلوب وبما وهبوا للأمة من العمل المكتوب.

سليمان وأبوسليمان

سليمان بن محمد، ومحمد بن سليمان؛ فارسان توافيا في ليلة من ليالي الوفاء النادر، حيث كانت الندوة التي عقدت في محافظة المذنب وكان تكريم رواد التعليم في المحافظة، أما فارسا الندوة فهما طالب ومعلّم، الطالب هو الأستاذ الدكتور سليمان بن محمد العقيلي والمعلم هو الأستاذ التربوي الإداري محمد بن سليمان الشمسان. أما سليمان الذي تولى رعاية الندوة بأريحية بالغة ليكرم أساتذة الجيل الأول فألقى محاضرة أشار فيها إلى شيء من خبر التعليم السابق قبل فتح المدارس الحكومية ثم فصّل القول في شأن التعليم النظامي مركزًا على تجربته في التعلم مثنيًا على معلمه (أبي سليمان) الذي كان له من بُعد النظر ما سدّد به خطا طالبه، وكان من ثقة الطالب به ومحبته إياه ما جعله يسمع نصيحته فيواصل خطة دراسته وإن كان غيرها في ذلك الوقت أكثر جاذبية وأنفع لأحوال أهله. درست أنا والزميل سليمان في المدرسة السعودية ثم المدرسة المتوسطة، وكان قبلي في الدراسة وما زال قبلي بفضله، منذ عرفته رأيته كبيرًا فما تخيلته طفلا أو مراهقًا، كان جميل الخلْق والخلُق، لا يلقاك إلا بابتسامة عذبة وصوت هادئ معبر مقنع. وأما أستاذ الأجيال الإداري الفذّ أبوسليمان فحدثنا عن التعليم الذي كُلِّفه في سن مبكرة؛ إذ عيّن معلمًا بتخرجه من السنة السادسة الابتدائية، وبعد سنيّات كان يدير باقتدار أكبر مدرسة في المحافظة (المدرسة السعودية)، كشف أخي عن الصعوبات الجمّة التي كانت صاحبت التعليم في تلك الفترة، والإمكانات الفقيرة التي لم تثن المعلمين ولا المتعلمين، أخلص المعلمون لعملهم فكان هو الجهاد الذي نذروا أنفسهم له،

وكان المتعلمون عاكفين على التعلم مدركين أنه هو مستقبلهم وأنه هو نافذتهم إلى حياة كريمة، أشار إلى المدرسة التي لم تكن سوى بيت قديم وإلى الفصل الذي كان حجرة خاوية إلا من لوح صغير مسند إلى الحائط وكرسي يستريح عليه المعلم حينًا، وأما الطلاب فيصطفون أمامه على التراب اصطفافهم للتشهد الأخير، وهي جِلسة لا أنساها. أشاد أبوسليمان بزملائه المعلمين وبخاصة أخويه رشيد وعبدالله، ولم ينس أن يذكر فضل المستخدمين الفراشين والحراس. أعجبتني اللغة العالية التي كتب بها أبوسليمان محاضرته الموجزة، وأعجبني اقتداره اللغوي في القراءة؛ إذ لم أره خرم حرفًا واحدًا أو عاند قاعدة نحوية، جاء حديثه سلسًا منقادًا أصغى إليه الناس بانتباه، واشرأبت الأعناق متطلعة إلى المزيد لولا إحساسٌ بقِصر الوقت ورعايةٌ للحشد من كبار وصغار. كان المأمول أن تتاح الفرصة لتعليق من طلاب تلك المرحلة الذين عانوا معاناة معلميهم وذاقوا من مرارة تلك الفترة ما ذاقوا، وكان المأمول أن تتاح الفرصة لأجيال اليوم ليتبينوا حقيقة الأمس وواقع اليوم وشتان بينهما؛ ولكن ربّان الندوة وجّه حيزوم السفينة نحو مراسٍ اجتهد في تخيرها؛ فكان ما ارتجله المعلقون من كلماتهم القصيرة معبرًا عن فيض محبتهم وعن صدق تجربتهم، وكشف أن كل واحد ينطوي على سيل من الذكريات التي لو كتبت لكانت سفرًا ضخمًا عن سَفَر في لجة الحياة الماضية. كان مساءُ الأربعاء الثاني والعشرون من جمادى الآخِرة في العام الثاني والثلاثين بعد أربع مئة وألف من الهجرة موعدًا لوفاء سليمان لأساتذته خاصة وأساتذة التعليم المبكر بعامة. أبهجتني الليلة بكلماتها ودروع التكريم فيها لولا أن تلك الدروع قصرت عن أخي أبي محمد الذي طُوي اسمه ونُسي ذكره؛ فما ناله من الدروع ما نال الأساتذة الأحياء منهم وغير الأحياء.

صوت ابن خميس

رحم الله شيخنا الأستاذ الأديب عبدالله بن خميس الذي توفاه الله الأسبوع الماضي رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته. لم أقرأ لأستاذنا غير قليل مما كتبه في "المجاز بين اليمامة والحجاز" و"راشد الخلاوي" و"الأدب الشعبي بجزيرة العرب"، ولكني استمعت إليه. كانت أول مرة تشرفت برؤيته والاستماع إليه يوم لبّى دعوة مدرستنا الثانوية، مدرسة اليمامة، أقيم في تلك السنة حفل تضمن مسابقة بين فريقين، وكان عليه أن يحكم بينهما، وحين دعي إلى الكلام وقف بقامة شامخة ووجه أسمر يجلله الرضا ويكسوه الوقار وتعلوه الهيبة، وبدأ يرتجل الكلمات من غير أن يُرْتَجَ عليه أو تداهمه حُبسة أو حُكلة أو يعتوره عِيّ أو حصَر، أما صوته فكان أكثر شيء شدني إليه، بجهارته ووضوح مخارج أصواته وسلامة لغته ووقعه الحسن المريح في الأذن والنفس، ليس صوتًا فاتنًا كأصوات المطربين ولا عذبًا كأصوات المقرئين؛ ولكنه كان صوتًا مميزًا، تجد له في نفسك وقعًا مريحًا، لا يقتحمك ولا يزعجك، بل تجد الأنس به وإليه ولا تمل سماعه. أُنسيت كلماته التي قالها في تلك الحفلة؛ ولكني لم أنس تشبيهه للفريقين أنْ رأى تساويهما عنده بأنهما "كركبتي بعير". كنت حريصًا على سماع برنامجه (من القائل) فكنت آنس بصوته وأعجب من سعة معرفته بأشعار العرب القديمة وبالشعر النبطي وما يصاحب ذلك من قصص ومناسبات. وأما آخر مرة تشرفت بلقياه والسلام عليه فحين لبّى دعوة محافظة المذنب، وهناك كان هو وصحبه الكرام، وتكلم في ذلك اليوم وكانت كلمته قصيرة ولكنها معبرة عن فضله وعلو قدره، وأحسب أن ذلك اللقاء تكريم

للمحافظة التي طالما احتفت بالعلماء منذ القدم قبل التعليم النظامي حين كانت أفئدة من الناس تهوي إليها لتتعلم على شيوخ العلم فيها. ذهب واحد من جيل الموسوعيين الذين افتخرت بهم بلادنا، جيل زويت لهم علوم اللغة العربية وآدابها كما زويت لهم معرفة بالأشعار الشعبية وأخبار الناس في هذه البلاد الشاسعة، ولم تتكون هذه المعرفة بيسر وسهولة؛ إذ كان من الشيخ عبدالله رحمه الله ترحال في حياة العرب القدماء كما كان منه ترحال على ظهور الإبل محصلًا للزكوات، فكان ينتقل مع صحبه من مورد إلى مورد فيلقى الناس ويسمعهم، ومن هنا عرف أسماء الأماكن وأسماء رمال هذه الجزيرة واستوعب كثيرًا من أشعار أهلها، أعاد الأستاذ من غير قصد قصة الجمع اللغوي الأول حين كان اللغويون يرحلون إلى البوادي ليجمعوا اللغة من أفواه أهلها نقية صافية لم تخالطها عجمة.

غادر الدرعية إلى الطائف في وقت كان الانتقال مغامرة والغياب فقدًا؛ ولكن غلبة طلب العلم والشغف به كان أقوى من ذلك كله، فمضى ليلتحق بدار التوحيد التي كان يشرف عليها بهجت البطار، وأما ما ثقفه بنفسه من العلوم فأمر قدرته له المجامع اللغوية التي كان عضوًا فيها، وأظهرته مكتبته التي أثرى بها الثقافة العربية.
وإن يكن الثرى غيّب عنا ابن خميس فإن الأثير حفظ لنا صوت ابن خميس.

عبدالرحمن أيوب

عرفت الدكتور عبدالرحمن أيوب رحمه الله أول مرة حين أطلعنا أستاذنا الدكتور محمود فهمي حجازي على مصادر الدراسة الصوتية التي كان منها (أصوات اللغة) لعبد الرحمن أيوب، وقال إنه مأخوذ بمضمونه وبصوره من كتاب هفنر، وهذا ما كتبه أيضًا المرحوم الدكتور رمضان عبدالتواب، قال "أصوات اللغة للدكتور عبد الرحمن أيوب. صدرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩٦٣م والثانية سنة ١٩٦٨م. وقد اعتمد فيه صاحبه اعتمادًا كبيرًا على كتاب (هفنر) Heffener (علم الأصوات العام) General Phoetics المطبوع في أمريكا سنة ١٩٥٢م"[(١)]. وكذلك قرأت كتابه عن (العربية ولهجاتها) الذي نشره معهد البحوث والدراسات العربيّة، القاهرة، عام ١٩٦٨م. وكتب عنه أستاذنا العلامة الدكتور سعد عبدالعزيز مصلوح في مجلة المجلة – القاهرة، يونيو ١٩٦٩م، ص ص ٩٣ – ٩٦. قال لي أستاذنا سعد وهو تلميذه: كنت معيدًا حين عرضت المجلة على الدكتور أيوب أن يرشح من يكتب عن كتابه، فترك الأساتذة الكبار ووجّهها إليّ، فلمّا انتهيت من الكتابة مضيت إليه لآخذ رأيه وتوجيهاته بما كتبت؛ ولكنه صرفني قائلًا: لماذا أقرأ هذا، سأقرأ مع الناس، فلما نشر ما كتبته جاء ليقول على الملأ: يا سعد أنت فهمت الكتاب أكثر منّي. ونشر له المعهد كتاب (اللغة والتطور) عام ١٩٦٩م. ومن كتبه التي استمتعت بقراءتها (دراسات نقدية في النحو العربي) نشرته مكتبة

(١) رمضان عبدالتواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي (ط٣، مكتبة الخانجي/ القاهرة، بالقاهرة، ١٩٩٧م) ص٢٠.

الأنجلو المصريّة، في القاهرة، عام ١٩٥٧م. وهو كتاب من جملة ما كتبه بعض الرواد من اللغويين المعاصرين، انطلاقًا من تأثرهم بما ثقفوه من علوم لغوية تلقوها في الجامعات الغربية، وقال أستاذنا سعد مصلوح إنه كتبه أيام الشباب والحماسة؛ ولكنه كتب جملة من الأبحاث منطلقًا فيها من كتاب سيبويه، وكأني فهمت من أستاذنا مصلوح أنه رجع عن أفكاره التي ضمنها كتاب الدراسات. وكتابه النقدي وكتب غيره من المعاصرين لها فضيلة تحريك الجمود السائد في تناول النحو، ووجهت الأذهان إلى إمكان مراجعة المسلمات، ومن كتبه(محاضرات في اللغة)، نشرته مطبعة المعارف في بغداد، عام ١٩٦٦م. ومن كتبه المترجمة (اللغة بين الفرد والمجتمع) نشر في القاهرة عام ١٩٥٤م، ومن المترجمات التي استفدت منها (اللهجات العربية الغربية القديمة)[١] الذي كتبه حاييم رابين، ونشرته جامعة الكويت في ١٩٨٦م. ومن كتبه التي اطلعت عليها (الكلام، إنتاجه وتحليله)، نشرته جامعة الكويت، عام ١٩٨٤م. وهو كتاب معتمد على الترجمة من أصول أجنبية. ولأستاذنا الدكتور أيوب عدد من البحوث أشير إلى بعضها، فمنها (البناء الصرفيّ للأسماء والأفعال في العربيّة) نشر في المجلة العربيّة للعلوم الإنسانيّة، ع٧، مج٢، الكويت، ١٩٨٢م.و(تحليل عملية الكلام، وبعض نتائجه التطبيقيّة) مجلة عالم الفكر، ع٣،مج٢٠ الكويت، ١٩٨٩م. و(التحليل الدلاليّ للجملة العربيّة) المجلة العربيّة للعلوم الإنسانيّة، ع١٠، مج٣، الكويت، ١٩٨٣م. و(التفكير

---

(١) ترجم الكتاب بعد ذلك عبد الكريم مجاهد، ونشرته المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عام ٢٠٠٢م.

اللغويّ عند العرب، مصادرُه مراحلُه) مجلة مجمع اللغة العربيّة، ج٢٤، القاهرة، ١٩٦٩م. وكان أن تعرض هذا البحث لنقد أستاذنا العلامة الدكتور أحمد مختار عمر رحمه الله، فأجاب الدكتور أيوب عن ذلك ببحث آخر يحمل العنوان نفسه (التفكير اللغويّ عند العرب، مصادرُه ومراحلُه) في المجلة العربيّة للعلوم الإنسانيّة، ع٤، مج١، الكويت، ١٩٨١م. و(المفهومات الأساسية للتحليل اللغويّ عند العرب) نشر في مجلة اللسان العربيّ، مج١٦، ج١، الرباط، ١٩٧٨م. وهذه جهود حُقّ لها أن تستوقف الدارسين ومن أبرز ما اطلعت عليه رسالة علمية قيّمة هي (الدراسات اللغويّة عند عبد الرحمن أيوب) تقدم بها حيدر محمّد جبر العبّودي إلى مجلس كلية الآداب في جامعة بغداد، وهي جزءٌ من متطلبات نيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، وكانت بإشراف الأستاذ الدكتور محمّد ضاري حمادي، في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥م، وهي في تقديري في مستوى الدكتوراه.

لقيت الدكتور عبدالرحمن أيوب في الكويت وكان أستاذًا في قسم اللغة العربية في جامعة الكويت سنة ١٩٨١م، وتمتعت بشهادة أكثر من محاضرة ألقاها، وكان لي شرف تعليق على بعض ما ذكره في إحدى محاضراته وكان منها ردّ قوله بزوال البناء للمفعول في اللهجات العربية المعاصرة؛ إذ احتججت بما نسمعه من لهجات جزيرة العرب. عرفت فيه دماثة الخلق، وحسن المعشر، والتواضع الجمّ، وكان بيننا زيارات، وحين جاء إلى الرياض شرفني بزيارة منزلي وكانت فرصة للقاء زميلي الأستاذ الدكتور محمد لطفي الزليطني الذي كان يفكر في ترجمة كتاب رابين، ولكنه عدل عن ذلك، ولعله عدل لعلمه بأن أحدًا آخر غير أيوب ترجمه.

عبدالعزيز المانع

١-عبدالعزيز المانع الباحث المحقق

هذا عنوان الكتاب التكريمي الذي يضم جملة من البحوث والدراسات التي أهديت إلى الأستاذ الدكتور عبدالعزيز المانع بمناسبة فوزه بجائزة الملك فيصل العالمية في مجال اللغة العربية وآدابها للعام ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٩م، وعنوان الكتاب هو عنوان ما كتبه الأستاذ الدكتور محمد بن عبدالرحمن الهدلق الذي عرف المانع منذ مراحل الدراسة الابتدائية في شقراء والمعهد العلمي فيها ثم في كلية اللغة العربية، وذكر الهدلق مزاملتهما في البعثة والعمل في الجامعة وخارجها، وليس أحد كالهدلق خبيرًا بتفاصيل سيرة المانع وعمق معرفته ورصانة درسه، وما كتبه عنه يفصح بصدق عن هذه المعرفة العميقة. بدئ الكتاب بتصدير للأستاذ الكبير الدكتور ناصر الدين الأسد فتقديم للدكتور ناصر بن صالح الحجيلان، وبدأت الدراسات بما كتبه أستاذنا الدكتور أحمد بن محمد الضبيب عن "مسيرة المانع في تحقيق التراث"، وجاءت بعدها دراسة أستاذنا الهدلق التي ذكرتها آنفًا، ثم تأتي دراسة الأستاذ هلال ناجي عن "ملامح من نقدات المانع التحقيقية"، وأما أستاذنا الدكتور عبدالله الجربوع فكتب عن "مزية جهود الدكتور المانع في خدمته لتحقيق النصوص" وهذه الدراسة رديفة لدراسة أستاذنا الهدلق من حيث كشفهما لعمق القدرة البحثية للمانع وتجويده العمل في تحقيق النصوص الطوال التي تنوء بالعصبة أولي الصبر، ومن هذه الدراسات ما كتبه الدكتور حسين الواد واصفًا أعمال القدماء التي حقق بعضها المانع بأنها بمنهجها "أحدث من حداثات كثيرة" داعيًا إلى تغيير نظرتنا إلى ذلك التراث الذي يحتاج منا إلى فضل تدبر وتأمل، وختمت الدرسات بما كتبه

الدكتور أحمد سليم غانم عن "الفسر الصغير: تفسير أبيات المعاني في شعر المتنبي". وخصص القسم الثاني من الكتاب لبحوث أخرى لا تدور حول المانع وعمله بل هي أعمال مختلفة أراد أصحابها أن يعبروا بنشرها في الكتاب عن عمق تقديرهم وصدق محبتهم للأستاذ الدكتور عبدالعزيز المانع، وهي أعمال نافعة تزيد هذا الكتاب التكريمي قيمة ومنفعة بتوسيع أفق ما يناله الحديث، وقد تنوعت هذه الأعمال فمنها النص المحقق "الرسالة الناصرية لجلال الدين السيوطي بتحقيق الأستاذ الدكتور سامي الدروبي" ومنها البحث المترجم "أسجاع العرب ومنازل القمر عند العرب لشارل بلا، ترجمه وقدم له وعلق عليه الأستاذ الدكتور محمد خير محمود البقاعي"، ومنها البحث في القضايا اللغوية والأدبية، وختم الكتاب بجملة من القصائد المهداة إليه في هذه المناسبة.

والمانع حين نالته الجائزة ووفقت جامعة الملك سعود إلى إنشاء كرسي باسمه انطلق انطلاقة جديدة، فجعل من هذا الكرسي منارة إشعاع وعلم بما ينظمه من ندوات ومحاضرات وما ينشره من متخير الدراسات والأعمال العلمية المحكمة والكتب التراثية المحققة، تحية من القلب إلى أستاذنا الدكتور عبدالعزيز المانع الباحث المحقق.

٢–لمحات من المانع الإنسان

حين أنهيت مرحلة الماجستير في جامعة القاهرة كان لا بد لي من العودة سريعًا إلى أرض الوطن لمتابعة معاملة مواصلتي دراساتي العليا؛ إذ المهلة التي تمنحها الجامعة قد انتهت، مضيت بمعاملتي التي أخذتها مناولة من إدارة البعثات إلى القسم، وكان الوقت صيفًا، فلا أساتذة هناك ولا طلاب. دخلت غرفة إدارة القسم

فإذا شاب يجلس إلى مكتب وينظر في جملة أوراق، لم أكن أعرفه من قبل، ولكن قلت في نفسي لعله سكرتير للقسم، سلمته المعاملة فنظر فيها، فعرف أني الطالب المبتعث إلى جامعة القاهرة، رفع بصره إلى وابتسم ابتسامة حلوة لا أنساها، كان وجهه يشع بشرًا وسماحة، لم يسألني عن علة تأخري، ولم يعتب أو يبد أي لون من ألوان الضيق، بل قال والابتسامة لا تفارق وجهه: ماذا تريد؟ أتريد أن تتعين محاضرًا في القسم أم تريد مواصلة البعثة؟ قلت: بل مواصلة البعثة. فأشر بالموافقة على المعاملة. أما أنا فخطفتها لإنهاء أمرها، ولا أذكر حين خرجت أسلمت أم لم أسلم.

مضت سنوات أخرى أنهيت فيها دراستي ثم عدت لأتقدم للتعيين أستاذًا مساعدًا في القسم، وحين رأيته كان يقف إلى جانب الدكتور محمد الهدلق فراح الدكتور محمد يعرفني به فقال الدكتور المانع وهو يضحك بمرح: كيف لا يعرفني وقد مططت بعثته!

منذ ذلك الوقت عرفت الأستاذ الدكتور عبدالعزيز المانع الإنسان، في مجلس القسم ينتبذ لنفسه مكانًا قصيًّا ولم يكن يطلب الكلام ليسمع الآخرين صوته بل ليحل إشكالا أو ليبدي رأيًا سديدًا.

كان لي فرصة مزاملته في بعض أعمال اللجان فكانت فرصتي لأتعلم منه كيفية السؤال وطريقة التقويم، كنا مكلفين بلجنة المعيدين والمبتعثين، فكنا نقابل المتقدمين للإعادة فرأيته كيف يدير لجنتنا بحكمة ويوكل إلينا أن نسأل المتقدم حسب الاختصاص الذي يريد مواصلة دراساته وفاقها، ورأيت أنه يوجهنا إلى الشمول في طرح الأسئلة والعمق في سبر مهارات المتقدم.

أذكر أننا في لجنة من اللجان وكان لي رأي مختلف في مسألة درستها اللجنة، ولكني تخلفت عن حضور الاجتماع لأمر قاهر، فأوصت اللجنة بما لا أوافق عليه، فلما عرض الأمر في مجلس القسم طلبت الكلمة وأبديت مخالفتي لقرار اللجنة، ثم طلب الدكتور الكلمة وبيّن أنه ليس من حقي الاعتراض وقد غبت عن حضور اجتماع اللجنة، فطلبت الكلمة مرة أخرى وحاولت الدفاع وقد ظهر علي الضيق والغضب، واحتججت بأن لي الحق بالاعتراض بصفتي عضو المجلس لا عضو اللجنة، وانتهت المسألة على أمر لا أذكره الآن. ولكن الذي أذكره ولا أنساه أنّ الأستاذ الدكتور عبدالعزيز يأتي إلي في المكتب ليعتذر عن قوله الذي قاله في المجلس وهو والله لم يقل سوى الحق، ولكنه كرم الأخلاق منه خشي أن يبقى في نفسي شيء من الكدر، لم يكن غيره ليفعل ما فعل، ولكنه المانع الإنسان.

كان الأستاذ معنيًّا بتعقب أخطاء تحقيق لديوان حققته زميلة من جامعة عربية، وكان ينشر التعقيب في حلقات، ويفاجئني ذات يوم وهو يدخل مكتبي ليخبرني بأمر عمله العلمي هذا وكان اكتشف أن المحققة هي زميلة وصديقة لأسرتي فكان يسألني أينشر ما كتب أم يضرب عنه صفحًا؟ إنها حساسية المانع الإنسان إنه يريد الإصلاح والخير ولكنه مع ذلك يدافع الأذى ويرعى الزمالة.

واشتركنا في لجنة إعداد موسوعة كبيرة، وكان الاتفاق بيننا وبين إدارة الموسوعة أن تهدى إلى كل واحد منا نسخة من الموسوعة، ولكننا تفاجأنا بعد النشر أنّ الإدارة تشترط لتسليمنا نسخة من الموسوعة، أن نوقع تعهدًا بقراءة الموسوعة كاملة وموافاة الإدارة بما وقع فيها من أخطاء. فكان هذا مبعث غضب شديد أظهرته حين اتصلت بسكرتير الموسوعة وقلت له إني لا أريد النسخة ما دامت مشروطة،

لقد أحسست بإهانة كبيرة. وقررت أن أتركها ولا أبالي، وعلم الأستاذ بما كان مني وبالقرار الذي قررته. وفاجأني بزيارة إلى مكتبي، دخل وجلس وبدأ يحدثني بهدوء شديد ونقل لي استياءه هو أيضًا، وقال ما نصه وليسامحني بذكر النص لأنه في الحقيقة هو ما أعاد إلي رشدي وفثأ سورة غضبي، قال: (أنا أحمق عباد الله ولكني لن أترك لهم الموسوعة بسبب ورقة توقع، هم يريدون منا أن نترك النسخة). وهكذا استطاع بتلطفه وحسن مدخله وقوة إقناعه أن يغير رأيي. ولكن العبرة ليست في نجاحه بل في هدفه وحرصه على منفعتي، وهذا هو المانع الإنسان.

إن الحديث ليطول في ذكر مناقب الأستاذ وحسن تعامله مع زملائه وأبنائه الطلاب، ومع هذا تراه جم التواضع، وكان يتجنب الظهور الإعلامي لأنه كان يعمل بصمت ويسعى بصبر.

زويت له معارف التراث العربي فأحسن استعمالها في إخراج روائع من الكتب المحققة الطويلة التي ليس يسهل أن تخرج على هذه الصورة من الدقة والإتقان وحسن الإخراج لولا أن كان تقديم التراث في أحسن صورة هاجسًا استولى عليه فوهبه عمره وأفنى في سبيله حياته.

عبده الراجحي

اليوم الثلاثاء ١٣ جمادى الأولى ١٤٣١هـ شيعت الإسكندرية أستاذنا الجليل العالم اللغوي فقيد العربية الأستاذ الدكتور عبده الراجحي، عالم جمع بين الثقافة التراثية الأصيلة والعلوم اللغوية الحديثة، وأتحف المكتبة العربية بطائفة من الكتب النادرة التي تلقاها طلاب العلوم العربية بالقبول، جمع بين كتب التنظير وكتب التطبيق، عرفته أول الأمر من كتبه التي حرصت على اقتنائها وقراءتها، وكان كتابه في التطبيق الصرفي عمدتي في وضع كتابي (دروس في علم الصرف)، كنت حريصًا أن أشهد مناقشاته للرسائل في جامعة القاهرة، كان يأتي بالقطار ويعود به بعيد المناقشة، وكان من عادته رحمه الله أن يكون آخر مناقش، كان يقول أنا مسافر وللمسافر رخصة، فإن أطال من كان قبلي قصرت وإن قصر أطلت، اتصف أستاذنا بغزارة العلم ودماثة الخلق والتواضع الجم، كان جهير الصوت واضح النبرات سليم اللغة لا تخالط لغته أثر لهجة. ناقشني في رسالتي للدكتوراه (الفعل في القرآن الكريم تعديته ولزومه)، وكان الاتفاق أن يكون في استقباله من يوصله إلى جامعة القاهرة؛ لأن أمر المواصلات في القاهرة كان من أشد الأمور صعوبة، وخرج الرجل فلم يجد أحدًا في استقباله، أما المكلف بذلك فقد رجع إلينا ليقول إنه لم يجد الدكتور، فأعدته إلى المكان مرة أخرى، ولست أدري ما حصل، المهم أن الوقت مضى حتى إذا استيأسنا رأينا الأستاذ داخلًا والغضب قد أخذ منه كل مأخذ، حتى راح أستاذي الدكتور محمود فهمي حجازي يطيب خاطره ويلتمس الأعذار، وحسبك بالدكتور حجازي وما هو عليه من نبل وخلق، وخشيت يومها أن يكون ما حدث سببًا في محاسبتي والقسوة في مناقشتي، ولكن ما أن بدأ النقاش حتى

رأيت منه اللطف والرعاية والتوجيه، ومنذ ذلك اليوم صار إلى أستاذيته صديقًا عزيزًا، زرته مع أسرتي في الإسكندرية فلقينا بكل طيب وترحاب، وفي الكويت كان لي حظ الاستماع إلى المحاضرة القيمة التي ألقاها في البرنامج الثقافي لكلية البنات، وعلقت على المحاضرة مرحبًا به في الجزيرة لا الكويت وحدها. وفي الرياض عمل فترة في معهد تعليم معلمي اللغة لغير الناطقين بها في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ثم كانت الجامعة تستعين به من حين إلى آخر فتتاح لنا فرصة اللقاء به، وقد شرفني بزيارته منزلي، وفي إحدى زياراته إلى الرياض أخبرني أنه من الذين حكموا في ترقيتي، فسرني ذلك سرورًا بالغًا؛ لأن شهادة عالم مثله لا تعدلها شهادة، رحمك الله أستاذنا وأسكنك فسيح جناته لما بذلته من نفسك لطلابك ولأمتك وللغة العربية.

محمود فهمي حجازي

ولد أستاذي العلّامة اللغوي الدكتور محمود فهمي حجازي في محافظة المنصورة عام ١٩٤٠م، وتخرج في كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٥٨م، وأما رسالة الدكتوراه (منهج التحليل اللغوي عند العرب في ضوء شرح السيرافي على كتاب سيبويه) فقدمت إلى جامعة ميونخ عام ١٩٦٥م، درّس علوم اللغة في جامعة القاهرة، وجامعة الكويت، وجامعة قطر، وله عدد من الأعمال العلمية المنشورة منها (اللغة العربية عبر القرون) وهو أول كتاب قرأته له، و(علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة)، و(علم اللغة العربية)، و(أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي)، و(المدخل إلى علم اللغة)، و(علم المصطلحات والتنمية اللغوية في الوطن العربي)، و(حوار الثقافات) ومن أهم بحوثه المنشورة (استخدام العربية في اليونسكو ١٩٦٩م)، و(اتجاهات التأليف المعجمي -علم المصطلحات)، و(الخبرة الألمانية في تعليم اللغة لغير الناطقين بها، مجلة كلية الآداب الكويت، ع١). و(اللغة العربية بين اللغات العالمية المعاصرة) مجلة عالم الفكر (محور البنيوية)، و(العلاقة بين علم اللغة ودراسة المأثورات الشعبية)، ومن ترجماته (تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين، طبعته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض)، استعانت به جهات مختلفة لبناء خططها التعليمية، وهو من أهم خبراء المعجم في مجمع اللغة العربية في القاهرة. لم أكن أعرف الأستاذ الدكتور محمود فهمي حجاي قبل أن يذكره لي أستاذي محمد شكري عيّاد مثنيًا عليه، وكان أن سعدت بلقائه في قسم اللغة العربية في جامعة القاهرة صيف عام ١٩٧٤م، دخلت قاعة المدرسين الصغيرة فإذا بشاب يجلس تحت النافذة المطلة على فناء الجامعة إلى يسار الداخل،

مددت إليه يدي مسلمًا، فقام مرحبًا ترحيبًا يثلج الصدر، ويؤنس النفس، ويسر الخاطر، وجلست إليه ليسألني عن نفسي، فأجبته بما فتح الله به عليّ، حتى إذا جاء الطلاب انتقل إلى موضع آخر، وتحلق الطلاب حوله، وبدأت الدروس التي استغرقت عامًا، كان منها دروس في كتاب سيبويه وعلم الأصوات ودروس أخرى طلبنا منه أن يعدها لنا لحاجتنا إلى معرفتها، لم يكن الدكتور حجازي أستاذًا لطلاب جامعة القاهرة وحدها بل لكل طلاب العربية، ولم يكن يعلّم في الكلية وحدها بل كان يستقبل الطلاب ويستضيفهم في بيته، فكم ليلة زرناه لنجد مجلسه قد ملئ بطلاب العلم من مصر والعالم العربيّ، ولم يكن الدكتور يعلّم طلابه علوم اللغة ويرشدهم في طرائق البحث ويقرأ لهم أعمالهم فقط؛ بل كان يعلمهم الخلق الرفيع والرقي في المعاملة بما يجدونه من نبله وخلقه العالي ودماثته وتواضعه الجم وبذله نفسه لكل طالب علم، لا أنسى موقفه الأبوي حين زارني في بيتي لما علم بمرضي ولم يكتف بالعيادة العابرة بل أرشدني إلى جرّاح ماهر هو زميله الدكتور محمد البتنوني وعرض عليّ أن يتكفّل بتكاليف العملية. وحين طُلبت مني المشاركة في إعداد موسوعة السلطان قابوس لأسماء العرب خبيرًا عن المملكة العربية السعودية حاولت التعذر بقلة خبرتي وأرشدت إلى من أراه أخبر منيّ؛ ولكني تفاجأت بعد مدة برسالة من أستاذي فعلمت أنه من رشحني لهذا فطابت النفس وأقبلت على العمل بكل جهد ممكن. من أهم ما ألف عنه كتاب (الأستاذ الدكتور محمود فهمي حجازي وجهوده اللغوية والأدبية) ألفه أ.د. بكر إسماعيل الكوسوفي. وليس يذكر اسم الدكتور حجازي في مكان إلا سمعت الثناء والشكر، حفظ الله على أستاذنا صحته وأطال في عمره، وجزاه عن العربية وطلابها خير الجزاء.

الهدلق

في ساقة الكاتبين

تفاجأت بما كتب عن أستاذي الحبيب الدكتور محمد الهدلق في المجلة الثقافية ذات العدد (٢٨٦) في ١١ جمادى الآخرة ١٤٣٠هـ، فاختلطت المشاعر في نفسي وتنازعتها؛ فالفرح بما سطر في حقه، وهو قليل، والحزن الذي بلغ من نفسي مبلغه أن فاتني هذا، فقلت أكون في ساقة الكاتبين.

أول مرة لقيت أستاذي كانت في مبنى كلية الآداب بالملز، كنت راجعًا من القاهرة، بعد أن علمت أن مدير الجامعة أنهى بعثتي أو هو بسبيل إنهائها، وكنت قد تقدمت إلى القسم قبل هذا بطلب تمديد لأنهي آخر فصل كلفني بكتابته أستاذي يوسف خليف رحمه الله.

دخلت على الدكتور الهدلق ذلك اليوم وكان إلى جواره أستاذي الدكتور محمد الشامخ فسلمت عليه وجلست إلى جانبه، أما الدكتور محمد الهدلق فقد قام من كرسيه ليرحب بي ترحيبًا شديدًا حتى قلت في نفسي أيعرفني من قبل؟ شرحت المشكلة يومها، فاستنكر أستاذي الشامخ أن تكون القرارات بغير علم القسم.

وفي ذلك اليوم كان مجلس الكلية وتركنا الهدلق ذاهبًا إلى المجلس، وكان وكيل الكلية في ذلك الوقت هو الزميل الدكتور عبدالله السيف، فذهبت ألتمس منه العون والوساطة لدى المدير، يومها قال عن موقف الهدلق في مجلس الكلية: "ما شاء الله عليه، ما ذكر شيئًا عن فصل البعثة ودافع عن طلب التمديد دفاعًا قويًّا"،

نعم هكذا فعل وكان هذا أمرًا حاسمًا جعل مدير الجامعة يوم قابلته أكثر تفهمًا لحاجتي إلى مزيد من الوقت. ليس هذا هو الموقف الوحيد فله مواقف كثيرة معي ومع غيري من الزملاء يطول سردها في هذه المساحة الضيقة.

كان لي شرف العمل معه في لجان متعددة كان لي فيها المعلم الأول بما وهبه الله من دقة ومعرفة دقيقة بالإجراءات الإدارية، هادئ الطبع لم أره يومًا غاضبًا مهما وجد من عنت الآخرين، له قدرة عجيبة على كسر جمود العمل واللقاءات بطرف يوفق إلى ابتكارها ببداهة تناسب المواقف، أما علمه فهو الغزير وأما حفظه فهو المكين، ما سمعته يومًا معقبًا على أحد إلا قلت في نفسي كيف اجتمعت له هذه الفِكر وكيف استوت له هذه الصياغة، وإنك لا تمل من حديثه وتعليقه. حين كان رئيسًا للقسم لم أعلم أنه أعيدت للقسم معاملة أنفذها؛ لأن الدكتور محمد الهدلق لا يترك مجالا للخطأ، وأنا إلى اليوم كلما رأيته في مجلس القسم أحس باطمئنان شديد إلى سير العمل لأنه يرعى القسم وهو من بين أعضائه كما لا يفعل أحد غيره، فتراه لا يترك من الأمور ما هو بحاجة إلى بيان أو احتراز، لأنه جريء في الحق لا يخشى غير الله في قول أو عمل، وكنت إذا رأيته ساكتًا عرفت أن الأمور في مجراها الصحيح.

وهو على معرفته الغزيرة وعلمه الجم وسعة خبرته الإدارية بما كلف به من العمادات والأعمال الإدارية تجده بالغ التواضع فتراه يهون من نفسه في حين يرفع من شأن الآخرين حافظًا للآخرين أقدارهم.

وإنه من دواعي فخري واعتزازي أن تشرفت بالعمل مع هذا الأستاذ الكريم الذي تعلمت من خلقه وعلمه فلا زال الله منعمًا عليه بالصحة والعافية.

ثانيًا:أعمال إبداعية

التائهون

هذه آخر رواية قرأتها لأمين معلوف الذي كان لابني أوس فضل تعريفي بأعماله وتزويدي ببعضها، وهذه منها، إنها رواية تحكي قصة مجموعة من الشباب الذين جمعتهم الدراسة الجامعية، وهم ينتمون لديانات مختلفة، وتفرقت بهم السبل، ولكن موت أحدهم كان مناسبة لاجتماعهم من مختلف أنحاء العالم، يطرح فيها معلوف مشكلات العالم المشرقي بخاصة ومشكلات العالم عامة، وهو همّ طرحه بأشكال مختلفة وجدناه في أعمال فكرية مثل (الهُوِيّات القاتلة) و(اختلال العالم)، وأنا على ثقة أن القارئ المنصف سيعجب بهذه الرواية الرائعة في شكلها ومضمونها، وليس يخل بها سوى ضعف لغة مترجمة الرواية في بعض أجزائها. ولعل من المفيد أن أنقل بعض ما جاء على لسان بعض الشخصيات، قال (رامز) "منذ سنوات، أستيقظ كل صباح ممزقًا بين شعورين، الأول هو الشعور بالفرح والثاني هو الشعور بالحزن. الفرح لأني نجحت في مهنتي، وكسبت الكثير من المال، ولأني أمتلك بيتًا جميلًا وحياة عائلية سعيدة، ولكن الحزن أيضًا لأني أرى قومي في أسفل الهاوية. فمن ينطقون بلغتي، ومن يعتنقون ديانتي، يحقرون في كل مكان، وغالبًا ما يتعرضون للكراهية. لأنني أنتمي، بحكم الولادة، إلى حضارة مهزومة، وإذا لم أشأ التنكر لأصلي، فأنا محكوم علي بالعيش مع هذه الوصمة على جبيني ...لا يتعلق الأمر فقط بالتضامن مع قومي، أو بالتعاطف معهم. إنني أشعر بالمهانة، أشعر بالمهانة شخصيًّا. حين أسافر إلى أوربا، أعامل بمراعاة مثلما يعامل جميع الأثرياء. يبتسم

لي الناس، يفتحون لي الأبواب وهم ينحنون احترامًا، يبيعون كل ما أرغب بشرائه. ولكنهم في أعماقهم يكرهونني ويحتقرونني. فلست بالنسبة إليهم سوى همجي أصاب ثروة. وحتى عندما أرتدي أجمل بدلة إيطالية، أظل في نظرهم، معنويًّا، فقيرًا معدِمًا. لماذا؟ لأني أنتمي إلى شعب مهزوم، وإلى حضارة مهزومة. أشعر بذلك أقل بكثير في آسيا، وفي أفريقيا، أو في أمريكا اللاتينية، التي أساء التاريخ معاملتها أيضًا. ولكن يتملكني ذلك الشعور في أوربا... في باريس، حين تتكلم العربية في مكان عام، ألا تنزع تلقائيًّا إلى خفض صوتك؟... انظر إلى الأجانب الآخرين! الإيطاليين، والأسبان، والروس، بغض النظر عن الإنكليز أو الأميركان. إنهم لا يخشون أن يحدجهم الآخرون بنظرة عدائية، أو مستنكرة. ربما أتهيأ أمورًا لا أساس لها من الصحة. ولكن هذا ما أشعر به. وحتى لو أصبحت أغنى رجل في العالم، فلن تتغير الأمور". الرواية جديرة في نظري بالقراءة ليس لما تسرده من أحداث وتفاصيل، قد لا تعجب بعض القراء مع أنها واقعية، أي من الأمور التي يمكن أن تحدث في الواقع المعيش في بعض البيئات؛ بل لما يدور بين شخوصها من حوارات وحجاج عجيب، وما تلخصه من مسالك التيه الذي تفرقت به الناس وظلت طريقها، وهي صورة من حال المجتمعات المشرقية التي ما زالت تائهة لم تستطع أن تجد لنفسها مكانًا في حضارة اليوم، وهي تتخبط في سياساتها، وتغرق في هزائمها، يستعبدها الاستهلاك لقديمها أو لجديد ليس لها من يدٍ في ابتكاره.

اليهودي الحالي

اليهودي الحالي أي الحلو، عنوان رواية الكاتب الشاعر اليمني علي المقري الصادرة عن دار الساقي في طبعتها الرابعة، ذات إيقاع يجمع بين السهولة والإمتاع، لن تجد فيها سبكًا لغويًّا رائعًا بل لغة تقريرية أراد لها صاحبها الاقتراب ما أمكن من الواقع المعيش في تلك الحقبة التي تمثلها، فتناثرت في تضاعيفها أليفاظ عامية راسخة في أصولها العربية، وهو أمر اقتضى التفسير في الحاشية، جمال السرد وتتابع الأحداث دون ترهل وتجنب تفاصيل وصفية تستغرق المكان وإيجاز في الحوار من غير إخلال بالغرض المراد، الزخم العاطفي الرقيق الذي جمع بين طرفين متناقضين من حيث الانتماء يأسر القارئ ويجيئه إلى الاقتناع بنبل ما آلت إليه تلك العلاقة.

تصور القصة في إطارها العام غباء الإنسان الذي أهدر بنوه أعز صفاته وأولاها بالرعاية والتقدمة، وهي إنسانيته، ولم يجعلوا تلك الإنسانية ومدى التخلق بها أساس التعامل والتقويم، وراح كل فريق بغباء يتشبث بما يعزل بعضهم عن بعض متوهمًا أنه بذلك أنقى وأطهر من غيره، فكانت الألوان والأديان والمذاهب والمعتقدات هي محركات التدافع والصراع والغلبة والقسوة وتوارى أنبل ما في الإنسانية وهو الحب والتراحم واحترام الآخر لإنسانيته في المقام الأول.

في (ريدة) عرفت فاطمة المسلمة سالِمًا اليهودي، وكانت معرفة إنسانية تعالت فوق الأديان والأعراف والتقاليد، استطاعت فاطمة بما ثقفته من علم واسع وقراءات معمقة أن تجد الإنسان في سالم، علمته العربية وعلمها العبرية، علمته مفاهيم الإسلام وعلمها سالم اليهودية، ومن غير أن يحتاجا إلى توحيد الديانة رأيا

أن ارتباطهما ليس يحتاج سوى إلى الإيجاب والقبول، والأمر اللافت في هذا الموقف أن المرأة كانت هي المبادرة؛ إذ صارحته بأنها وهبت نفسها له، وشجعته على مغادرة المكان والناس نيام.

وإن تكن الحكاية تصور لنا أحداث صراع بين مسلمين ويهود في اليمن في القرن الحادي عشر الهجري فإن مثل هذا الموقف والعلاقة المرفوضة تكررت وتتكرر بين أوساط متعاندة، وجدناها بين المسلمين والهندوس، وبين المسلمين والأقباط، وبين البيض والزنوج، وبين السنة والشيعة، وبين القبيلي وغير القبيلي، وهي بين طوائف المجتمع ما زالت على أشدها في القرن الخامس عشر الهجري حيث تطلق المرأة من زوجها ليس لاختلاف في الدين بل في التصنيف الاجتماعي المقيت الذي لم يأبه بتقوض أسرة وتشتيت شملها، وما زالت هذه المواقف التصنيفية تحول دون العلاقات السامية الإنسانية المتعالية على كل تصنيف، وهو أمر يدل على أن الإنسان على الرغم من تقدمه المدني لم يستطع أن يتقدم حضاريًّا فيتخلص من كل ما يحول دون تحقيق سموه الإنساني، ودخل الخلط بين السياسي والديني ليكون من عوامل التصنيف والتعنيف، فصار الخلط بين اليهودية والإسرائيلية، واستغلت العقائد والمذاهب الدينية لتحقيق أهداف سياسية.

فهل يأتي اليوم الذي يعي الإنسان ويرى المحبة والسلام هي طريقه إلى السعادة وعمارة الكون، لا التدافع والتسابق في التسلح واستعباد بنيه بعضهم بعضًا وإهدار إنسانيتهم لخلاف فكري أو عقدي أو مذهبي، هل يأتي اليوم الذي يتبين له أن الحكم المدني المبني على العدل والقانون والحرية هو السبيل إلى عمارة الأرض.

استوقفتني بعض الألفاظ اللهجية الدارجة مثل الفعل (يبسر) الذي ليس

بمضارع بسر الوارد في سورة عبس، بل هو مقلوب الفعل (سبر) أي أمعن النظر في الشيء، وهو ما زال بلفظه الفصيح (سبر: يسبر) معروفًا في لهجات نجد، وكذلك الفعل (شورّي) الوارد في معرض التهديد، وهو مؤلف من الشين المقتطعة من شيء والفعل (ورّى) أي أرّى بمعنى جعله يرى، ولعل التركيب في أصله (أي شيء أورّي)، وفي لهجات نجد يستعملون الفعل (أورّيك) للتهديد. أما (ما أعتقدش) فأنا في شك من هذه الشين اللاحقة للفعل؛ إذ لعلها حديثة تأثرًا بلهجة القاهرة، وهي جزء من شيء، أي ما أعتقد شيئًا، ومثله (ما تخافوش)، و(ما تشتيش) والفعل كما سمعته (تشتي) وأصله تشتهي أي تريد، أما لفظ (سب) فمقتطع من (سبب).

خمس روايات سعودية

الرواية من أكثر فنون الأدب جاذبية لما تتيحه لقارئها من إحساس بحيوات أخرى، وهي تزوي له من التجارب ما يثري عقله ويثير خياله، وربما دعته إلى قراءتها قراءة تتلمس علاقتها بالبيئة المنتمية إليها أو المنتمية إليها شخوصها والأحداث المتضمنة، وقد تكون قراءة ناقدة لشرائط وفائها بفن القصّ من بناء وحبكة، وسرد وحوار، ثمّ هناك قراءة لغوية تعالج الرواية بصفتها نصًّا لغويًّا إبداعيًّا ولهذه القراءة جوانب مختلفة ومداخل متعددة؛ إذ يمكن بهذه القراءة سبر طرائق كتّابها في نظم تراكيب جملها والتصرف في ترتيب عناصرها، ومدى الوفاء بأغراضهم بحسن تخيّر ألفاظها، ومن هذه المداخل معرفة جوانب مما يعرض لهذه الرواية من خلل في أدائها اللغوي سعيًا وراء تجويدها، وليس ما يعرض للرواية من ذلك خاصًّا بها بل هو أمر قد يعرض لكل فنون الكتابة الأدبية وغير الأدبية، فبعض ما نعدّه من الأخطاء اللغوية الشائعة نجده في الرسائل العلمية التي يكتبها طلاب اللغة أنفسهم وكذلك قد نجدها في كتب أساتذة اللغة أيضًا تعودوا استعمالها فغاب عنهم وجه الخطأ فيها.

من الروايات السعودية التي قرأتها بأخرة (الحمام لا يطير فوق بريدة) ليوسف المحيميد، وهي تتناول أثر ما سمي بالصحوة الدينية التي كانت بعد الانتكاسات العسكرية العربية وخيبة آمال الشعوب في حكوماتها، وكان أن زادت الرقابة الدينية على أفراد المجتمع و(الحمام) الذي يرمز بطيرانه إلى الحرية صار (لا يطير فوق بريدة) بوصفها نموذجًا للتشدد في تلك الرقابة، وتحكي الرواية مشاهد متكررة قد تبعث على الملل لمغامرة شاب مع نساء حتى يقع في قبضة هيأة الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر، ويتطرق لبعض الممارسات المحسوبة على الدين والتدين ليبين آثارها السيئة، والرواية أميل إلى لغة التقارير الصحفية منها إلى لغة الفنّ الأدبي إن نحن وازنّاها بروايات محمد حسن علوان (طوق الطهارة) التي تناولت مضمونًا مشابهًا وروايته (القندس)، وأما (طوق الطهارة) فتكاد تكون امتدادًا لروايته الأولى (سقف الكفاية) حيث كانت مغامرة بطل الرواية دائرة في إطار العذريّة والطهارة، ولكن طوق الطهارة ينكسر في الرواية الثانية منذ يتعرض البطل للتحرش الجنسيّ في المدرسة حتى إذا شبّ ودخل في علاقة حميمة بقريبة له عرفها في طفولته حتى أفضت العلاقة إلى القران؛ ولكنها خذلته بتخليها عنه مضحية به وبالجنين المتكون في أحشائها لتعود إلى زوجها السابق مغلبة عاطفة الأمومة لتبقي على ابنها منه، وكان أن دفعه هذا للدخول في علاقات محرّمة أخرى بعد انكسار طوق الطهارة والدخول في أزمة نفسية أجاءته إلى مراجعة طبيب نفسي، وأما (القندس) فهي رصد لتحولات شخوص الرواية المحيطين بالبطل الراوي، ويستفيد علوان ببراعة شديدة بملامح تصرفات هذا الحيوان المائي وبشكله الجسدي ليصور بيئة الرواية وعلاقات أفرادها، ويمتاز محمد حسن علوان بقدرة بيانية مدهشة؛ إذ تحتفل لغته بألوان المجاز والتشبيه والكنايات والاستعارات بطاقة خلاقة تذكرنا بالكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي، ومن الروايات الجياد رواية (خاتم) لرجاء عالم، وهي رواية تصور لنا شيئًا من البيئة المكيّة في فترة تاريخية قبل توحيد المملكة، وهي تذكرنا ببعض أعمال نجيب محفوظ و(خاتم) اسم مشترك بين الذكور والإناث وأريد له أن تتسمى به الشخصية المزدوجة في حياتها الاجتماعية، والخاتم ما ليس بعده شيء والخاتم قد يكون من الحجارة الكريمة التي احتفلت الرواية بتفاصيل تجارتها، كما نجحت

الرواية بتصوير جوّ روحاني فيه سمو الدرس الديني والتلاوة من جهة وجمال الموسيقا الآخذة بالألباب المخالطة لمشاعر خاتم مخالطة تمتد إلى الجسد، وتتصف لغة الرواية بشيء من الغموض ومن خصوصية المصطلحات المحلية التي قد لا يدركها غير المكيّ، وآخر الروايات هي (حوجن) لعباس إبراهيم وهو اسم لجنيّ هو بطل الرواية، يقدم الكاتب رؤية عن عالم الجن تفارق المعتاد في أذهان الناس وهو يشير إلى ما يصاحب ذلك من شعبذة واستغلال لضعف مشاعر الناس، والرواية تشد قارئها بتتابع الأحداث وخصب الخيال وهو ما جعل إقبال الشباب عليها شديدًا، أما لغتها فتعتمد على العامية في الحوار، وهي على الرغم من ذلك ليست في مستوى أربع الروايات السابقة.

عَلوان عُلوان* بيان

قل ما شئت عن مضامين روايات محمد حسن عَلوان أو تشابهها في العمود الفقري لشخصية الراوي الضحية في عالم الحب، أو كيف أنه ربما ناب عن بعض الشخوص فأنطقها بمنطق فوق منطقها وأجرى على لسانها فلسفة لا تعرفها أو قد يشك القارئ في معرفتها إياها، أو أنه يفضح من المستور ما يجمل به الستر، قل ذلك كله إن أردت؛ ولكنك ربما ترى معي ما لهذا الكاتب الفذ من قدرة عجيبة على استغلال الإمكانات البلاغية للعربية، لا يردد قوالب محفوظة أو عبارات موروثة بل يخلق لك عالَمًا عجيبًا يحسن نسج خيوطه ويبدع في رسم صور عوالمه بما أراه مادة خصبة لمن أراد أمثلة لألوان المجاز والبيان، ولعلي أضرب أمثلة غير متخيرة صادفتها في رواية (طوق الطهارة)، قال الراوي عن والده (ص١٨) "في وجهه محراب لا يمكن أن تخطئه عيناي. دائمًا ألمح طائفة من الأحزان تصلي فيه، ولا أستطيع تمييز أي منها". إنه تصوير بديع لأحزان هذا الأب الذي تعتاده الأحزان اعتياد المصلي محرابه، وقال عن صوته (ص١٨) "راح صوته يبعثر غيوم النوم، ويعيدني إلى يباس اليقظة"، فالنوم غيوم مرتبطة بالغيث وهي حجاب عن واقع قاس تعانيه الشخصية يقابل بيباس اليقظة بعد تبدد الغيوم، إن البديع أنه جعل للنوم غيومًا ولليقظة اليباس، وهي تراكيب جديدة مبدعة. ويتحدث عن الكتاب الذي ضم حكايته مع من أحبها وخذلته وتولت نشره وبعثت إليه بنسخة

---

* جاء في تهذيب اللغة للأزهري "ويقال: عُلْوان الكتاب لعُنوانه. والعرب تبدل اللام من النون في حروف كثيرة".

منه، يقول (ص٢١) "والكتاب الذي صافح دهشتي الكبيرة، بكل صلف وبرودة" وهنا مثال للاستعارة المعجبة، لم يقل الكتاب الذي أدهشني بل صافح دهشتي، فهو بهذا يجعل الكتاب حيًّا تمتد يده للمصافحة، واستحالت الدهشة إلى ما يمكن أن يشارك بالمصافحة. ثم هو يصور عنوان الكتاب (ص٢١) تصويرًا عجيبًا حين قال "تأملت الكلمتين اللتين تربعتا فوق الغلاف"، وتراه يعطي الارتباك وهو شعور سلطة إنسان متحكم، قال (ص٢٤): "رحت أقرأ مواقع عشوائية منه كلما منحني الارتباك فرصة لذلك"، وانظر كيف يعبر عن الاستسلام بقوله (ص٥٦) "دحرجت رأسي على وسادتي ونمت، لعلي أطفئ عقلي قليلًا حتى لا تجد فيه الحيرة مساحة متاحة للانتشار"، فهذه جملة من الاستعارات المستفادة من حياتنا المعاصرة، فدحرجة الرأس ككرة البولينج والعقل كمصباح كهربي متوهج والعقل أيضًا أرض يمكن أن تنتشر فيه جيوش الحيرة. وتأمل معي كيف جعل النقاش والحوار عربة يركبها المتناقشون وهو يذكرنا بمثل (وافق شن طبقة) حين قال أحد المتحاورين لصاحبه "أتحملني أم أحملك"، والنقاش استحال إلى مخيط والليل إلى ثوب يتمزق، قال في (ص٥٦): " لم أكن إلا راكبًا في عربة نقاش عابر مع الأخوين، نخيط به ما تمزّق من ثوب الليل". ومن غرائب التشبيهات قوله (ص٦١): "رغم أني طيب مثل دراجة هوائية يملكها طفل قروي"، لم يقل مثل طفل قروي لأن ذلك مألوف وأما غير المألوف فهو اكتساب أشياء الطفل القروي الطيبة منه، وهي دراجة هوائية لا زمجرة ولا ضجيج فيها كالدراجة النارية. ومن التشبيهات التي استوقفتني ما أكاد أراه رأي العين، قال (ص١٢٣): "ويحل مكانها حاجبان مرفوعان كمظلتين صغيرتين". وأعجب صورة مكثفة لأول لقاء بحبيبته وهي تدخل إلى سيارته في قوله

(ص١٣٤): "شعرت برعشة وأنا ألمح تنورتها أول ما لمحت منها، وهي تدلف إلى سيارتي مثل شرفة مزدحمة بالنوارس الصغيرة، وأنا أشعر أن أصدافًا كثيرة تنحشر في حلقي، وتمنعني من الكلام. رددت تحيتها الأولى بصوت مهزوم جدًا، ثم تركت المطر وحده يحرك سيارتي مثل قارب، بينما عقلي، الذي تاه فجأة، يحسد الزجاج الذي تجلو عنه الماسحات قطرات المطر، بينما تراكم فيه هو ضباب كثيف، وغيوم". تعبير عن البياض بالنوارس المزدحمة والنوارس من بشائر التائهين في لجج البحار، ثم كيف عبر عن عجزه عن الكلام في تلك اللحظة بانحشار أصداف في حلقه، وهو ما ينسجم مع صوت يوصف بالمهزوم وليس كالمهزوم في انكساره وخفوت صوته، ثم تعبير عن عقله الذي تاه بتسخير ظواهر الطبيعة للتعبير عن ذلك.

أحس اللغة العربية تتجدد بطاقات خلابة يثبت بها مبدعوها صلاحيتها للإبداع وأنها ليست تكرارًا لقديم أو اجترارًا لفائت وإن كانت الوشائج موصولة واللحمة موثقة والصلات قائمة. ومهما قلت في شأن هذا الكاتب المبدع فقولي دون ما أريد لقصور أدواتي عن التعبير عن ذلك، وكل ما أملك قوله "علوان عُلوان بيان".

فضاءات الجلواح ونزفه

كنت مدعوًّا إلى مهرجان ابن مقرب في مملكة البحرين الذي أقامته مؤسسة البابطين، وهناك رأيت شابًا يتدفق حيوية ونشاطًا فسألت عنه فقيل هذا الأستاذ محمد الجلواح، وحدث أن جمعنا لقاء وقت الغداء فسألته عن اسمه لا استغرابًا بل لاهتمام شخصي بالأسماء فأذهلني وهو يسرد لي المادة المعجمية المفسرة لاسمه، ومضت سنوات كنت أسمع عن نشاطه الأدبي ومشاركاته، ولكن لبعد التخصص لم يكن لي فرصة متابعة إنتاجه حتى تفضل بإهدائي عملين، أما أحدهما فهو (فضاءات) وجعل تحته عنوانا صغيرًا (حروف منثورة) ولست أدري أهي الحروف جمع حرف أم الحروف بمعنى الكلمات ولست أدري أمنثورة تعني مبثوثة أم تعني أنها من النثر لا الشعر.

ومهما يكن من أمر هذا فالكتاب وإن يكن جملة من المقالات الصحفية في المجلة العربية فهو واحة يجد القارئ فيها أنسًا وراحة، ويكشف الكتاب عن اهتمام شديد بالقارئ فالكاتب يحترم القارئ بأن ينتخب له من الموضوعات ما يجمع بين الفائدة والطرافة، وهو على الرغم من استناده إلى ثقافة عريضة وعميقة حريص الحرص كله أن لا يشعر قارئه بذلك، فهو يكتب بأسلوب واضح مباشر، وهو يعالج من الأمور بهدوء شديد يصل إلى قلب القارئ وعقله، أما جمال سبك العبارة والسلامة اللغوية فهي من أكثر ما يتصف به عمله، أما الموضوعات فهي تكاد تزوي اهتمامات كل قارئ فهي تحلق في الآداب والقضايا الاجتماعية وتجمع بين نظرات إلى الماضي وأخرى إلى الحاضر، كتبت بحيدة وموضوعية وأناة وطرح عقلاني يمثل روح المثقف العربي المتوازن الذي لم تفسد عقله أدلجة ولا تطرف أو تعصب.

أما (نزْف) فهو ديوان شعر جمع بين قصائد عمودية الشكل وأخرى جاءت على نظام شعر التفعيلة، وليس باستطاعة نحوي مثلي أن يحكم على جماليات تلك الأشعار، فهذا أمر يحسنه البلاغيون والنقدة. ولكني مع هذا أوافق الشاعر العظيم أحمد الصالح في قوله:

في شعره غرر كأنفاس الربى　　　يا طيب شعر العاشق

ولولا هذه الشاعرية ما كانت تنساب فيض مشاعر عاشق للجمال في أبهى صوره فينفعل به ثم يتغنى معبرًا عن ذلك بأبيات حلوة النغم عجيبة الأخيلة، وهنا يكفي أن أشير إلى قصيدة استوقفتني وهي تصف مشهدًا متكررًا نراه بأعيننا العابرة فلا يثير في أنفسنا شيئًا؛ ولكن الشاعر يخلق منه قصيدة عجيبة في تصويرها وأخيلتها وجرسها، قصيدة تعبر عن فتاة تحمل باقة ورد وتشمها وتلامس بها خدها وتطلق آهات الاستحسان فتفجر في الشاعر بركان شعر:

رقص الورد فوق خد وجيد　　　وشفاه وراح يعزف لحنا

يتهادى بمبسم الشهد بردًا　　　وسلامًا وفي يديها تثنى

ماؤه من عيونها قد سقاه　　　قبل أن يرتوي من الأرض عينا

وردة النيل أحسد الورد حقًّا　　　حيث يحظى بقبلة وبمثنى

وثلاث وأربع وبشم　　　وبضم ومقلة نصف وسنى

هو ما اسطاع أن يقاوم عطرًا　　　بشريًّا وكان يزعم ظنًّا

أنه الأجمل الذي ليس ينسى　　　فبدا أنه الذي كان أدنى

جسّد النيل حسنه فيك حقًّا　　　فاختصرت الجمال شكلا ومعنى

فـــإذا قلـــت إن حبـــك ســـار　　في خلايـــاي فـــارحمي ذا المعـــنّى

وأحسب القارئ وهو يمر على (مثنى وثلاث وأربع) و(اسطاع) و(المعنّى) يدرك كيف تظهر الخلفية الثقافية دون تكلف بل صدور عن معطياتها، والقارئ يحس أن تخير رويّ النون للقصيدة وهبها جرسًا حلوًا ناسب مضمونها. فإلى هذا الشاعر التحية والإعجاب نزِفّ.

لا... أحبك

هذا عنوان ديوان صغير للشاعر الشاب عبدالمحسن بن سليمان الحقيل، وهو أيضًا عنوان قصيدة في الديوان جعله الشاعر عنوانًا للديوان، وهي طريقة متبعة في بعض المجموعات الشعرية والقصصية، والديوان كله تعبير عن عواطف الشاعر المتأججة ولذلك طغت الجمل الإنشائية على قصائده فهي مليئة بأدوات النهي والاستفهام وأفعال الأمر، وللشاعر طريقة لطيفة في تصوير أحاسيسه وقدرة على تأكيد المعنى بما يشبه أضدادها، يقع هذا في قصائد متقابله مثل (نعم أحبك) و(لا...أحبك) ويقع في داخل القصيدة نفسها ففي قصيدة (خدوش) يفتتح بقوله (لا ترجعي) وتتابع الأبيات بعد ذلك وكلها نداء غير صريح برجاء العودة حتى يصل إلى النهاية فيصرح بها (فلترجعي).

استوقفتني (لا) في عنوان الديوان والقصيدة؛ وذلك أن من استعمال (لا) في العربية أنها تستعمل حرف نفي يدخل على الأفعال وعلى الأسماء، وهو جزء من الجملة التي تليه، ولشدة اتصاله بما بعده لا يمنع حرف الجر من المجرور كما في قول شاعرنا (ص٢٢): (أوَ ترجعين كما رحلت بلا خدوش). وتستعمل (لا) حرف جواب؛ فيؤلف جملة منقطعة تركيبيًّا عن الجملة التي تليه، ويجب في الكتابة أن تفصل (لا) عما بعدها بفاصلة. ولذلك قد يلبس الأمر في النطق إذا جاء حرف الجواب (لا) وبعده جملة مثبتة، فقد يظن السامع أن المتكلم ينفي ولا يثبت، وقد لا يظن ذلك ولكن الكلام قد يتضمن ما ظاهره القبح، وقد روي في التراث ما يصور هذا بجلاء، جاء في (البيان والتبيين) للجاحظ: "مرّ رجلٌ بأبي بكر ومعه ثوبٌ، فقال: أتبيع الثوب؟ فقال: لا عافاك اللّه، فقال أبو بكر رضي اللّه عنه:

لقد عُلِّمتم لو كنتم تعلمون، قل: لا وعافاك اللَّه"[١]، فالواو فصلت بين (لا) والفعل فلم تنفه. وجاء في ثمرات الأوراق لابن حجة الأموي: "وبعضهم يرى أن الواو تزاد بعد (لا) النافية في الجواب إذا قيل هل فعلت كذا وكذا فيقول لا وعافاك الله. قال أبو الفرج بن الجوزي: روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لرجل: أكان كذا وكذا، فقال: لا أطال الله بقاءك، فقال الإمام عمر رضي الله عنه: قد عُلمتم فلم تتعلموا، هلا قلت: لا وعافاك الله... وقول يحيى بن أكثم للمأمون، وقد سأله عن أمر، فقال: لا وأيّد الله أمير المؤمنين. حكي أن الصاحب بن عباد حين سمع هذه الحكاية قال والله لهذه الواو هنا أحسن من واوات الأصداغ في خدود الملاح"[٢].

وقد يلبس الأمر على بعض النحويين كما في استشهادهم بقول الشاعر على تكرار الحرف (لا) للتأكيد:

لا لا أبوحُ بحبِ بثنةَ إنَّها   أخذتْ عليَّ مواثقًا وعهودا

وليس عندي أنه من التكرار؛ لأن (لا) الأولى حرف جواب؛ كأنه سئل: أتبوح بحب بثنة؟ فقال: لا. وأمّا الآخرة فهي (لا) النافية، وعليه يجب الفصل بينهما في الرسم بفاصلة، وفي الإنشاد بسكتة. وأما شاعرنا فأجاد بفصله بثلاث نقط في العنوان تعبر عن صمت أو كلام محذوف، وأجاد بوصله في داخل القصيدة وصولا إلى نهايتها التي جعلها فراغًا بين هلالي تحديد ليفهم تأكيد الحب لا نفيه.

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ١: ٢٦١.

(٢) ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، ١٧-١٨.

مدد

قلت للأستاذ تركي الزميلي حين أهداني ديوانه (مدد) ما أنا بقارئ، فأكثر ما يؤلمني أن يكون الكتاب لدي ولا يكون له من الوقت ما يفي بمقتضى القراءة، ولكنه كفاني المؤونة بما أحسن صنعه النادي الأدبي بأبها حين سجلوا بصوت الشاعر أشعاره، فكنت أسمعها وأنا مغتد إلى الجامعة أو رائح منها، وفي كل مرة أصيخ لصوته الهادئ المريح تتكشف لي حجب المعاني التي تكتنزها أسطر قصائد هذا الديوان(مدد)، وهي معان أفلح الشاعر في أن يجسدها بما لديه من معجم شعري واف وما وهب من قدرة عجيبة على رسم الصور وابتكار الأخيلة وانتقاء الألفاظ المجسدة لكل ذلك مع جرس موح يلامس شغاف القلب، فزوي بذلك للشاعر ابتكار في المعنى وشرف في المبنى. وكل القصائد على اختلاف موضوعاتها وتباين مبانيها تكاد تجتمع في أنها تعبير عن ألم الإنسان في هذا الكون، وما هذه الصور التي يفلح الشاعر برسمها بواقعية شديدة صادمة تزعزع رتابة العادة سوى مُثُل لذلك العذاب، فالشاعر يرتفع بتلك الصور التي قد تكون خاصة إلى مستوى العام المشترك الذي يلتقي عنده بنو البشر ويواجه بعضهم بعضًا فيتعرون تعريًا أوضح ما يكون في البيان الذي تصدره (العتبة) وهو بيان أو فضيحة تذيعها العتبة الصماء في عرف الإنسان ولكنها حين يستنطقها الشاعر تذيع بيانها وتحدّث أخبارها، فتفضح زيف من مرّوا عليها، فهي الحد بين الصدق والكذب والحقيقة والزيف وهي آخر الأمر حد بين طوري الإنسان الغافل: الحياة والموت؛ فمن فوقها يجتازون بالميت نحو العربة. ويُفضح الإنسان في مشهد الصغير يسمو فوق جوعه

القاتل حين يرى التفاحة تمدها يد الساحرة فهي الخديعة القديمة، يصور الشاعر موقف الطفل من المعونات يأتي بها العدو بتفصيل باهر يصف الطفل الرهين في بؤسه وجوعه والرهين في عمره (تعدى قليلا حمى العاشرة) فصغره وجوعه لم تهلك نفسه الأبية ولا أعشت عينه تفاحة الساحرة بل مد يده باتجاه (الحجارة) ليرمي بها ذات التفاحة. سخّر الشاعر الذي كاد يجعل من ديوانه بوتقة أحزان الإنسان وآلامه معجمًا حاد الملامح واضح القسمات فترى (مخالبها، المطارق،خناجرها، أنياب، الحريق، طلقة، النبال، كالنصال) وتجد مآل فعل تلك الأدوات من (سفحت، ناهشا، التمزق، الوئيدة، محفل الحزن، الكآبة، تشظي، تنهش، يغتال، فتات، مزقت). حتى قصيدة (عيدية) جاءت دعوة للسمو فوق الألم وتناسي الجراح وكأن ذلك قدر الإنسان أن يكون مجروحًا، فلولا الغفلة التي تلم بالإنسان فتهبه لحظات زائفة من السعادة ما عرف تلك السعادة. كثافة من الحزن والتعبير عن الألم تستولي على روح الديوان فتسلبه البهجة كما سلب الإنسان من الإنسان روح البهجة، فغدا مصطرعًا أبد الدهر وأنّات الجرحى والمظلومين تضج بقوة، فلا تعجب أن ختمت أكثر أسطر هذا الديوان بهاء. والهاء صوتًا حشرجة، أما في الرسم فدائرة لا تفضي للحل ولا توحي بشيء من نهاية تلك الآلام، فلا حلّ على وجه الأرض، مذ كان الخصم هو الحكم، ومذ كان تناسل قابيل وهابيل. فإذا كان الأمر يقارب شيئًا عبثيًّا فليس أمام الإنسان سوى أن يتوسل، أن يتجه إلى الأعلى أن يصرخ بآخر ما يملكه من روح: "مدد".

ثالثًا:رسائل ودراسات

أثر الروافد الثقافية في التنظير النحوي

تأتي هذه الرسالة التي كتبها الدكتور سعد بن عبدالله بن عبدالرحمن المحمود لتلقي الضوء على جانب مهم من جوانب نحو العربية الذي اشتهر فيه ما شجر بين علمائه من خلاف منذ عرف النحو وما زالت قضاياه مثار بحث الباحثين وتأملهم، وإن جملة من أسباب ذلك الخلاف مرده إلى تأثر كل نحوي بما صبّ في ثقافته من روافد مختلفة جعلته مختلفًا في تلقيه مختلفًا في نظره إلى الظواهر اللغوية ووصفها وتفسيرها، والنحو قد شارك في جدله وصياغة محتواه فقهاءِ ومفسرون وأصوليون وذو ثقافة فلسفية، ومن هنا تعددت الروافد الثقافية التي وفق الباحث النجيب إلى صياغة جوانبها في أربعة فصول، جعل الفصل الأول لأثر الروافد الثقافية في أصول النحو بغض الطرف عن الاختلاف أو الاتفاق في تلك الأصول، فكان الكلام عن أول أصول النحو وهو السماع وما يتعلق به من اتصاف المسموع بالتواتر أو الآحادية، وكونه مرسلًا أو مجهولًا، والموقف من مصدر المسموع حيث الخلاف في من يسمع منه ومن يترك، والقول في طرائق التحمل والأخذ، وأما الأصل الثاني وهو القياس فكان التتبع لأثر الروافد الثقافية فيه عند أبرز من نظروا له وهم ابن جني والأنباري والسيوطي، وما يتصل بذلك من حديث عن العلة عندهم، وأما الأصل الثالث عند من يعده أصلًا، وهو الإجماع، فكان الوقوف على أثر الروافد الثقافية في الموقف من حجيته، ويأتي القول في أثر الروافد في الأصل الرابع، وهو استصحاب الحال الذي يعد من أضعف الأدلة حتى عند من

يعده من الأدلة المعتبرة، ومن الأدلة الأخرى الاستحسان، وللروافد الثقافية أثرها في ما يتصل بذلك من تعارض الأدلة أو ترجيحها، وانتقل الباحث بعد هذا في الفصل الثاني إلى أثر الروافد الثقافية في المصطلح النحوي وما يتصل بذلك من طرائق التأليف، وإن كانت أصول النحو هي منبع التقعيد والمصطلحات أدواته فإن من المنطقي أن يكون الفصل الثالث وقفة عند أثر الروافد الثقافية في القواعد النحوية والأحكام، وإن كانت القواعد معتمدة في تنظيرها على الأصول فإنها معتمدة في حجيتها وبيانها على الشواهد المؤيدة والأمثلة المفسرة المبينة؛ ولذلك كان الفصل الرابع كشفًا عن أثر الروافد الثقافية المؤثرة في تلك الشواهد في إنشادها وفي صوغ تلك الأمثلة أيضًا.

استطاع الباحث بعكوفه على عدد كبير من المصادر والمراجع التي أحسن التنقيب فيها واستخلاص ما بنى عليه نسيج بحثه وما انتهى إليه من نتائج ختم بها بحثه الرائع، فأشار إلى أثر الرافد الفقهي في صياغة أصول النحو وإن تكن تلك الأصول متمثلة منذ كان النحو قبل تدوينه، ولكن الصياغة الواضحة عند ابن جني ثم الأنباري تبرز هذا الأثر الفقهي، وكان للحديث وطرائق تلقيه أثره في الموقف من المسموع، وكان للاتجاه العقدي والمذهب الفقهي أثره الواضح، ولم يكن التنظير بمبعدة عن تأثره بالحياة الاجتماعية والسياسية.

إن هذا العمل يكشف لنا بجلاء كيف استوى هذا النحو حتى وصل إلينا بعد تفاعل رواده واجتهادهم الذي هدوا إليه، وهو أمر يدفع عنه شبه استيراده من بيئة غريبة عنه وفرضه على نظام هذه اللغة، ولم يتبين أن من روافده ما هو غريب عن الثقافة النشطة إبّان الازدهار العلمي الذي رافق الاهتمام بتلقي الكتاب المنزل

وتدبر آياته والاحتجاج لها، وما نشط إليه العلماء من جمع ما وصل إليهم من الثقافة العربية الشفاهية العريضة التي لو قدّر جمعها لكانت أمرًا هائلًا؛ ولكن العرب لم تكن أمة تدوين ولا كتاب فضاع من تراثها ما ضاع على نحو ما يضيع من تراث بيئاتنا المحلية الحاضرة اليوم في خضم اكتساح العولمة واقتحام الثقافات الأعجمية وغزوها مجتمعاتنا في عقر دارنا باختيار منا وتمكين لا بصيرة تقوده.

أحكام العكبري على الأعاريب

منذ أن شرّف الله العربية بنزول القرآن بها صار محور اهتمام الناس، ولما توجه به المسلمون إلى كل أصقاع العالم صار الكتاب الأول قراءة ودرسًا، وإن المسرد الذي جاء محصيًا الأعمال العلمية المتعلقة بنصه جاءت مداخله في أربعة مجلدات؛ ولكنه مسرد تجاوزه الزمن اليوم؛ إذ توالت الأعمال بعده، من مثل هذه الرسالة التي وفق إلى كتابتها ابننا الدكتور عبدالعزيز بن أحمد المنيع؛ فهي من أواخرها، فقد نوقشت يوم ١٦من ذي القعدة عام ١٤٣٣هـ، وعالجت أحكام أبي البقاء العُكْبَرِيّ (٦١٦هـ) على الأعاريب انطلاقًا من كتابه (التبيان في إعراب القرآن)، وجاء هذا الكتاب بعد قرون من العمل النحوي فورث جهود علماء أفذاذ أغنت محتوى الكتاب. قال المنيع "جاء بعد استقرار التأليف في هذا المجال، فورث مادَّةً غنيّة من أوجه المعاني والإعراب، فجمع كثيرًا من تلك الأوجه، وأضاف إليها ما هداه إليه فهمه ونظره الثاقب، ولم يكتف بجمع أوجه الإعراب، بل وقف منها موقف الناقد، فأصدر أحكامه على كثير منها، فبيَّن ما هو راجح وما هو ضعيف وما هو خطأ، وخرَّج ما يمكن تخريجه منها وفاقًا لمذهب نحويٍّ أو وجه دلاليٍّ".

كتبت الرسالة في ثلاثة فصول عالج الفصل الأوّل عبارات الأحكام عند العكبري وأنواع تلك الأحكام، وكان الوقوف على بعض الدلالات لألفاظ العكبري وعباراته التي استعملها في تحليله ونقده، ثمّ بيّنت أنواع الأحكام عنده حسب ما تستهدفه، فمنها أحكام على قراءات قرآنيّة، وأحكام على آراء النحويّين السابقين في إعراب القرآن الكريم. وأما الفصل الثاني فعالج الأسس النحويّة لأحكام العكبري، وهي كثيرة، ولذلك شغلت حيّزًا كبيرًا من الرسالة فقسّم هذا الفصل

ثلاثة أقسام: أحكام مرتبطة بالعامل، وأحكام مرتبطة بوظيفة المعمول، وأحكام مرتبطة بالعلاقات النحوية. وأما الفصل الثالث الأسس الدلاليّة لأحكام العكبري، فبيّن المراد بالمعنى النحويّ والمعنى الدلاليّ، وكشف عن مظاهر اهتمام العكبري بالمعنى وعلاقاته بالإعراب، فذكر أثر دلالة السياق والمفردات في أحكامه، ثمّ أثر الأدوات في توجيه الحكم النحويّ عنده.

إن هذه الدراسة وأمثالها تبرز جهود علمائنا القدماء وقدراتهم العقلية، وتعيننا على فهم منطلقاتهم وأصول تفكيرهم، وهو أمر يسعدنا إن نحن أردنا أن نخطو بنحونا خطوات متقدمة، فنحسن التخير، ونسد الثغرات، من غير حاجة إلى اجتلاب مناهج ونظريات غريبة عن رحم هذه اللغة الشريفة، إذ المنجز النحوي شامخ كالطود؛ ولكنه مع هذا كله يفتقر إلى إعادة نظر في بعض جزئياته ومسلماته، وهو أمر لا يفتّ في عضده بل يعيد إليه تماسكه ويعزز جانبه، وما نقود العكبري لأقوال غيره إلا دليل حيوية العمل النحوي الذي حفل بالاختلاف كما حفل بالائتلاف، وقد يكون العكبري غير موفق في بعض ما ذهب إليه كما بيّن الباحث؛ ولكن ذلك لا يغض من مكانته وعلمه، ولعل هذا العمل يكون فاتحة لأعمال علمية مثمرة تعيد إلى النحو حيويته بإذن الله وتوفيقه.

أعمال المستشرقين العربية في المعجم العربي

لا ينكر الإنسان فضل المستشرقين على الثقافة العربية بغض الطرف عن نواياهم ومقاصدهم، فمنهم من ارتحل في بلادنا كما ارتحل الأجداد وكابدوا عناء الرحلة ومشاقها وعاشوا مع البدو حلوا حيث حلوا وارتحلوا حين ارتحلوا، ومنهم من ارتحل في التراث فاستوعبه وعبر عنه، ومن يزر المكتبات الغربية يجد عنايتهم الفائقة بحفظ مخطوطاتنا حفظًا ما كان سيتيسر لها في بلادنا، وهم الرواد في تحقيق تلك الكتب تحقيقًا علميًّا فكانوا القدوة والمعلمين لنا في هذا العصر بعد أن أُنسينا طريقة أجدادنا في التحقيق والتدقيق، واهتموا بأمر الفهرسة لهذا التراث ففهرسوا آي القرآن والأحاديث الشريفة وفهرسوا لمواطن المخطوطات العربية، ولهم جهود بارزة في تقديم التراث والتأليف بفنونه ونقده وتحليله، وهي جهود تستحق منا الدرس والتبيان للاستفادة منها قدر الإمكان. وفي هذا الإطار يأتي عمل أخي الدكتور عبدالعزيز بن حميد الحميد عن أعمال المستشرقين العربية في المعجم العربي الذي نشرته عمادة البحث العلمي في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م في جزءين ومجلد للفهارس، وهو عمل رائد مبني على منهج علمي رصين ومتكئ على استقراء دقيق، وهو ثمرة سنوات من البحث والتدقيق والجمع والتصنيف والقراءة الناقدة جهودَ المستشرقين في هذا الحقل. استطاع الحميد الكشف عن طريقة تعامل المستشرقين وقدرتهم على فهم التراث، وكشف عن مناهجهم في صناعة المعاجم والفهرسة اللغوية، وكشفت دراسة الحميد التحليلة نظرياتهم العلمية ومدى تطبيقها ومدى استفادتهم من مناهج البحث الحديثة في دراستهم معاجم العربية كالجيم والمخصص والمحكم، وبين الحميد أن

أعمال المستشرقين أثرت في الدراسات اللغوية الحديثة من حيث اهتمامها بالتفاصيل، وهي أعمال متنوعة في ميادينها ومناهجها، وامتازوا باعتمادهم نصوص الكتب الأصلية لا ما تداولته المعجمات العربية، واعتنى المستشرقون بصناعة المعجم العربي لأنه مفتاح اللغة العربية وسعوا إلى تعلم العربية وتيسير تعلمها فوضعوا المعاجم الثنائية. وأوصى الحميد بأن يطلع الباحثون على طرائق المستشرقين في التحقيق والاستفادة منها وكذلك الاطلاع على جهودهم في صناعة المعجم الذي نال قدرًا عظيمًا في لغاتهم، في حين يظهر افتقارنا إلى دراسات متخصصة في مجال الصنعة المعجمية، وأوصى الحميد بعرض جهود المستشرقين وعرضها للتحليل والنقد واكتشاف حسناتها للاستفادة منها. وبين لي الدكتور الحميد في اتصال هاتفي أهمية الجوانب الثقافية الأخرى كالدراسة النحوية والصرفية وغيرها من الجوانب التي هي بحاجة جهود الباحثين. وعمل الحميد رائد يمكن أن يحتذيه الناهون من طلاب الدراسات العليا إن رزقوا هدوءه وصبره وأناته وعمق نظرته وسداد رأيه. وكنت حضرت معه ورشة نظمتها مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية بالتعاون مع المنظمة العربية للثقافة والعلوم كان موضوعها المعجم التفاعلي ويقصد به معجم عنكبي يكون على الشابكة يغني عن كثير من المعاجم القديمة، وكان النموذج الفرنسي الذي عرض لنا من أبرز تلك النماذج؛ ولكن إنجاز معجم كالمعجم الفرنسي هو أمر يحتاج إلى حال واحتوال وحيلة كما يقول عامتنا.

الاستعمالات المهملة في النص العربي

بنيت قواعد نحو العربية على جمهرة استعمال العرب، ولم ينصرم القرن الثاني إلا وقد دوّن النحو في كتاب بلغ الغاية في الإتقان والتميز، وجاءت الكتب النحوية بعدُ على مرّ العصور مستمدة من (الكتاب) مرددة لما احتواه من قواعد؛ ولكن طائفة من تلك القواعد أهمل استعمالها في نصوص الكتب المؤلفة بعد ذلك، أو ندر استعمالها ندرة هي في منزلة الإهمال؛ ولكن كتب النحو ظلت تردد تلك القواعد، ولم تسلم من ذلك كتب مدرسية كان هدفها تعليم النحو للمبتدئين كالخلاصة التي كتبها ابن مالك في ألف بيت وشروح تلك الخلاصة. ومن أجل ذلك وجدنا الباحث الجاد الأستاذ ناصر بن عبدالرحمن الحمد في رسالته للماجستير (جامعة الملك سعود) يعمد إلى جمع ما هو حريّ بالإهمال من تلك القواعد معتمدًا في جمعه على ثلاثة من أشهر شروح الألفية، وهي شرح ابن عقيل، وشرح ابن هشام، وشرح السيوطي. فلما استوى له قدر صالح من تلك المسائل راح يكشف عن استعمالها في النصوص العربية معتمدًا على محركات بحث حاسوبية وموسوعات عنكبية تكشف عن مدى استعمال الظاهرة النحوية في آلاف الكتب. ومن هذه المسائل التي كشف البحث عن إهمالها الفعلُ الناسخ (اخلولق)، والمضارع من فعل الشروع (طفِق)، واسم الفاعل من (كاد)، واستعمال (حجا) فعلًا من أفعال القلوب، وذكر الباحث أن النحاة أجازوا إعمال (ليت) وإهمالها عند اقترانها بـ(ما) الزائدة، وهذا الجواز إنما بني على اختلاف رواية العرب لبيت النابغة الذبياني:

قَالَتْ ألا لَيْتَما هَذَا الحَمَامُ لَنَا   إِلى حَمَامَتِنَا أوْ نِصْفه فَقَدِ

فبعضهم روى (الحمام) بالرفع وآخرون رووه بالنصب، ولكن طرد القاعدة في هذا الباب أولى وهي إهمال عملها؛ لأن رواية الشاهد بالنصب احتمال وما يدخله الاحتمال يبطل به الاستدلال؛ ولأنه لم ترد له نظائر في كلام العرب. واتفق النحويون على جواز اتصال نون التوكيد الثقيلة بالفعل المسند إلى نون الإناث، واشترطوا أن يؤتى بألف تكون فاصلة بين نون الإناث، ونون التوكيد، ولم يذكروا لذلك شاهدًا من كلام العرب، ولم يعثر الباحث إلا على نص واحد ذكره الجمحي منسوبًا إلى أبي مهدي الباهلي (اخسأنانِّ عنّي)[1]. وعدّ النحويون (لا يكون) من أدوات الاستثناء، من غير شاهد، ولم يعثر الباحث على أمثلة له. وذهب بعض علماء الكوفة إلى جواز التعجب من الأفعال الناقصة، ولم يذكروا له شاهدًا من كلام العرب، ولم يعثر إلا على نص نثري واحد جاء فيه هذا الاستعمال. وذهب شراح الألفية إلى جواز ترخيم المركب المزجي، ولكنه لم يجد له استعمالا في الكتب التراثية. وأوجب النحويون قلب ألف الندبة بعد الكسرة ياءًا، وبعد الضمة واوًا في الاسم المضاف إلى ضمير المخاطبة، وضمير المذكر الغائب (وا غُلامَكِيه/ وا غُلامَهُوه)، وهذا لا شاهد له من كلام العرب، ولم يرد به الاستعمال. وأجاز بعض النحويين جمع ما ختم بتاء تأنيث جمع مذكر سالِمًا (طلحون)؛ ولكن ذلك لا شاهد له من كلام العرب، ولا استعمال له في كتب التراث. وأما استعمال (تي) من أسماء الإشارة مجردًا من هاء التنبية في أوله فلم يجد له استعمالًا في النصوص. ومثله استعمال (تا، ته) من أسماء الإشارة هو مهمل في كلام العرب، ولم ترد عليه

---

(١) الزجاجي، مجالس العلماء، ص٥.

إلا أمثلة قليلة من الشعر. وأجاز بعض النحويون توكيد المذكر بـ(أجمعان) والمؤنث بـ(جمعاوان)، وهذا لم يجد له الباحث استعمالًا في كتب التراث.

ومثل هذا العمل العلمي المعتمد على تطبيقات الحاسوب والعنكبية هو من الأعمال الرائدة التي يمكن أن تحتذى ويوسع نطاقها لتشمل كل قواعد النحو العربي اعتمادًا على مطولاته على اختلافها؛ ولكن مثل هذا الجهد لابد له من فريق بحثي ضخم، ولولا ما تحلى به الباحث الجاد من صبر وشجاعة ما كان ليصل إلى ما وصل إليه.

الاشتراط في النحو العربي

هذه رسالة الدكتوراه التي كتبها الدكتور زكي بن صالح الحريول، وأشرف عليها الأستاذ الكبير الدكتور عبدالله بن حمد الخثران أمدّ الله بعمره. جاءت الرسالة في مقدمة وتمهيد وتسعة فصول مستغرقة ٨٦٢ صفحة، وربما يكون هذا الطول مأخذًا ظاهرًا على الرسالة؛ ولكن ما يسوغه أن موضوعها ينتظم النحو كله، وهو نحو متعدد الجوانب والمفردات، وجعل الباحث القدير عنوان رسالته الاشتراط لا الشرط أو الشروط لأنّ مراده بحث الأصول الفكرية للشروط لا الشروط أنفسها؛ إذ الشروط مبثوثة في تضاعيف أبواب النحو. يأتي هذا العمل سبرًا للفكر النحوي وكشفًا لآلية الاشتراط وبيانًا لأغراضه وحدوده، حاول الباحث في تمهيده أن يجلّي مفهوم الاشتراط والشرط، وأن يميزه من مصطلحات وألفاظ أخرى تقاربه في الدلالة العامة ولكنها تختلف عنه اختلافًا بيّنًا، مثال ذلك الفرق بين الشروط والمسوغات، فتقديم الخبر شبه الجملة مسوغ للابتداء بالنكرة ولكنه ليس شرطًا لذلك. وبدأ الباحث فصول رسالته بداية منطقية بالفصل الأول عن مصادر الاشتراط وهي مصادر النحو بعامة: السماع والقياس، وثنى في الفصل الثاني بشروط تنظيم الجملة، وهو معالجة للاشتراط في القضايا التركيبية التي منها التقديم والتأخير الذي يعرض لبعض عناصر الجملة، ومنها الربط وهو ما تقتضيه علاقة عناصر الجملة بعضها ببعض، ومنها المطابقة بين بعض عناصر الجملة، ومنها التضام وسماه الباحث التلازم والانفصال، وآخر هذه القضايا التركيبية ما ينال عناصر الجملة من ذكر أو حذف. وخصص الفصل الثالث للمستوى الصرفي، فعالج الشروط التصريفية المؤثرة في الأحكام النحوية، ومنها ما يتعلق بالجمود والاشتقاق، ومنها ما يتعلق بالأصالة

والزيادة. وأما الفصل الرابع فخصص للمستوى الدلالي لما لذلك من أثر في الأحكام، وعالج فيه الدلالات الاسمية فالدلالات الفعلية فالدلالات الحرفية وختم بالدلالات المشتركة. وأما الفصل الخامس فهو بحث في نظرية العامل التي هي تفسير لظاهرة التصرف الإعرابي، فبحث أثر هذه النظرية في الاشتراط النحوي، ومنها الاشتراط في العامل والمعمول والأثر الإعرابي. وأما الفصل السادس فجعله لنظرية أخرى من أصول التفكير النحوي العربي وهي نظرية الأصل والفرع مبيّنًا أثرها في الاشتراط، ولما كان التأويل من أهم ممارسات العلاج النحوي لعلاقة القواعد بالنصوص خصّص الفصل السابع لبيان أثر الاشتراط في التأويل متناولا في ذلك قضية الحذف والتقدير وقضية الزيادة وما يماثل ذلك من ضروب الاتساع في الاستعمال. وكان النحويون واللغويون من قدماء ومحدثين يكادون يتفقون على خصوصية لغة الشعر وما تهبه موازينه وتفعيلاته من تحكم يؤثّر في تركيب الكلام فيه، ولذلك خصص الباحث الفصل الثامن لخصوصية الشعر عند النحويين وأثرها في الاشتراط، معالجًا في ذلك مظاهر الترخص في الاشتراط أو الالتزام، وغنيّ عن الذكر ما للخلاف النحوي من سمعة في النحو العربي؛ ولذلك حرص الباحث القدير على أن يخصص له الفصل التاسع ليبين أثر الخلاف في الاشتراط، معالجًا أسباب الاختلاف ومظاهره. وأما الخاتمة فجاءت تركيزًا لأهم ما توصل إليه الباحث في عمله الموفق، أذكر منها ما بينه الباحث من موافقة النحاة للأصوليين في مواضع الاشتراط، وأن ثمة ارتباطًا بين الشروط والحدود النحوية، وبيّن أن معالجة النحاة لمسائل الشروط معتمدة على الوصفية والمعيارية منطلقين من المسموع من العرب، وبيّن أن الشروط هي أقوى الأحكام النحوية، وكشف ما بين التأويل والاشتراط

من تناسب إذ التأويل لحالات العدول عن الأصل إلى فرع هو مظنة الاشتراط، وصرّح بأن البصريين أكثر من الكوفيين التزامًا بتقييد الأحكام بالشروط. ولم ينكفئ الباحث القدير على جهود القدماء وحدهم بل جاءت مصادره ومراجعه ثرية شاملة للقديم والحديث، للمخطوط والمطبوع، للكتب وللأبحاث في الدوريات المحكمة والرسائل العلمية، واستطاع بجدارة أن يحسن الاستفادة منها، نهنئ أنفسنا بنبوغ نحويّ من أبنائنا.

البيتوشيّ

لم أكن أعرف مَن البيتوشيّ حتى تقدم ابننا الدكتور خالد الجريان بخطة رسالته للدكتوراه، وكان أن اشتركت في مناقشتها، عرفت من الرسالة أنّه أبومحمد عبدالله بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن عز الدين، ولد في النصف الأول من القرن الثاني عشر للهجرة في بيتوش بلد في كردستان العراق، تلقى علومه الأولى على والده، حفظ القرآن الكريم وتلقى العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه، وعلوم العربية من نحو وصرف وبلاغة وعروض، وحفظ أهم المتون، لازم أخاه محمودًا العالم الفاضل وتلقى منه علوم العربية، وسافر معه في طلب العلم إلى بلدان شتى كالشام وبغداد والكوفة والبصرة والمدينة ومكة، ثم توجها إلى الأحساء التي استقرا فيها مدة حتى عادا إلى بيتوش، غير أن عبدالله رجع إلى الأحساء ليمكث فيها مدة ويغادرها ولكنه يعود إليها مرة ثالثة في أواخر ١١٩٠هـ ، كانت الفترات التي يقضيها في الأحساء من أخصب الفترات العلمية، ففيها تعلم وعلّم وكتب ونظم، والبيتوشي يذكرني بابن المقرب ابن الأحساء الذي أخمل ذكره أنه لم يعش في مدينة من المدن السياسية الكبرى كما عاش المتنبي وغيره، فعلى الرغم من غزارة إنتاج البيتوشي نثرًا وشعرًا كتابة ونظمًا لم نجده اشتهر شهرة السيوطي أو البغدادي، كان البيتوشي قوي الذاكرة متمكنًا من علوم الشريعة والعربية؛ ولذلك تعددت أعماله في العلوم الشرعية والعلوم العربية، ذكر الدكتور الجريان أن أعمال البيتوشي تزيد على ستين أثرًا، وقسمها أربعة أقسام الأول في العلوم الشرعية والثاني في العلوم العربية والثالث منظوماته في النحو واللغة، والرابع شروحه وتعليقاته، ومن كتب العربية (الكافي في علمي العروض والقوافي)، (كفاية المعاني في حروف المعاني)،

ومن منظوماته منظومة في بيان الأفعال التي جاءت واوية أو يائية، ومنظومة في بيان الأفعال التي تتعدى وتلزم، ومن شروحه شرح سقط الزند وشرح مقصورة ابن دريد. وبين الجريان على نحو استطرادي في رسالته الجانب الأدبي وخاصة الشعري، وأما مؤلفاته فحافلة بآراء النحويين واللغويين استوعبها وأحسن الصدور عنها، واتخذت أعماله طابع الأعمال السائدة في ذلك العصر وهي الميل إلى الموسوعية وتقييد العلم نثرًا ونظمًا، عرض الدكتور الجريان أهم ما تضمنته كتب البيتوشي ومنظوماته وناقشها مناقشة القارئ الناقد ووقفنا على أقوال توهم البيتوشي أنه لم يسبق إليها فذهب إلى تفرده فيها؛ ولكن البيتوشي كغيره من البشر تخطر لهم الفكرة ولا يعلمون على رغم سعة الاطلاع أنهم سُبقوا إليها، وعذرهم واضح فلا الكتب مفهرسة ولا هي بالقليلة في القرن الثاني عشر، وإنّا في هذا العصر لنتوهم أنّا نأتي بجديد ثم ما نلبث أن نعثر على القول أو أصله عند أسلافنا. رحم الله البيتوشي الذي وهب نفسه للعلم وأهله.

الثمر الينيع في إجازات الصنيع

هذا اسم الكتاب الذي ألفه الأستاذ القدير المتخصص بالمخطوطات العربية أبوزكريا صالح بن سليمان الحجيّ، أطال الله عمره، ونشر الكتاب في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية (٢٠١٠م)، والأستاذ باحث نادر المثال؛ إذ هو من الباحثين المدققين الذين يحسنون أدوات البحث وإجراءاته، وقد أحسن بعكوفه على جمع إجازات الشيخ العلامة سليمان بن عبدالرحمن الصنيع، ووصفها وتنسيقها، ولم يكتف الباحث بإيراد نصوص الإجازات بل ضمن كتابه الصور الضوئية لنصوص الإجازات وهو موضوع الفصل الخامس من الكتاب. والإجازات جمع (إجازة)، المصدر من الفعل (أجاز) وهو هنا مصطلح يطلق على الكتاب الذي يكتبه الشيخ لتلميذه مبينًا فيه ثقته في حسن تلقي تلميذه لما أخذه عنه، ومن هنا ساغ جمع (إجازة) بصفته مصطلحًا على (إجازات). وكانت الأجازة في تقاليد التعلم السلفي بمثابة الشهادة في تقاليد الخلف اليوم على اختلاف كبير بينهما. فالإجازة غالبًا إذنٌ للتلميذ أن يروي عن الشيخ ما حفظه عنه أو قرأه عليه، والمجيز يضمن إجازته مفردات العلم الذي يجيز لتلميذه روايته، وليست الإجازة بقياس لمهارات محددة قياسًا دقيقًا معتمدًا على درجات محددة كما نجده في أساليب القياس المتنوعة والمتعددة اليوم. جعل أبو زكريا كتابه في خمسة فصول جاءت بعد مقدمة وبيان بمنهج البحث وتمهيد عن أهمية الإجازات وأنواعها، وأما الفصل الأول من الكتاب فترجمة للشيخ الصنيع متضمنة أقوال العلماء عنه وترجمته هو لنفسه، وأما الفصل الثاني فأورد المؤلف نصوص إحدى وأربعين إجازة إجيزها الشيخ، وكان الباحث النابه يقدم بين يدي نص الإجازة بيانات عن اسم المجيز

ونبذة من ترجمته، ثم يقفّي نص الإجازة بفهرسة وصفية للنسخة الخطية تبين نوع الخط وصفته واسم الناسخ وتاريخ تحرير الإجازة وبيانات التوريق: عدد الأوراق، وعدد سطور كل ورقة، ومقياسها بالسنتيمتر، والملامح المادية، وحالة الورق والتجليد، وما قد يوجد في الهوامش من إلحاقات، ويذكر رقم حفظ الوثيقة في قسم المخطوطات بمكتبة الملك سعود. وخصص الفصل الثالث للإجازة التي أجازها الشيخ الصنيع تلميذه محمد بن يحيى شاكر، وجعل الفصل الرابع فهرسًا لأسماء من اتصل بهم الشيخ من العلماء ولازمهم فأجازه بعضهم. إن من يطلع على هذا الكتاب ليروعه ما يعبر عنه من دقة في التنفيذ وصبر جميل على مقتضيات إخراجه بالشروط واللوازم التي أخذ الباحث بها نفسه، وحري بالكتاب أن يكون قدوة للباحثين ليتعلموا الأناة والدقة والصبر والاستقصاء في وقت وجدنا التعجل والفوضى والنزق والابتسار سمة كثير من الباحثين، بقي أن أشير إلى إجازة فريدة لها دلالتها المستحقة للتأمل؛ وهي الإجازة الخامسة إجازة الشيخة أمة الله بنت عبدالغني بن أبي سعيد أحمد بن عبدالعزيز بن عيسى العَمري الدهلوي المدني التي جاءِ في إجازتها أن الشيخ الصنيع طلب منها إجازته فيما أجازها والدها من كتب الحديث وغيرها من العلوم الدينية وأنها أجازته في جميع ذلك. شكرًا أبا زكريا فقد أحسنت الصنيع بإجازات الصنيع.

الدراسات اللسانية في السعودية

أتحفني بكتاب رائد أخي الدكتور نعمان عبدالحميد بوقرّة، أستاذ اللسانيات وتحليل الخطاب في جامعة الملك سعود، ويقع كتاب (الدراسات اللسانية في المملكة العربية السعودية: دراسة وصفية تأصيلية في ضوء التلقي العربي للمناهج اللسانية الحديثة) في ٢١٣صفحة من القطع الصغير، وصدر عن دار عالم الكتب الحديث في إربد عام ٢٠١١م، ويزوي العنوان ميدان الدراسة وهي المملكة العربية السعودية، ومنهج الدراسة وهو المنهج الوصفي، وهذا أمر واقعي منتظر في الأعمال الرائدة، والإطار لهذه الدراسة وهو التلقي العربي للمناهج اللسانية الحديثة. تكتسب هذه الدراسة أهميتها من خبرة صاحبها وعمق معرفته بالمناهج اللسانية الحديثة؛ ولذلك أحسن تشخيص الموقف العربي السوداوي المحكوم بهاجس الخوف من القادم من وراء البحار، حين أدت المواجهة بين الفكر اللغوي القديم والفكر اللساني المعاصر إلى اضطراب الحكم على التراث العربي بغير مقاييسه، وفي التراث ما يمكن أن يؤخذ وما يجب أن يطرح، يقول المؤلف "فظهرت طائفتان أولاهما تؤثر السلام بتحصنها داخل قلعة التراث اللغوي، [وآخرتهما] رأى في التمسك بمناهج النظر اللسانية الغربية وُلوجها إلى عالم الحداثة الفكرية، غير أن هذه الفئة بالذات سقطت في هوة معرفية سحيقة، وهي منذ زمن تحاول الخروج عبثًا إذ كلما اعتقدت في نفسها استكمال آليات التفكير اللساني المحدث ظهرت آليات وأطروحات جديدة؛ إنها حيرة منهجية وفكرية ميزت المشتغلين بالعلم اللغوي من العرب، فتباينت رؤاهم ومذاهبهم وتعددت اصطلاحاتهم وتشعبت، مما أفقدنا في أحيان كثيرة الشعور بجدوى اللسانيات وجذوة البحث فيه"ص٢٥.

جعل المؤلف بعد المقدمة والمدخل كتابه في فصلين الأول "الكتابة اللسانية الحديثة في الوطن العربي، واقع وآفاق"، والفصل الثاني "الدراسات اللسانية في المملكة العربية السعودية، حصيلة وآفاق"، بدأ في الفصل الأول بإبراهيم أنيس الذي درس العربية درسًا لسانيًّا حاول فيه تقويم آراء القدماء، وعرض لجهوده في درس اللهجات، وقريب منه كمال بشر الذي اتجه إلى لسانيات التراث المؤصل للنظريات اللسانية والكشف عن جذورها، ويرى المؤلف أن النية اتجهت عند بعضهم إلى قولبة الفكر اللغوي العربي وجعله في اتجاه لساني حديث مجردًا من خصوصيته ولذا أسقطت عيوب النحو الغربي عليه كما عند عبدالرحمن أيوب المتهم للنحو العربي بتأثره بالمنطق الأرسطي وتبعيته للنحو الإغريقي. وعرض المؤلف لأهم تجربة مشرقية عند تمام حسان، وفيها محاولة توفيقية ناقدة لمنهجي النحاة العرب القدماء واللسانيين المعاصرين البنيويين بخاصة، وكان يهدف لتأسيس نظرية نحوية عربية حديثة. وسعى نهاد موسى إلى عقد موازنة بين أنماط من الدراسة العربية والغربية، وأما عبدالرحمن الحاج صالح فسعى إلى الكتابة بمنحى تجديدي في ضوء ما اكتشفه من رؤى ثاقبة للنحاة العرب وصفها بالمنطقية، وبين المؤلف وفاء صالح للنحو وأنه غير منتصر لنزعة لسانية معينة، وعرض المؤلف لأهم المحاولات الجريئة في لسانيات العربية كما تظهر عند أحمد المتوكل وأنصار الوظيفية المعتمدة على علاقة المتكلم بالمستمع حيث يكون النحو وصفًا وتفسيرًا للكفاءة التواصلية بكفاياتها الثلاث التداولية والنفسية والنمطية، ومن المحاولات الشهيرة ما أسسه الفاسي الفهري وتلامذته المتلمسين المنهج التوليدي الذي حاولوا تطبيق آلياته لإعادة وصف العربية. وجعل المؤلف الفصل الثاني في جملة مباحث، المبحث الأول

هو "الكتابة اللغوية العامة ومكانتها في الكتابة اللسانية في المملكة" بين فيه المنحى التعليمي التبسيطي لقضايا اللغة والنحو، ومثل لذلك بأعمالي، وأما المبحث الثاني فهو "الكتابة اللغوية العربية السعودية واللسانية العامة" عرض فيه لأعمال حمزة بن قبلان المزيني "الذي تعد بحوثه اللغوية نموذجا لتلاقي الرؤية التراثية في دراسة اللغة ومناهج النظر اللسانية الحديثة في المملكة العربية السعودية"ص٩٩، وأما المبحث الثالث فهو عن "الكتابة اللسانية الصوتية" ومثل لهذا بكتاب (الصوتيات العربية) لمنصور بن محمد الغامدي، ودراسة محمد حسن باكلا حول "ابن جني عالم الصوتيات"، وأشار إلى جملة من الدراسات لكلنتن، وعبدالرحمن عارف، وسعد الغريبي، وأحمد بهكلي. وأما المبحث الرابع فهو عن "الكتابة اللسانية والدراسات الصرفية (المورفولوجية)" أشار فيه لكتابات الشهري والقحطاني والسحيمي، وأما المبحث الخامس فهو"الكتابة اللسانية والدراسات المعجمية" أشار فيه إلى أعمال القنيعير، والعويشق، والحربي والمحيول والثبيتي. وأما المبحث السادس فهو عن "الكتابة اللسانية والدراسات الدلالية" أشار فيه إلى أعمال أبانمي والعبيدان والطلحي. وأما المبحث السابع فهو"الكتابة اللسانية التطبيقية" أشار فيه إلى أعمال الصديق والصيني والعقيلي والقبلان والزغيبي، وأما المبحث الثامن فهو "الكتابة اللسانية في المملكة واللسانيات الاجتماعية والأنثربولوجية"، أشار فيه إلى أعمال فالح بن شبيب العجمي، وإلى دراسة عيدة العمري. وما فعله المؤلف جهد مشكور قمين بالتوسيع والاستقصاء لغياب جهود بحثية مختلفة يحتاج جمعها والنظر فيها إلى فريق عمل منظم، والكتاب جدير بالقراءة، فأنعم بنعمان أن أنعم النظر في جهود الباحثين في بلادنا العزيزة.

ألقاب المعمولات في كتاب سيبويه

هذه رسالة ماجستير أعدها الأستاذ فؤاد مهيوب عبده أحمد المخلافي. بإشراف الدكتور سعيد أحمد طالب البطاطي. في كلية الآداب–جامعة حضرموت للعلوم والتكنولوجيا. وهي دراسة في المصطلح النحويّ الذي هو من أهم ما يتصدى له البحث العلمي؛ لأن المصطلحات مفاتيح العلوم، بها تضبط، وبها يسهل التعبير عن الظواهر؛ لأنها تختزل الكلام، وتكون محور القول. ويكتسب البحث أهميته من جانبين أحدهما كونه بحثًا في المصطلح، والآخر كونه متعلقًا باستعمال سيبويه له في الكتاب الذي يعد المدونة الأولى للنحو العربي؛ إذ لا نجد قبله كتابًا زوى أحكام النحو والصرف وعلوم اللغة، وأثبت لنا على نحو مدهش جملة التراث النحوي في ذلك العصر، وما زال كتاب سيبويه على الرغم من تقادم عصره قبلة الباحثين وطلاب العربية، وما زال كنزًا من كنوز الفكر العربي الأصيل الذي لم تخمله المصنفات من بعده بل تكاد تكون ترديدًا لكثير من أفكاره ومنطلقة من نصوصه وأحكامه ومصطلحاته، وهذا ما أكدته هذه الدراسة. استطاع الباحث القدير أن يقفنا على ما استعمله سيبويه من ألقاب تعبر عن المعمولات، وصنف بحثه تصنيفًا موفقًا حسب ما يقتضيه البحث في ظاهرة العامل والمعمول، فجاء البحث في ثلاثة فصول الأول عن ألقاب المرفوعات، والثاني عن ألقاب المنصوبات والرابع عن ألقاب المجرورات والتوابع. وكان الأولى أن يفرد التوابع بفصل وحده؛ إذ ليس التابع خاصًا بالمجرورات.

عكف الباحث على جمع المصطلحات المتفرقة في أثناء كتاب سيبويه، وهو

عمل جليل مجهد لا تغني عنه الكشافات التي صنعها محققو كتاب سيبويه؛ لأن مثل هذا العمل يقتضي استقراءًا دقيقًا ووقوفًا متلبثًا أمام عبارات سيبويه، وربما اقتضى الأمر إعادة الكرة غير مرة، ويعرف من اطلع على الكتاب أن الحاجة إلى مثل ذلك ماسّة، ولكن الباحث القدير لم يقف عند مرحلة الجمع والاستقراء بل أعمل فكره درسًا لكل مصطلح فجاء درسه عميقًا ثريًّا أفضى إلى جملة من النتائج المهمة منها أن مصطلحي (المفعول فيه، والتمييز) لم يردا في الكتاب بمدلولهما المشهور في النحو، وأنّ مصطلحي (نائب الفاعل، والمفعول المطلق) لم يردا في الكتاب؛ فهما من وضع اللاحقين، وأن المصطلحات (اسم كان، اسم ليس والأحرف المشبهة بها، المفعول لأجله، اسم إنّ، عطف النسق، بدل البداء والإضراب) لم ترد في الكتاب بهذه الصيغة ولكنها استوحيت من عبارات الكتاب، وعلل البحث للمصطلح (المفعول الذي لم يتعد إليه فعل فاعل) بأن سيبويه أدرك أن دلالة نائب الفاعل على المفعولية على الرغم من إسناد الفعل إليه، وأطلق سيبويه على اسم كان وخبرها اسم الفاعل واسم المفعول في موضع كان يتحدث فيه عن الفعل فناسب أن يطلق المصطلحين؛ لأن (كان) فعل ومن شأن الفعل أن يرفع الفاعل وينصب المفعول، وأثبت البحث أن مصطلح (عطف البيان) من مصطلحات سيبويه خلافًا لمن أنكر ذلك، وكشف البحث عن العوامل التي أوهمت بتعدد مصطلحات سيبويه واضطرابها، منها منهج التأليف عنده؛ إذ تتداخل الأبواب، فنجده يطلق مصطلح الخبر على الحال التي ترد في الجملة الاسمية فتكون خبرًا، ومن هذه العوامل تفريقه بين المجالات، فنجده يطلق على الشيء مصطلحًا حين يكون المجال دلاليًّا، ويطلق على الشيء نفسه مصطلحًا آخر في المجال

التركيبي، مثال ذلك مصطلح (الخبر) في مجال الدلالة يقابله (المبني على المبتدأ) في مجال التركيب، وأشار البحث إلى بعض استعمالات سيبويه، فقد يطلق مصطلحًا يريد به بنية اللفظ لا وظيفته النحوية، مثال ذلك أنه يطلق (المصدر) على (المفعول المطلق)، وعلى (الحال والمفعول له) حين يكون لفظهما لفظ مصدر. وبين البحث أنه قد أسيء فهم اصطلاحات سيبويه فوصفت بأنها غير مستقرة وغير واضحة؛ لأنه قد حكم على تلك المصطلحات في ضوء ما استقر عند المتأخرين، والصواب أن يحكم عليه وفاق استعمال سيبويه نفسه في كتابه، وأثبت البحث حسب قول الباحث أن سيبويه كان يستعمل مصطلحاته بوعي تام وهي مستقرة حسب استعماله لها.

قال أبو عثمان المازني: "من أراد أن يعمل كتابًا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحِ"[١].

---

(١) أبوسعيد السيرافي، أخبار النحويين البصريين، ص٦٥.

القصة القصيرة: حقيقة الإبداع

وحقيقة الإبداع أن وفق الدكتور ناصر الحجيلان كل التوفيق في تخيره ترجمة هذا الكتاب المهم في فنه، ولو عمد كل متخصص إلى ترجمة كتاب أو كتابين من أمّات كتب فنه لاجتمع لنا من المترجمات ما يثري ثقافتنا ويعمق معرفتنا، وهذا الكتاب من إصدارات نادي حائل الأدبي وهو من القطع الصغير، جميل الإخراج الطباعي أحسن اختيار ورقه ولونها وبنط طباعته، وأحسن المترجم بكتابة مقدمة تزوي للقارئ العادي جوانب الكتاب وكان صادقًا في تنبيهه إلى أن فهم المعلومات الواردة فيه يتطلب إلمامًا بالقصص والروايات والمؤلفين، والكتاب ثمرة قراءات واسعة لعدد هائل من الأعمال وما كتب عنها من نقود، كل ذلك يصوغه المؤلف باقتدار جعل الكتاب بالغ الأهمية في رصد مسيرة كتابة القصة القصيرة، ومن هنا نحس أهمية ما أنجزه المترجم النابه؛ إذ نقل لنا الكتاب بلغة سهلة واضحة على درجة عالية من السلامة اللغوية وتكاد تندر الأخطاء الطباعية، ولكن شغفي بالسلامة اللغوية العالية ربما وقفني على استعمالات أرى غيرها أولى منها، وأرى أني قد أصوغ بعض الجمل صياغة مختلفة أراها أدنى إلى طريقة العربية الفصيحة، وما وقفت عليه في هذا الكتاب أقف عليه في كتب أخرى، بل أجده في الرسائل العلمية المتخصصة بالنحو والصرف، ومن ذلك قول المترجم "ويُعدّ هذا الكتاب من المؤلفات المرجعية للطلاب والباحثين في حقل الأدب والنقد؛ نظرًا لما يحويه من معلومات أساسية تتعلق بهذا الفن"، فحذف الكلمتين (يُعدّ، نظرًا) أولى في نظري. وكذا قوله "فإن القصة القصيرة هي الوسيلة الأفضل للتعبير عن رؤية الروائي بدرجة تفوق الرواية"، يظهر فيه وصفه المؤنث (الوسيلة) بالمذكر (الأفضل)، والصوب

(الفضلى)، ويمكن أن يستبدل بالوسيلة الأفضل (أفضل وسيلة) كما يحسن أن يستبدل بلفظ (بدرجة) غيرها فتكون العبارة "للتعبير عن رؤية الروائي تعبيرًا تفوق به الرواية". ومما يكثر في هذا الكتاب وغيره استعمال يكاد يتواطأ عليه الكتاب المحدثون حتى صار سمة من سمات كتابتهم؛ ولكني أتوقف فيه وأرده، وهو استعمالهم للمركب "على الرغم من...إلا أنّ..." ونظيره المركب "ومع أنّ... إلا أنّ"؛ وذلك أن الجار والمجرور الذي بدئ به ذكر بلا متعلق وهذا إلغاء لوظيفته، وكذلك لا ندري ما الذي تستثني منه (إلا)، ومثال الأول ما جاء في ص٨٣ "على الرغم من اتفاق نقّاد الأدب ومؤرخيه على أنَّ القصة القصيرة قد مرت بمرحلة من التغيرات حتى منتصف القرن الثامن عشر، وبخاصة في أمريكا، إلا أن طبيعة ذلك التغير لم تحدد أبدًا"، يمكن القول "على الرغم من اتفاق نقّاد الأدب ومؤرخيه على أنَّ القصة القصيرة قد مرت بمرحلة من التغيرات حتى منتصف القرن الثامن عشر، وبخاصة في أمريكا، لم تحدد طبيعة ذلك التغير أبدًا" ويمكن القول "اتفق نقّاد الأدب ومؤرخوه على أنَّ القصة القصيرة قد مرت بمرحلة من التغيرات حتى منتصف القرن الثامن عشر، وبخاصة في أمريكا، ولكن طبيعة ذلك التغيرلم تحدد أبدًا"، ونظير ذلك في ص١٠٨ "وعلى الرغم من معرفتنا القليلة عن شخصية (روديريك) شبه الواقعية، فإننا نعرف أنه فنان رسام" والصواب عندي حذف (فإننا)". ومن أمثلة التركيب الآخر الذي أشرت إليه ما جاء في ص٤٧ "ومع أن هناك عناصر قوطيّة في حكاية (ديفو) إلا أنّ السرد القوطي الحق كان له تأثير قويّ لاحقًا"، والصواب عندي أن يقول "ومع أن هناك عناصر قوطيّة في حكاية (ديفو) كان للسرد القوطي الحق تأثير قويّ لاحقًا". كتاب جدير بالقراءة.

اللغة الشعرية عند النحاة

هذا عنوان كتاب للنحوي المبدع الأستاذ الدكتور محمد عبدو فلفل، وهو عنوان قد يوهم القارئ أنه يتحدث عن لغة النحاة في كتاباتهم وما فيها من شعرية، وليس الأمر كذلك؛ فالنحاة لا يحسنون الكتابة الأدبية الشعرية، وهو قد يوهم بأنه دراسة للغة الشعر على نحو ما فعل نحوي شاعر مبدع هو الأستاذ الدكتور محمد حماسة عبداللطيف الذي درس لغة الشعر دراسة نحوية رصينة. وغاية هذا الكتاب معالجة مقولة شائعة بين الناس وهي أن النحاة اعتمدوا في تقعيدهم على الشعر في المقام الأول فقدموه على القرآن وغيره من النصوص النثرية. إذن الكتاب دراسة لموقف النحويين من الاستشهاد بالشعر. وقد مهد المؤلف ببيان مفهوم الشاهد عندهم، إذ يتسم بأنه لا يتجاوز عصر الاحتجاج أي منتصف القرن الثاني الهجري، والسمة الثانية أن تبنى القاعدة على ذلك الشاهد فإن لم تبن عليه فهو مثال لا شاهد، والسمة الثالثة أنه لا يؤول بما يخالف القاعدة. ولا شك أن النحويين عنوا بالشاهد الشعري ولكنهم بنوا بعض أحكامهم عليه لا كلها، وقد ميزوا تمييزا واضحًا بين لغة الشعر ولغة النثر، على أن موقفهم من الشعر موقف طبيعي؛ إذ رافق ظهور النحو علوم دينية كان الشعر سندها الأول، وقد رشحت بنية الشعر نصه للحفظ في غياب تدوين النصوص النثرية، ولكن كتب النحويين وإن حفلت بأبيات الشعر فليست كلها للاستشهاد؛ فهذا كتاب سيبويه في معظم أبوابه تبنى القاعدة فيه على الآيات القرآنية ثم يورد البيت ليمثل به ولا يستشهد. وقد يؤتى بالبيت لشرح لفظ، ومعنى ذلك أن النثر، وبخاصة القرآن، كان هو أساس التقعيد

لا الشعر، ولعل الذي جعل للشعر كل هذا الحضور في كتب النحويين اهتمامهم برد ما شذ منه وما خالف القواعد بتأويله والتماس التقدير لاستعماله ليحال دون اتهام الشاعر بالخطأ، وما القول بالضرورة الشعرية سوى الباب الواسع لاستيعاب مخالفات الشعراء لقواعد العربية. ويتضح موقف النحويين من الاستشهاد بالشعر من جملة أمور أولها جعلهم حدودًا زمانية ومكانية لهذا الشعر المحتج به، فإن ورد لدى النحوي من الشعر ما هو خارج ذلك النطاق فهو للتمثيل أو للتأويل، والأمر الثاني أن المتقدمين منهم استشهدوا بأبيات مجهولة القائل لأنهم لم يهتموا بنسبتها، ولا يطعن هذا في الاستشهاد بها فليس من أصولهم ترك الاحتجاج بالمجهول القائل، والأمر الثالث موقفهم من تعدد روايات البيت الواحد، فهذا التعدد لا يطعن في حجية البيت؛ لأن رواية الشاعر شاهد، ورواية الرواة شاهد آخر بلغتهم، ويستثنى من ذلك ما ثبت تغييره لنصرة قول أو لإصلاح لفظ، فكان أن رفض الاحتجاج به. والأمر الرابع أنهم لم يكتفوا بالشاهد الشعري وحده بل لابد أن يؤيد بسماع نثري، وهذا يدفع قول بعض المحدثين أن النحويين خلطوا لغة الشعر بلغة النثر. والأمر الخامس أن قول النحويين بالضرورة الشعرية يعني أنه ليس كل ما جاء في الشعر يمكن أن يقعد عليه، وقد نصوا على ظواهر لا يجور أن تقبل في النثر وإن قبلت في الشعر ضرورة.

اللغة العربية هوية وانتماء

أحسن أستاذنا عبدالله بن حمد الحقيل في تخير هذا العنوان لكتابه وهو عنوان أول مقالات الكتاب التي تدور في هذا الفلك فهو يهتم بشأن (اللغة العربية بين الماضي الحيّ والغد المنشود)، مبينًا (فطرية ارتباط الأمة بلغتها)، فلغتنا (العربية لغة الضاد)، و(اللغة ذاكرة الأمة ومستودع تراثها)، ومن هنا يأتي (واجبنا نحو إحياء التراث اللغوي)، لأن (العربية الفصحى عنوان نهضة الأمة وشاهد عزتها)، ولأن (الفصحى رباط وحدة الأمة وأداة ارتقاء العلم والحياة والثقافة) تظهر (أهمية العناية باللغة العربية وإبراز خصائصها) منذ نزل بها (القرآن الكريم المعجزة اللغوية الخالدة)، وهو ما يعزز (أهمية ترسيخ لغة القرآن في نفوس الشباب)، و(أهمية العناية بالدراسات اللغوية)، وإبراز (البيان الإبداعي للغة العربية)؛ لأن (إضاعة اللسان تعني إضاعة الذات). وإنّ (الفصحى قضية أمة فلنحافظ عليها) فـ(لا تشوهوا جمال اللغة ونصاعتها)، و(ليكن الحفاظ على سلامة اللغة هدفًا وغاية)، وأي حفاظ (الحفاظ على اللغة في عصر العولمة)، وإنَّ (وسائل النهوض باللغة العربية وتيسير قواعدها) يبدأ بالنظر في (الفصحى وتحديات الاستخدام المتهالك للغة العامية) وهو ما يقتضي تقصير (المسافة بين الفصحى والعامية) ومعالجة وضع (اللغة العربية الفصحى بين اللهجات والعامية)، وكذلك النظر في (اللغة العربية وطوفان المصطلحات والكلمات الأجنبية)، وهي موضوعات نوقشت جوانب منها في مهرجان (اللغة العربية ومواكبة العصر) الذي كان من أهدافه أن تظهر أهمية (اللغة العربية واستيعاب مستحدثات العصر ومخترعاته)، و(أهمية تعريب المصطلحات العلمية) والالتفات إلى (معجمات اللغة العربية ومادتها وأعلامها)، ويتصل بهذا

قضايا (اللغة العربية ومناقشة دعوى صعوبة النحو). ولعل هذه القضايا من جملة ما يقال (في مجمع اللغة العربية وخدمة الفصحى) وإن من وسائل العناية بهذه اللغة الخالدة استغلال (وسائل الإعلام وأثرها في تنمية اللغة العربية والرقي بها)، ومن ذلك إدراك (أهمية تفعيل احتفاء هيئة الأمم المتحدة بلغة الضاد علميًّا) الذي هو استمرار لمنزلة (اللغة العربية في عيون العلماء والأدباء والمستشرقين)، والرجاء أن تكون بلادنا في مقدمة البلدان العربية التي تهتم بالعربية؛ إذ (مركز الملك عبدالله الدولي لخدمة اللغة العربية خطوة رائدة للنهوض بلغة الضاد) نرجو أن يوفق لما يؤمل منه.

هذا الكتاب الذي أدرجتُ عناوين مقالاته بين الأهلّة أعلاه، وأهداه أستاذنا "إلى أبناء اللغة العربية لغة الدين والقرآن والتراث العلمي التليد، وإلى حماة الفصحى والقوامين عليها" هو جملة من الصرخات والنداءات التي يرددها عشاق العربية المعنيون بشأنها المدركون ما يلمّ بها من مخاطر وما ينالها من أهلها من الهجر والعقوق الذي لا مفسر له سوى الضعف العام في الأمة العربية خاصة والأمة الإسلامية عامة.

قدم لهذا الكتاب أ.د. حمد بن ناصر الدخيل تقديمًا رائعًا جاء فيه "وكتاب (اللغة العربية هوية وانتماء) للأستاذ الأديب عبدالله بن حمد الحقيل، يصدر في وقت تعاني فيه لغة القرآن الكريم وضعًا صعبًا، تقف فيه موقف الصراع والمدافعة ضد لغات وافدة ولهجات غازية. وقد أحسن في اختيار موضوعات الكتاب، وانتقائها من موضوعات كثيرة، حيث اتجه إلى تناول عدد غير يسير من أوضاع اللغة العربية وقضاياها المعاصرة التي ينبغي أن يعالجها حماة العربية، والغيورون عليها،

والمتخصصون في علومها"، وبقي أن نتقدم بالشكر للأستاذين المؤلف الحقيل والمقدم الدخيّل.

المعجمية في رسالة علمية

يكتسب الكلام عن المعجمية أهمية بالغة حين يكون موضوع رسالة علمية جادة كرسالة الدكتور عبدالله بن عيسى الفضيّخ التي أعدها عن الصناعة المعجمية، وأدار الحديث فيها ببراعة وعمق واستقصاء حول محتوى معجم محيط المحيط للبستاني، ومن يطلع على المعجم بطبعته التي طبع بها تستولي عليه الدهشة لصبر هذا الباحث على قراءته كلمة كلمة بل قراءة كتب كثيرة أهلته ليعالج موضوعًا كهذا الموضوع.

جاء معجم البستاني ليصل ما انقطع من سلسلة المعاجم العربية التي شهد لها علماء اللغة بالتفوق في غزارة مادتها وتنوع طرائق مداخلها، فهي معاجم ألفاظ ومعاجم معان ومعاجم أبنية، صنفت حسب مخارج الأصوات أو حسب جذورها ابتداءًا بأول جذر أو بآخر جذر، وكان آخرها المعجم الموسوعي تاج العروس للزبيدي الذي هو في ظاهره شرح للقاموس المحيط للفيروزآبادي؛ ولكنه باستفاضته واستيعابه ونقده صار أصلًا، وأراد البستاني أن يتابع عمل الرجلين بشيء من الاختلاف أملته ظروف العصر ومتغيرات الأحوال، فجاء معجمه مستوعبًا مادة القاموس مع إضافات من مصادر مختلفة أفاض الباحث الفضيّخ في ذكرها في الفصل الأول لينتقل في الفصل الثاني إلى وصف عمل البستاني في معجمه، فبيّن آلية الترتيب الخارجي عنده للألفاظ المتنوعة التي منها العربي الخالص والدخيل والمعرّب، ثم الترتيب الداخلي في مدخل كل مادة، والترتيب الداخليّ للمدخل أمر لم تكن المعاجم العربية التراثية تراعيه بل كانت تسوق المادة بما يشبه الركام من غير ترتيب، وأمر الترتيب هذا من جملة ما يشترط في المعجمات الحديثة، وليس يقل

عن الترتيب الخارجي والداخلي أهميةً طرائق التعريف لتلك المداخل والمعلومات المساعدة لتلك التعريفات، وهذا الأمر كان موضوع الفصل الثالث من الرسالة، وبعد أن استوى للباحث من أمر البحث ما كشف له جوانب العمل وتضاعيفه عاد، بعد بيان حسناته، ليبرز ما اعتور هذا العمل البشري من أوجه النقص ومن عيوب، على الرغم من براعة صاحبه وقدرته الفائقة في انتاج معجم بهذا الحجم والكيفية، فجاء الفصل الرابع بيانًا لما نال هذا المعجم من النقد، فبيّن الباحث النقود المنهجية في مستوى جمع المادة اللغوية، ثم بيّن ما شاب الترتيب خارجيًّا أو داخليًّا من خلط أو اضطراب، ثم ما نال التعريف من تقليدية أو غموض أو سطحية أو تكرار، أو استطراد وفضول وحشو، وختم الباحث هذا الفصل بتأثير هذا المعجم في المعاجم التي تلته.

لم يكن الباحث وهو يعالج أمر هذا المعجم منكفئًا على المعجم وحده، بل هو معالج لمشكلة المعجمية نفسها، فالقارئ لهذا العمل يخرج بفيض من الدرس المعجمي التنظيري الموازي للدرس التطبيقي المتصل بهذا المعجم الذي هو علامة في التراث المعجمي العربي.

المعجمية اليوم قفزت في ظل الثورات التقنية قفزات تجاوزت الطرائق القديمة وأصبح الأمر بحاجة إلى مؤسسة ضخمة عملاقة تضم من الرجال المتقنين أعمالهم كالدكتور الفضيخ ليؤسسوا معجمًا عربيًّا تفاعليًّا على غرار المعاجم في اللغات الأوربية كاللغة الفرنسية، حيث يتكيف المعجم بضربة مفتاح ليلبي حاجة المتلقي وفاق عمره أو غرضه أو تخصصه، وهذا المعجم هو ما كان موضوع ورشة شهدتُها في مدينة الملك عبدالعزيز للتقنية عقدتها بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة

والعلوم، ومنذ ذلك الوقت لا أعلم أمر ما سمي بالمعجم التفاعلي؛ ولكن من يزر موقعه على العنكبيّة ينقلب إليه البصر حسيرًا؛ إذ لا يراه سوى محرك بحث دون المستوى المأمول.

تحية من القلب للدكتور عبدالله بن عيسى الفضيّخ لإنجازه الرائع الرائد، والشكر لزميلنا الدكتور خالد بسندي الذي أشرف على الطالب وعمله فأحسن الإشراف، وفق الله الجميع لما فيه خدمة العربية وأهلها.

الواجب وغير الواجب في كتاب سيبويه

الواجب ما يراه المتكلم ثابتًا وقوعه أثناء تكلمه أو قبله أو يعد بوقوعه، وغير الواجب ما لم يقع أو جهل وقوعه، وبهذا المضمون جاءت رسالة الماجستير (الواجب وغير الواجب في كتاب سيبويه) التي أعدتها الطالبة القديرة أفراح بنت علي المرشد بإشراف الأستاذ العلامة الدكتور عزّالدين محمد المجدوب في جامعة القصيم. وتكتسب هذه الرسالة أهميتها من دقة عنوانها ولطفه، فهو يعالج معاني الكلام وتصنيفه في المقام الأول، ومن كونها تعالجه في كتاب سيبويه الذي هو أول مدونة نحوية في العربية ظلت قطب اهتمام الدارسين إلى يومنا هذا، وما زالت مادته مدهشة آخذة بألباب أهل العربية، يتعرفون فيها ما لم تخلق جدته على توالي القرون، وإنها شجاعة بالغة من الباحثة أن أقدمت على ركوب البحر حسب تعبير المبرد؛ ولكن لا غرابة إن كان ربّان سفينتها عالِمًا قديرًا هو عزالدين المجدوب.

تألفت الرسالة بعد مقدمتها من ستة فصول، أولها كان عن الواجب وغير الواجب عند اللغويين العرب المحدثين، وهو فصل أريد له أن يكون تمهيدًا للموضوع، ومن هنا كان يحسن به أن يصاغ على نحو مختصر وأن يسمى تمهيدًا؛ إذ لا ينبغي لموضوع في كتاب سيبويه أن تبدأ أول فصوله بما ليس منه، وأما الفصل الثاني فكان عن الواجب في كتاب سيبويه استعرضت فيه الباحثة في جملة مباحث: مفهوم الواجب وغير الواجب، ثم الجملة الاسمية وما يدخل عليها من النواسخ الحرفية والفعلية، وكذا الجملة الفعلية، وفي الفصل الثالث عالجت غير الواجب في كتاب سيبويه، فتناولت تراكيب الأمر والنهي، والقسم، والدعاء، والتحذير والإغراء، والاستفهام، والتمني والرجاء، والشرط، والنفي والتقليل، وأما الفصل

الرابع فيعالج تراكيب تكون واجبة أو غير واجبة كالقسم في الخبر، والاستثناء، ثم يأتي الفصل الخامس ليستقصي تراكيب سكت سيبويه عنها، فلم يصنفها في الواجب أو غير الواجب، مثل التعجب، والمدح والذم، وأما الفصل السادس فعقدته الباحثة عن الواجب وغير الواجب في نماذج من المصنفات النحوية بعد سيبويه، وهذا على أهميته هو انديا ح لدائرة البحث تتجاوز إطار المدونة إلى تلمس أثرها المشهود في مصنفات اللاحقين الذين هم عيال على الكتاب، ولكنها اقتصرت على أعمال شديدة الاتصال بالكتاب لا مندوحة لها عن ترداد مقولة سيبويه، فهي إما شرح للكتاب كما هو في شرح السيرافي، أو تعليق عليه كما في تعليقة الفارسي، أو إعادة صياغة لمضمونه كما في مقتضب المبرد الذي هو اقتضاب للكتاب حتى إن الدكتور عبدالخالق عضيمة رحمه الله أثبت في حواشي تحقيقه للمقتضب نصوص الكتاب، وكتاب الأصول لابن السراج هو ترتيب للأفكار الواردة في الكتاب، أما سر الصناعة فهو توسيع لآخر أبواب الكتاب وهو باب الإدغام، على أن هذا الفصل ظهر كأنه من الفضول؛ ولكنه يصلح أن يكون مختصرًا في الخاتمة، فالإشارة إلى مضمونه تغني عن التفصيل الذي ضخم الرسالة، وبينت الطالبة القديرة أن مفهوم الواجب وغير الواجب أنسي أمره عند اللاحقين الذين أهمّهم أمر السلامة اللغوية والبراءة من اللحن، فكان الاهتمام بالإعراب من أوضح أغراضهم، وصار تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء هو السائد عندهم، ودعت إلى العودة إلى مقولة سيبويه في الواجب وغير الواجب؛ ولكن ما اتصفت به مقولة سيبويه من غموض وما اتصفت به المقولة المتأخرة من وضوح هو ما أجاء المتأخرين إلى ترك مقولته على جلالها وقدرها.

١٠٢

اتصفت رسالة أفراح بالوضوح الذي هو شرط من أهم شروط العلم، واتصفت بدقة التعبير وسلامة اللغة، وهي في نظري في مستوى رسائل الدكتوراه إن لم تتفوق على كثير منها.

تدليس ابن مالك

يُرَوّعك هذا العنوان الذي تخيّره الأستاذ القدير أبوقصيّ فيصل بن عليّ المنصور لكتابه؛ ولكنه يَروعك متى شرعت تقرأ مقدمته وأخذك بأسلوبه الساحر، وبيانه الباهر، وحسن تخيره ألفاظه، وجمال سبك عباراته التي تجافت عن ترهل جمل المحدثين، واحتذت سمت المتقدمين؛ فكأنه قادم من العصر الرابع أو قبله، جمله قصيرة آخذ بعضها بحجز بعض مؤلفة منظومة رائعة تنسيك جفاف النحو وثقل معالجة العلوم الجادّة.

وليس أمر بيوت ابن مالك التي نثرها في أعماله الغزيرة وجهوده العلمية التي تلقاها الناس بالقبول بخاف كل الخفاء عن أفذاذ العلماء؛ بل رابهم من أمرها ما راب غير واحد من أبناء عصرنا هذا(١)؛ ولكنّ لفضل الرجل ومكانه ما درأ عنه التصريح بالأمر.

وإني أجد فيصلًا أحسن إذ بادر إلى القول "ومعاذَ الله أن يكونَ غرضي الطَّعنَ في ابنِ مالكٍ، أو الغضَّ من قدرِه، فهو بلا شكٍّ عالمٌ جليلٌ، وركنٌ باذخٌ من أركانِ النَّحو. وقلَّ رجلٌ تعلَّم النَّحو بعدَه إلا وله في عنقِه منَّةٌ، غيرَ أن الحقَّ أكبرُ من الجَميعِ".

وليس هذا الكتاب الذي يضعه كاتبه بشجاعة بين أيدينا ثمرة تأمل عابر بل

(١) من هؤلاء جواد الدخيّل، نظرة في شواهد ابن مالك: كتاب شواهد التوضيح والتصحيح نموذجًا، مجلة الدراسات اللغوية، مج١٤، ع٢، ربيع الآخر-جمادى الآخرة، ١٤٣٣هـ، مارس-مايو ٢٠١٢م. ص٤١-٦٣. وسيأتي في ص:٢٧٨.

هو نتيجة بحث وتنقير وإحصاء ومراجعة، فهو متصف بمنهج البحث العلمي السليم في إجراءاته وخطواته، عرض لنا في فصله الأول أدلة الوضع على هدي المحققين من علماء الحديث من حيث معالجة السند والمتن، وكان من أدلة الوضع في السند التفرّد والنسبة، وكان من أدلة المتن جانباه لفظه ومعناه، وفي اللفظ كانت الإشارة إلى أن منها المولد ومنها المكررة التي تشي بتكرارها بانتمائها إلى قائل فرد، ومنها اتصافها بقلة الغريب وقلة اشتمالها الأعلام وهذا مخالف لطريقة الشعر القديم، ومنها اجتماع أمور لا تجتمع إلا في صناعة متعمدة، وأما المعنى فكان من أدلته شيوع معان بأعيانها كالمعاني الدينية، ومنها الانحصار في معانٍ محدّدة تدور فيها، ومنها رداءة بعض المعاني، وغثاثتها، ومنها ما سماه تساوق المعاني، ومنها استقلال الأبيات بالمعاني.

ولما استوى للباحث أمر فحص بيوت ابن مالك لفظها ومعناه أجاءه هذا إلى الحكم عليه في الفصل الثاني، وهو فصل قصير يبين فيه أن النظر العقلي للمسألة يفضي إلى ثلاثة أقوال لا بد فيها من التخير، فإما القول بأنّه وضعها للتمثيل لا الاستشهاد، وإمّا أنه وضعها للكذب، وإما أنه وضعها للتدليس، وأما القول الأول فيدفعه أنّ ابن مالك صرح بالاستشهاد ببعضها كما في قوله "ومن أظهر الشواهد على صحّة الاستعمال المشار إليه قول الشاعر:

ما جادَ رأيًا، ولا أجدى محاولةً   إلا امرؤ لم يُضِع دنيا، ولا دينا"

وأما القول الثاني فأبطله المؤلف بحجج غير قوية ليختار القول الثالث (التدليس)، فقال "وهو عندي الرأيُ السديدُ الذي لا يجوز العدولُ عنه". وحاول المؤلف التفرقة بين الكذب والتدليس؛ ولكنها محاولة غير مقنعة عندي؛ إذ العبرة

بما يؤول إليه الأمر بعدُ، إذ صاحب التدليس عندي أكبر ذنبًا من الكاذب؛ لأن المدلس لم يصدقني القول، ثم صرفني عن التحقق من أمر قوله.

ويعقد المؤلف فصلًا بالغ الأهمية يترتب على ما وصل إليه من كشف أمر بيوت ابن مالك، وهو الفصل الثالث، يبين فيه أثرها عند ابن مالك نفسه وأثرها في من جاء بعده من النحويين، وجعل فصلًا رابعًا هو مسرد للبيوت التي تفرد بها ابن مالك، منها ما يجزم بوضعها ومنها ما يظن بوضعها، وحقيق بهذا الفصل أن يجعل ملحقًا بالكتاب لا فصلًا من فصوله.

ختم الكاتب عمله بجملة أمور من أهمها أن عدد البيوت التي تفرد بذكرها ابن مالك فلم ترد عند أحد قبله ٦٨٨ بيت، وأن واضع هذه البيوت هو ابن مالك نفسه من غير تصريح بقائلها؛ فأوهم من جاء بعده أنها من أشعار العرب، وذكر أنَّ ابن مالك لم يبتدع بسبب هذه البيوت أحكامًا جديدة؛ ولكنّ من جاء بعده عدّوها شواهد فرجحوا بها بعض الأقوال والمذاهب؛ ولذلك دعا المؤلف إلى اطراح تلك البيوت، وأنا معه لا لأنني أوصد باب الاستشهاد أو أزويه في زمان أو مكان بل لأنّ اللغة ما انتزع نظامها من اللغة الطبيعية لا المصنوعة. وكنت اطلعت على بعض من الكتابات في العنكبية ألمت بهذا الكتاب فلم تحسن تفهم غرضه ولا اهتدت إلى مداخله، فوقعت في الكاتب لا الكتاب، ولم تقدم ما ينقض ما غزل، ولا ما يفلّ ما أبرم وفتل، وهكذا فعلوا بسلفه نعيم سلمان غالي البدري وكتاب "صناعة الشاهد الشعري عند ابن مالك الأندلسي".

إن كان ابن مالك أخطأ في إيهامه فمعاصروه أخطأوا في توهمهم أيضًا، فما من رجل منهم راجعه في أمر تلك البيوت ونسبتها، وأولهم وأولاهم ابنه بدر الدين

الذي انبرى لشرح خلاصته واستكمال ما نقص من تأليفه، وهو أمر لا ينتهي منه العجب.

عروبة اليوم

أسعدني زميلي الحبيب الدكتور عبدالعزيز السبيل بهديته القيمة، نسخة من كتابه (عروبة اليوم). استوقفني أول الأمر عنوان الكتاب، بحثت في محتويات الكتاب لعله عنوان مقالة هنا أو هناك؛ ولكني لم أجد، وقلت لعل المؤلف أراد أن يُقرأ الكتابُ كلُّه لتُعرف قصةُ العنوان، وذكرني هذا بالتمييز الذي منه تمييز ملفوظ، ومنه تمييز ملحوظ. والذي يقرأ العنوان الرديف للكتاب وهو (رؤى ثقافية) ربما يستشف منه أن هذه الرؤى تبين في مجملها تصور المؤلف لعروبة اليوم التي لعلها تختلف عن عروبة الأمس القريب أو البعيد. وحين قرأت عنوانات الرؤى التي وصفها بأنها متناثرة رأيتها تحتفي بالشخصية الحاضرة الفاعلة، فكان الحديث عن شخصية المكان بما يمثله من حدث ثقافي أو بُعد تاريخي، وكان الحديث عن أعلام كتبوا أسماءهم بخطوط من نور بما أثّروا في حياتنا الثقافية والعلمية وبما أثْروا تلك الحياة فسكنوها وإن فارقَنا منهم من اختاره الله إلى جواره. كتب عن الأماكن: بغداد، والجزيرة العربية، واليرموك، وسوسة، وألمانيا، والجنادرية، وكتب عن الغذّاميّ، والحازميّ، والحُمَيدين، وغازي القصيبيّ، وحمد الجاسر، والأخضر الفاتح، وعزيز ضياء، وعبدالله عبدالجبار، وفؤاد سزكين، وأبومدين، وخيرية السقاف، وعبدالعزيز بن باز، ومحمد الدرة، والجواهريّ، ونزار. وإلى جانب هذه الرؤى المتعلقة بشخصية المكان أو الإنسان نجد رؤى لامست أهم قضايا الإنسان العربي فوجدنا الحديث عن الواقع الثقافيّ، وثقافتنا والعصر، والثقافة بين الإدارة والإعلام، والفعل الثقافيّ والسرد الشفويّ، وإسلاميّة الأدب وإنسانية الإبداع، والأدب وآفاقه العالمية، والنشاط الثقافيّ والجمهور، وكتب عن أهمية المكتبة العامة وكتب عن الترجمة من

حيث هي خيانة للنص، وكتب عن فكرة إنشاء مجمع للغة العربية في بلادنا، وعن المناهج وتعددية الآراء، ومجلس الشورى وعدوى الانتخاب، وعن المرأة والتحولات الاجتماعية، وعن العيد أوصل هو أم قطيعة، وعن ١١سبتمبر.

قد يتوقف القارئ في بعض التفاصيل الدقيقة التي يصادفها في بعض المقالات، ولكن الأمر الجليّ هو هذا الوضوح في الرؤية والطرح الصريح الذي لا يعرف الجمجمة ولا يلجأ إلى المواربة، وقد أعجبني رأيه في المجامع العربية وأن تعددها يعاند الغرض من المجمع نفسه، وأما ذهابه إلى أن رأي المجمع يحتاج إلى قرار سياسي فهو رأي صحيح إن كُفل له النفاذ، ولكنْ؛ مَن يتخذ القرار السياسي ونحن أمة لا يحكمها قرار واحد؟ بل إن القرار السياسي في البلد الواحد قد لا يُكفل له النفاذ، وأعجبني ما كتبه عن الأدب الإسلاميّ.

والكتاب مطبوع طباعة رائعة تخير لها أحسن ورق وأخرج إخراجًا يشد القارئ لقراءته، وهو بحق جدير بالقراءة التي أرجو أن تكون سمة لعروبة اليوم.

قراءة في كتاب اللغة العربية في عصر العولمة

(١)

هذا كتاب قدمه أستاذنا الدكتور أحمد بن محمد الضبيب، حلقة في سلسلة من جهوده المتتابعة في خدمة اللغة العربية والذود عنها والدعوة لها. وعنوان الكتاب هو عنوان أول مطالبه (اللغة العربية في عصر العولمة) نشرته في طبعته الأولى مكتبة العبيكان في الرياض عام ٢٠٠١م، وجاء في ٢٢٤ صفحة من القطع الصغير.

وكلمة (عصر) الواردة في العنوان مشترك لفظي؛ إذ هي دالة على الزمان، أو هي دالة على الحدثان، فإن تكن الأولى فالكلام عن حال اللغة العربية في زمن سيطرة العولمة، وإن تكن الآخِرة فالكلام عن حال اللغة العربية التي تعصرها العولمة كما تعصر كل مقومات الأمة حتى لا تبقي منها شيئًا.

اللغة العربية في عصر العولمة

ضرب الدكتور تركي الحمد في كتابه (الثقافة العربية في عصر العولمة) مثالا يشرح بلغة سهلة واضحة معنى العولمة، فذكر مباراة كرة القدم وكيف أنّ كل ما يتعلق بها صار أمرًا متفقًا عليه في كل بلاد الدنيا من حيث عدد اللاعبين وملابسهم والقوانين الحاكمة لإجراء اللعبة والمرجعية الموحدة المنظمة للمباريات القارية والعالمية، وانتهى من ذلك إلى أنَّ العولمة هي توحّد العا لم في كل المجالات[1]. وما يقال عن الرياضة يمكن أن يقال عن السفر بالطائرات وما يتصل به من إجراءات واتفاقات والتزامات ذات صفة دولية ليس من السهل أن تعاندها دولة

---

(١) توفيق الحمد، الثقافة العربية في عصر العولمة، ص ٨.

من الدول. وكذلك طرائق العلاج في المستشفيات الحكومية والخاصة تجدها متماثلة في دول العالم أو هي قريبة من ذلك التماثل، ولذلك صار من السهل أن يتعلم الشخص الطب والتمريض في بلد ثم ينتقل ليعمل في بلد آخر.

ومن الجلي أنّ هذه العولمة لم تظهر فجأة بل كانت من نتائج احتكاك المجتمعات الإنسانية سلمًا أو حربًا، ولكن العصور الحديثة شهدت ألوانًا من التدافع والاحتكاك والتقارب والتواصل هيّأته أنظمة الاتصال الحديثة التي ألغت المسافات المكانية والزمانية؛ إذ صار بالإمكان أن يرى من هو في قرية من قرى الجزيرة العربية ما يحدث في أمريكا أو غيرها من البلدان النائية بعد أن كان في الزمن الماضي يولد الإنسان في مثل تلك القرى ويموت وهو لم يسمع بأمريكا كلها. يقول تركي الحمد "كما أنّ العولمة ذاتها التي تبدو وكأنها قد فاجأتنا في عالم الغرب ليست ظاهرة معاصرة مفاجئة بقدر ما هي ظاهرة تاريخية حديثة منذ بزوغ الرأسمالية في مراحلها التجارية، ومن الثورة الصناعية في أوربا؛ فالرأسمالية واقتصاديات الإنتاج الوفير الذي حققته الثورة الصناعية، لا يمكن لها أن تستمر وتزدهر إلا إذا كانت ساحتها هي العالم كله. فالإنتاج وإعادة الإنتاج لابد في النهاية أن يدخل كل العالم إلى حركة الدولاب المستمرة، وعلى مختلف الأصعدة؛ فالآلة تخلق ثقافتها، كما أن السلعة تفرز أخلاقها. وفي هذا السياق يمكن وضع مقولة ماركس (إنّ البرجوازية تسعى لخلق عالم على شاكلتها) في موقعها الصحيح. وعلى ذلك يمكن القول إن التداخل بين الثقافات كان دائمًا موجودًا لدرجة أن يصبح النبيذ الفرنسي، مثلًا، طقسًا ثقافيًّا أفريقيًّا (أصيلًا) ناهيك عن الملابس والإيتيكيت والذوق العام والدين واللغة

والأسماء، والشيء ذاته بالنسبة لمجتمعات أخرى"[١]. ولكن العولمة كما بيّن أستاذنا الدكتور أحمد الضبيب هي هيمنة دول الشمال المتقدمة على دول الجنوب النامية أو المتخلفة بفرض شروط اقتصادية وسياسية وثقافية. ومن هنا تأتي الخطورة التي تعاني منها الأمم النامية أو المتخلفة فهي مهددة بالذوبان والاندغام في غيرها اندغامًا يذهب بخصائصها ويهدر تاريخها ويغير معالمها ويجعلها على هامش غيرها ملحقة به تابعة كل التبعية، منه تأخذ قراراتها وتتصرف وفاق أهوائه وتلبية لرغباته.

ولما كانت اللغة من أهم مكونات هُوية الأمّة كما قرر أستاذنا حُقّ له أن يتساءل كما يتساءل كل غيور: هل تواجه اللغة العربية تحديًا في عصر العولمة؟

(٢)

على الرغم من أن العربية واجهت في ماضيها تحديات نجحت في التغلب عليها تواجه في العصر الحاضر تحديات شرسة بسبب غلبة المصالح المادية والتأثير الإعلامي والتبشير بأن اللغة الإنجليزية لغة عالمية.

وليست الإنجليزية عالمية في استعمال الشعوب؛ بل هي لغة الاتصال العالمي بلا منازع، وبهذا يرى أستاذنا أنّ الحاجة إليها إنما هي اتصالية فقط، فهي تعني بعض أفراد المجتمع لا كلهم، ويرى أن التحدي الذي يواجه اللغة العربية يخلقه المجتمع العربي نفسه، ويتجلى ذلك في المبالغة في أهمية اللغة الإنجليزية والتوهم بارتباط التقدم بإتقان هذه اللغة والتخاطب بها بين أفراد المجتمع، ويفهم من قوله أننا نسعى بوعي أو من غير وعي إلى أن نبدل بلغتنا لغة أخرى، ويضرب أمثلة

---

(١) توفيق الحمد، الثقافة العربية في عصر العولمة، ص ٢٠.

متعددة لهذه الهجنة التي تسللت إلى لغة الخطاب اليومي، ومنها ألفاظ حضارية اجتلبت مع منتجات التقنية المستهلكة، وعلى الرغم من وجود ألفاظ عربية تغني عنها وتسد مسدها تركت الكلمات العربيات واستعمل الأجنبي لا لشيء سوى ولعهم به، وتوهمهم الرقي والثقافة حين تلوك ألسنتهم تلك الألفاظ وحين يطرزون بها كلامهم. ومن مظاهر ذلك الاستلاب مجاهرة المحلات والشركات بكتابة لافتاتها باللغة الأجنبية، بل إن معاملاتها ومخاطباتها للعرب وغيرهم بتلك اللغة الأجنبية، ومن إحكام السيطرة أن اشترطت إجادة اللغة الإنجليزية للعمل وهو أمر حال دون عمل المواطن أو أجبره على تعلم لغة غير لغته ليعمل في وطنه. وما ذكره أستاذنا شهدته أنا حين تقدم ابني للعمل في مكتب عقاري أعلن عن وظائف للشباب وكان من شروط العمل أن يجيد المتقدم اللغة الإنجليزية.

وكان أن فتح هذا الشرط باب استقدام العمالة الخارجية لتختل بهذا التركيبة السكانية ولتحدث أزمة لغوية؛ إذ على المواطن أن يجد طريقه للتفاهم مع غير العرب إما بالإنجليزية وإما بعربية مكسرة كانت نتيجة محاولة الغرباء تحدث العربية.

وكان من أثر تضخيم الإعلام لأهمية الإنجليزية أن دعي إلى تعليمها للأطفال، وهو أمر يشبه تتريك التعليم أيام العثمانيين أو النجلزة والفرنسة أيام الاستعمار الأوربي، والفرق بين الحالين أنا نفعله الآن بأنفسنا منقادين.

وانتقل أستاذنا إلى بيان أثر البعد الاجتماعي للغة التعليم وإن تكن علمية؛ إذ لها خلفية ثقافية قد لا يدركها المتعلم، وبيّن أن اللغة القومية أفضل لغة يتلقى بها الإنسان علومه مؤيدًا هذا بما جاء في دراسات مختلفة أظهرت نتائجها أن فهم الطلاب للعلوم قد احتل بسبب تعلمهم بغير لغتهم القومية، ولفت الانتباه إلى أن

الدول المتقدمة لا تعلم بغير لغاتها، وبيّن أن الإبداع والمشاركة في صنع الحضارة لا يكون بتقديس الإنجليزية بل بتوطين العلوم والتقنية وتعريبها. وانتهى إلى أن الاعتزاز بالعربية لا يكون بالكلام بل بالعمل الجاد من إحلالها محلها من نفوس الصغار والكبار وجعلها لغة العمل والصناعة والتجارة، وهذا لا ينفي أهمية الإنجليزية بل يضعها موضعها الصحيح الذي لا يجور على اللغة القومية. وأما منتجات العولمة فيمكن أن تستغل بذكاء لخدمة العربية وتمكينها. وختم الأستاذ ببشارة مستفادة من بحث ياباني بيّنت أن العربية من أكثر اللغات وضوحًا صوتيًا في الحاسوب، هكذا فقد نزل القرآن ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.

(٣)

في ظل العولمة:علاقتنا باللغة الأجنبية

هذا هو المطلب الثاني في كتاب اللغة العربية في عصر العولمة لأستاذنا د.أحمد محمد الضبيب. تعرض هنا بالتفصيل لمسائل أشير إليها بإجمال في المقالة السابقة، أولى هذه المسائل تعليم الإنجليزية في المرحلة الابتدائية فالأستاذ يرى أنه على الرغم من أهمية تعلمها لسنا مضطرين لخلق ثنائية لغوية في بلادنا، فالمواطن هنا كغيره في بلدان العالم يعيش من غير حاجة إلى لغة أجنبية، فإن احتاج فهذا خلل لابد من إصلاحه. واللغة الأجنبية مرهونة أهميتها بالأشخاص حسب اهتماماتهم وأعمالهم، فليست مهمة لكل أحد، ثمّ إن تعليم الإنجليزية سيصرف أبناءنا بما لها من بريق يصاحب تعليمها ووسائله عن العربية، وسيكلفنا تعليمها أموالًا طائلة. وليست اللغة الإنجليزية مطلبًا حضاريًا؛ إذ لم تطلبه الدول المتقدمة، ولا نفع اعتماده الدول المتخلفة. والجدير بالطفل ربطه بلغته القومية وثقافتها لا أن يشوش ذهنه

بالرطانات والانتماءات المختلفة. ولعلي أسمح لنفسي بمخالفة أستاذي في مسألة تعليم الأطفال اللغة الإنجليزية؛ إذ أراه مهمًا، ولا أرى فيه من الخطر على اللغة القومية ما يخشاه أستاذنا؛ ذلك أن الطفل قادر على تلقي أكثر من لغة، وأمثلة هذا واضحة في بعض صغارنا فلدي حفيدتان تجمعان بين اللغتين، ولكن الخطورة تأتي في تعليم إحدى اللغتين تعليمًا يجور على الأخرى، ولعل من الخير أن نحسن من وسائل تعليم العربية للصغار فنجمع بين الحسنيين تعليمهم اللغة القومية واللغة الثانية التي تفتح لهم آفاق التواصل العالمي بلا حدود.

والمسألة الثانية استعمال اللغة الإنجليزية في التعليم الجامعي، فالملاحظ أنه على عراقة جامعاتنا العربية مازالت تعلم الطب وغيره من العلوم التطبيقية بتلك اللغة، بل جدّ مؤخرًا نزوع كليات نظرية إلى تدريس العلوم الإنسانية بالإنجليزية، وقد كثرت جهود الباحثين المبينة أهمية نقل المعرفة باللغة القومية مستشهدين بالتجارب العالمية، آخرها إحياء اليهود لغتهم الميتة وجعلها لغة العلم والأدب والحياة، وقد بينت دراسات من جرب التعليم باللغتين من أمثال الدكتور زهير السباعي أن التعليم باللغة القومية أنجح. والرافضون لتعريب التعليم منهم الواثقون بقدرة العربية ولكنهم يخشون صعوبة متابعة مستجدات العلم ومصطلحاته، ومنهم الجاهلون بالعربية المستريحون إلى الوضع الراهن الحافظ لكرامتهم، ومنهم المستغربون الذين لا يرون غير الإنجليزية خيارًا. وحجج المترددين والرافضين واهية؛ فتعريب العلوم ليس مجرد طموح بل هو ضرورة، وليس العرب في ذلك بدعًا بين الشعوب، ولم يثبت التعليم بالأجنبية سوى الإخفاق؛ إذ لم يوصلنا إلى التقدم المنشود، وتعريب التعليم لا يعني القطيعة عن العالم ولغاتها بل يعني التفكير بلغة عربية

وتوطين العلم، وهو أمر يقتضي الوقت والجهد، ولكن تعريب التعليم أول خطوة. وأما متابعة الجديد فأمر شخصي فمن المتعلمين بالأجنبية من انقطع عن المتابعة، أما المتميزون المهتمون فيتابعون وإن كان تعليمهم بالعربية أصلا. وأما من يرى أن تعليم الطب بالعربية يضعفه فواهم، وقد أثبت الأطباء السوريون أنهم لا يقلّون عن من تعلم بالإنجليزية، وأما المصطلحات فأمر معالجتها ميسور من حيث وضعها وتوحيدها وبخاصة بعد إنشاء مكنز يوضع على الشبكة العنكبية. وتعريب التعليم إثبات وجود، ويروي أستاذنا أن ناشرًا يابنيًا قال له إنهم لا يحتاجون إلى الترجمة؛ لأن الناشرين الأجانب يصدرون باليابانية نسخًا من كتبهم، فهلا يطالب العرب بمثل هذا.

وما عالجه أستاذنا أمر جوهري؛ لأن تعليم العلوم باللغة القومية توطين للتقنية والعلوم وهذا شأن الأمم كلها قديمًا وحديثًا، فالعرب بعد انفتاحهم في القديم على حضارات العالم عالجوها بالترجمة فصار أن استوعبوها خير استعاب، واستطاعوا أن يكونوا خير وسيط لنقلها إلى غيرهم من العالم، فمنهم تعلمت أمم الغرب في العصور الوسطى، ونحن اليوم نشهد أمم الشرق الأسيوي كيف نقلت العلوم بلغتها واستوعبته وأنتجت إنتاجًا بهر العالم بل غزوا بذلك الإنتاج أساتذتهم ونافسوا الحضارات التي استمدوا منها، وما كان ذلك ليتحقق لولا توطين العلم والتقنية وتقديمهما لأبناء الوطن باللغة القومية التي يحسن استعمالها والفهم بها والصدور عن طرائقها. ولكن الخطورة البالغة في وجود مدارس أجنبية في عقر دار العرب، وهي بلا جدال مشكلة تقود إلى تهميش الثقافة القومية وهو من معززات الهيمنة الغربية أو الأمريكية بخاصة. ومما يزيد الطين بلة أن هذا التعليم الأجنبي صار يعبر

الآن عن الوجاهة الاجتماعية، وقد يكون ناتجًا من اليأس من إصلاح التعليم المنحدر في مدارسنا الحكومية والخاصة. وكان أمر التعليم الأجنبي ومخاطره من مشاغل بعض المؤتمرات التي أحس منظموها خطر ذلك التعليم، ومن هذه المؤتمرات (مؤتمر علم اللغة الثالث بكلية دار العلوم) ومن المتحدثين في ذلك المؤتمر د. بثينة عبدالرءوف رمضان التي ذكرت في بحثها (المدارس الأمريكية في مصر وأثرها علي النسق القيمي في مرحلة التعليم الأساسي) أن المدارس الخاصة التي تطبق نظامًا تعليميًّا أجنبيًّا إنما تعلم وفاق مناهج البلد التابعة له، وهي بذلك تحقق الأهداف التربوية لذلك البلد من غير مراعاة للبلد المحتضن للمدرسة، ومعظم هذه المدارس كان دخوله إلي مصر في الماضي مع الاستعمار، والمدارس التي تدرس المنهج الأمريكي هي أكثر المدارس انتشارًا في مصر. وانتهت الباحثة إلي أنّ ثمة اختلافًا ظاهرًا بين نظام التعليم الأمريكي ونظام التعليم المصري من حيث الأهداف، وهذا مؤثر في النتائج بلا جدال، ومن هذه النتائج أن دخول الأطفال الصغار في المدارس الأمريكية يؤدي إلي صراع داخل الفرد في تشكيل الهُوية. وأنّ المناهج الأمريكية تنقل القيم الأمريكية نقلًا يؤدي إلي ضعف الولاء والانتماء للمجتمع المصري. وأنّ تعلم المدارس الأمريكية يؤدي إلي إقصاء الثقافة الوطنية واللغة القومية. وتساءل د. عمر عبدالمعطي أبوالعينين أستاذ اللغة العربية بكلية التربية بجامعة المنصورة "لماذا التعليم باللغات الأجنبية في الوطن العربي؟ ما حقيقته؟ ما ضرورته؟ ما أهدافه الحقيقية؟ وما هو دور اللغة العربية إذن في منظومة المجتمع العربي إن أبعدناها ونفيناها من منظومة التعليم؟ وهل يبقي بعد ذلك أي شيء؟ لا شك أن التعليم باللغات الأجنبية في الوطن العربي يمثل تحديًا خطيرًا لمقدرات هذا الوطن

حاضرًا ومستقبلا فهو يمثل إحدى حلقات الالتفاف حول اللغة العربية للقضاء عليها إن عاجلًا أو آجلا. ولا يخفى أن قضية التعليم باللغات الأجنبية أصبحت ذات صخب وضجيج وحضور مفروض في كافة أرجاء الوطن العربي؛ لأنها تتمثل بدعاوى تخلب وتخدع، وهي أبعد ما تكون عن حقيقة ما تمثله وما تهدف إليه".

وأكد أ.د. عوض بن حمد القوزي أستاذ النحو والصرف بجامعة الملك سعود بالرياض أن "تعلم اللغات أصبح أمرًا حتميًّا في زمن لا مكان فيه للجاهل ولا مكان أيضًا فيه للضعيف؛ لأن اكتساب الثقافات صار أحد ميادين التسابق بين الشعوب، وهو دليل على حيويتها وتقدمها؛ إلا أن تلك الثقافات ينبغي أن تؤخذ بوعي وحذر وألا تكون على حساب ثقافتنا وهُويتنا اللغوية، وإلا كانت مدمرة".

وأكد د. وليد أحمد العناني أنه لا يمكن بناء مجتمع معرفة بغير اللغة الوطنية؛ ولذا فإن اللغة العربية ينبغي أن تكون لغة المعرفة استقبالًا ونشرًا وإنتاجًا. ولما كان التعليم يمثل أهم وسيلة لنشر المعرفة وتعميمها، ولما كان التعليم إنما يكون باللغة لزم أن تكون العربية لغة التعليم الرئيسية. وقد خرج المؤتمر بمجموعة من التوصيات منها إعادة النظر في مناهج مدارس اللغات وتنقيتها وبسط سيادة الدول العربية ممثلة في وزارات التربية والتعليم في الوطن العربي على مقررات هذه المدارس وأساليب التقويم فيها واعتماد درجاتها العلمية، وأن يكون للغة العربية موقع الصدارة في هذه المدارس فلا تهمل أو تحصر في زاوية ضيقة[1].

والمسألة الثالثة سيطرة اللغة الإنجليزية على سوق العمل؛ إذ يقصر القطاع

---

(١) أخذت التقرير عن هذا المؤتمر بشيء من التصرف عن الموقع العنكبي:
http://www.irbidworld.com/t70173-topic

الخاص الوظائف على المجيدين الإنجليزية، فيُقصى بذلك عدد هائل من شباب الوطن ويستقدم لها غيرهم أقل راتبًا. وإنّ ما يحتاجه القطاع الخاص من الإنجليزية شيء يسير متصل بالعلاقات الخارجية، وأشار الأستاذ إلى أن كثرة العمالة الأجنبية عزز الحاجة إلى اللغة الأجنبية وجعل هؤلاء يديرون سوق العمل مع قلة خبرتهم، لقد استوردنا البضائع الأجنبية ومن يديرها وصرنا مستهلكين نضطر للإنجليزية للتفاهم مع هؤلاء، فالمشكلة مشكلتنا والعيب فينا، خلافًا لكل بلاد الدنيا حيث يلتزم العامل الأجنبي فيها استعمال لغة البلاد. ويستحيل تعليم السعوديين الإنجليزية ليعملوا في بلادهم، وعلى الرغم من أن الدولة أصدرت جملة من القرارات للحفاظ على اللغة العربية لا يلتزم سوق العمل بها، إن وجود الأجانب لا يوجب التنازل عن سيادتنا على أرضنا التي في مقدمتها السيادة اللغوية. وليست مصلحة السوق مقتضية سيادة الإنجليزية فكل بلاد الدنيا لا ترضى بغير لغتها القومية، ويضرب الأستاذ مثالًا بدول كفرنسا وأسبانيا وألمانيا، فالسُّيّاح الأجانب يملؤون تلك البلدان؛ ولكنها لم تغير من أجلهم من لغاتها. وأما في بلادنا فاللغة الأجنبية تتمدد في سوق العمل "تنهش هُويتنا وتهزأ بوجودنا". وما يثيره أستاذنا هنا هو استسلام المنتفعين المتنفذين إلى ما يحقق لهم الربح الوفير بأقل التكاليف إذ إدارة مثل هذه الأعمال هي نسخ من إدارتها في البلاد الغربية فالبنوك والشركات ذات نظام مجتلب من الغرب، واقتضت النزعة الاستهلاكية التي استولت على المجتمعات العربية عامة، والخليجية خاصة، أن تستعمل ما تجده جاهزًا يطبقه من استقدمهم القطاع الخاص لتنفيذه بل ربما دربتهم عليه من غير أبناء الوطن، حتى صار العامل الأجنبي ينال من الخبرة ما لم ينلها في بلده، وربما كان هذا سببًا مرشحًا له أن يعمل في الدول

الغربية التي ترى من جاءها من الدول الخليجية ذا خبرة تثق بها وتقدرها. وستظل الأعمال في بلادنا مفتقرة في إدارتها لغيرها ما دام عصب العمل تمسك به اللغة الأجنبية، ومن المفارقات العجيبة أن أبناء البلاد صاروا يحتاجون إلى تعلم اللغة الأجنبية لتتاح لهم فرصة العمل في بلادهم.

والمسألة الرابعة عن اللغة الأجنبية في المجتمع، ويستنكر الأستاذ أن يكون للغة الأجنبية وظيفة في المجتمع؛ إذ كل لغة تستمد رصيدها من خبرة المجتمع عبر العصور، والاحتكاك الحضاري مؤثر في اللغة، حتى إن اللغة القوية قد تكتسح اللغة المستسلمة لضعف أهلها، واندثار اللغات مشهود في التاريخ، إما بتشجيع العاميات حتى تستقل لغاتٍ منفصلةً أو بغلبة لغة أجنبية عليها، ومن هذه اللغات المندثرة السنسكريتية والبابلية والآرامية واللاتينية، وتشير الدراسات الحديثة إلى تقلص عدد اللغات وتهديد عدد منها بالتقلص، وأما العربية فليس من السهل القطع بأمرها فهو مرتبط بوعي الأمة وحمايتها ونشرها، وأشار الأستاذ إلى أنا في سباق لا مكان فيه للمترددين، بل علينا المضي واضعين الخطط للحفاظ عليها وعلى ثقافتنا متعاملين بحذر مع غيرها من اللغات، واللغات إن احتاجت إلى شيء من الدخيل كان ذلك بضوابطه، وبيّن أن من المصطلحات ما هو علمي يمكن أن يعرّب أو يستعمل كما هو مؤقتًا، ومنها حضاري أوسع انتشارًا وأشد خطرًا يمكن أن يفسد العربية كما أفسدها في مالطا، وهذا الأمر هو ما يلزم التصدي له لتحقيق الأمن اللغوي.

والمسألة الخامسة عن علاقة اللغة الأجنبية بمقياس التقدم، أشار فيها إلى التحدي اللغوي الذي كان من جراء الحملة الفرنسية ثم ما ابتليت به بلاد العرب

من استعمار حول لغة دواوينها إلى لغة أجنبية وأنشأ طبقة تتعلق بالغرب وتزدري الشرق فكانت الفتن وفرقة الصف، ولم يكن ذلك لينجح لولا وجود متنفذين قبلوه ولولا غفلة أهلها، وكاد التعليم في مصر أن يكون بالإنجليزية لولا تصدي شعبها الأبي لذلك، ويسأل الأستاذ: هل معرفة اللغة الأجنبية منفردة سبب لتقدم الأمة؟ والجواب إنه لا تلازم، فالأمم يستفيد بعضها من بعض، ولكنها لا يتخذ لغة غيرها، وهذه اليابان تمثلت الحضارة الغربية دون أن تتخذ الإنجليزية لغة لبلادها، وهذا لا يعني قلة أهمية اللغة الإنجليزية، بل هي سلاح ذو حدين يمكن أن ينفع ويمكن أن يضر، والشأن اللغوي من أهم المواقع المحفوفة بالمخاطر لغفلة العرب عن هذا وعن أهمية الحفاظ عليه، فهو الهوية وملمح من ملامح الشخصية، وجعل اللغة الأجنبية محل العربية في التعليم والعمل اعتداء على وجودنا وعبث بكرامتنا وأمننا اللغوي.

(٤)

المصطلح العربي في عصر العولمة

هذا هو المطلب الثالث. وكان الأستاذ أشار في المطلبين السابقين إلى إشكالية المصطلح بوصفه حجة لمن يدعون إلى الإبقاء على تعليم العلوم باللغة الإنجليزية. وبعد أن أشار إلى سطوة العولمة المتعاظمة التي تسعى إلى فرض ثقافة جديدة، وأبرز مكونات الثقافة اللغة، فالعربية هدف من أهداف العولمة تزاحمها بلغاتها. ولم تعد اللغة الأجنبية تطل من الشاشة بل أخذت تطرد العربية من مواقعها، فصارت لغة الاقتصاد والعلم والطب والسياحة والإعلام، وأخطر منه تحول العربي إلى مسخ لا هو عربي ولا غربي. والأمة المغلوبة المنبهرة بغالبها أمة فانية بلا جدال،

واللغة مقوم من مقوماتها يمكن أن تضمحل، وجاءت الإشارة في المطلب السابق إلى ما حدث للعربية المالطية. ولا شك أن متطلبات الحياة الحديثة تقتضي مسايرة اللغة لها؛ ولكن ذلك لابد أن يكون من داخل اللغة نفسها، ولا يناقض هذا تعليم اللغات الأخرى للحاجة. وبين الأستاذ بشيء من التفصيل فضل العربية وقدرتها على اسيعاب العلوم، وعرض لأهمية وجود لغة علمية من حيث ألفاظها ومصطلحاتها، وعرض لما نشأ من جدل حول المصطلح في المجامع اللغوية من حيث وضعه أو تعريبه، وانتهى إلى أن الخير في الترجمة ثم العودة إلى تصويب المصطلحات في وقت لاحق، ثم وقف عند ما أثير من شبهات حول المصطلح العربي، والشبهة الأولى هي أن العربية لغة بداوة تفتقر إلى التجريد ولا تستطيع حمل المصطلحات الحضارية، أشار الأستاذ إلى بدايات الشبهة ثم ردها بأن بدائية اللغات مما سقط اعتباره، وأن اللغات تتغير وفاق حاجاتها، والعربية وفت بحاجة الدين وعلومه واستوعبت الحضارات وعلومها وعبرت عنها منتجة مصطلحاتها، والقول بالبداوة وعدم تحمل المصطلحات يكذبه التطبيق.

وأما الشبهة الثانية فهي أن العربية لا عهد لها بالمخترعات والمكتشفات الحديثة، وهو قول يشبه القول بالبداوة، وكل اللغات تخترع المصطلحات، وكيف جاز للغرب نفسه أن يضع المصطلحات، فوجود الأشياء يستدعي الاصطلاح.

والشبهة الثالثة عدم دقة المصطلحات الأصلية، وردّ ذلك بأن المصطلح لا يشترط فيه دقة استيعابه موضوعه بل دقة الدلالة عليه. ويشير إلى أن الاشتراك اللغوي وارد بين المصطلحات؛ ولكنها لا تختلط لاستعمال كل مصطلح في بابه أو فنه.

والشبهة الرابعة هي أن لغة العلم لغة عالمية، واستنكر الأستاذ وصفهم كل آت من الغرب عالميًّا مع أنه محليّ، وبيّن أن هناك ما هو عالمي يمكن التزامه، وهناك ما تختلف اللغات في التعبير عنه، هذا من حيث المصطلح العلمي، أما الحضاري فالأولى أن يكون له بديل عربي.

والشبهة الخامسة هي قلة المصطلحات العربية القديمة، وعدم جدواها، وهذا زعم تكذبه المحاولات الحديثة لرصد ما في التراث من تلك المصطلحات، وربط أستاذنا بين المصطلح والبحث العلمي الذي مازال هامشيًّا في حياتنا، ولفت الانتباه إلى أهمية التوعية اللغوية، وإنشاء مؤسسات متخصصة للترجمة، وتكوين أجيال من العلماء المتقنين للغتين العربية والأجنبية، وتيسير العربية للمشتغلين بصياغة المصطلحات، وينتهي إلى وجوب الانفتاح العلمي المستفيد من منافع العولمة واثقين بأنفسنا وقدرتنا اللغوية التي سبق أن انتصرت فكانت وجهًا مشرقًا للهُوية العربية.

(٥)

مستقبل الثقافة العربية من خلال اللغة

وفي المطلب الرابع ربط أستاذنا بين الثقافة واللغة؛ و"الثقافة، بكل بساطة، هي فلسفة الجماعة ونظرتها إلى الوجود من حولها، فهي مجمل العقائد والقناعات المطلقة التي تؤمن بها جماعة ما، والتي تمنح (المعنى) للأشياء (المحايدة في الأصل) من حولها، وما ينبثق عن ذلك من سلوك وعلاقات ومعرفة.

والثقافة بهذا المعنى، هي التي تمنح حضارة معينة شكلها و(نكهتها) الخاصة التي تميزها عن غيرها من حضارات، رغم أن جوهر الحضارات الإنسانية واحد،

ألا وهو عمارة الأرض أو (الخلافة في الأرض)، إذا استخدمنا مفاهيم قرآنية، أو (العمران البشري) إذا استخدمنا مفاهيم خَلدونية"[١]. وأما اللغة فهي وعاء الفكر والثقافة، والحديث عن مستقبل اللغة حديث عن مستقبل الثقافة. وكان الخوف على اللغة في تاريخنا الماضي وراء حركة التدوين المبكرة التي كان لجهود علمائنا الفضل في نقل واقع العربية الفصيحة في تلك العصور، ولكن الشكوى من التردي لازم تاريخ العربية كما قرره ابن قتيبة (٢٧٦هـ) والأزهري من بعده(٣٧٠هـ)، ثم ابن منظور (٧١١هـ) ثم الفيروزآبادي(٨١٦هـ) حتى الزبيدي (١٢٠٥هـ)، وقد تعالت الأصوات في العصر الحديث مستنكرة حال العربية على ألسنة الكتّاب والشعراء، وكانت كتب التصحيح اللغوي متوالية منذ الكسائي إلى عصرنا هذا، وأشار الأستاذ إلى استفتاء مجلة الهلال في عام (١٩٢٠م) عن مستقبل العربية وذكر جملة الأسئلة المطروحة، وقال إنه على الرغم من مرور ثمانين عامًا عليها ما زلنا نرددها، وقال إنه كان من المظنون أن العرب بعد الاستقلال سيثبتون أقدام الفصحى؛ ولكن لا نجد من فعل هذا سوى سورية، بل العجب أن تأخذ اللغات الأجنبية مكان الصدارة في التعليم والسوق ويستشري نفوذ العامية وتدخل ميدان الأدب والإعلام والتعليم والإدارة، بل ظهرت مطالبات بإحياء لغات محلّية، ومع ذلك يرى بعض الباحثين أن العربية من أقوى لغات العالم وأن ما تواجهه من تحد لا يواجه إلا بمزيد من الثقة، وهي اليوم اللغة الرسمية لأكثر من عشرين دولة وهي معترف بها دوليًا وتطبع بها الكتب ويذاع بها، ويرى أستاذنا أن هذه النظرة المتفائلة

---

(١) تركي الحمد، الثقافة العربية في عصر العولمة، ص٩٠.

لا تلامس حقيقة الواقع، فحدود مسرح العربية هو هو، وأما اختيارها في المحافل السياسية فلاعتبارات سياسية، ولا يدل على ازدهارها، والحديث عن العربية بعامة يختلف عن الحديث عن الفصيحة؛ إذ العامية أخذت مكانها في التعليم والتجارة والإعلام والشعر. ومن الباحثين من يرون الفصحى مهملة متخلفة لا يحسها أبناؤها رغم إمكاناتها. وبيّن أستاذنا أن هذا الواقع حاضر في أذهان القائمين على المؤسسات الثقافية والبحثية؛ إذ أقاموا الندوات والمؤتمرات المتوالية التي لم تفض إلى ما يجعل الفصحى في الصدارة، وضرب أمثلة لتلك الندوات والمؤتمرات. وراح يبين كيف طردت الفصيحة من مواقع كثيرة من أهمها المؤسسات التربوية؛ إذ من المضحك أن يبدأ الطالب حياته العلمية بسماع العامية من أستاذه، وأما أنا فكان ابني يتكلم الفصيحة في البيت لمراقبته برامج تتحدث العربية الفصيحة؛ ولكنه حين دخل المدرسة وجد لغة عامية مخالفة لما عهده في البيت، وأحس الغربة والخوف من الإقصاء والتندر عليه فتعلم العامية. وسأل أستاذنا كيف للغة أن تنمو وهي محاصرة بالإهمال وبإقصائها عن مواقع الحياة. والعربية لم يشخص واقعها بدراسة مستوعبة قائمة على منهجي الوصف والإحصاء، إذ الدراسات إما انطباعية، أو علمية جزئية. وناقش ما كتبه رشاد الحمزاوي في كتابه (الفصاحة فصاحات) وأخذ عليه أنه لم يستوعب حركة التصويب الضخمة التي بدأت منذ أوائل هذا القرن، وأنكر عليه تصوره انبتات الفصحى المعاصرة عن التراثية، وأن شرعية الفصاحة في الحاضر مردها إلى الاستعمال، وهذا يدخل في فوضى لغوية، ويقتضي وضع قواعد مختلفة عن القواعد القديمة. ودعا إلى التمسك بمرجعية الفصاحة العربية القديمة، وعرض لمشروع (العربية الأساسية) وبيّن أن أكبر نقد وُجّه له تسويته بين العامية

والفصحى من حيث المفردات والتراكيب، وإهمال بعض المواد الفصيحة. وأما بعض أعمال المستشرقين الجادة فليست نابعة من الحرص. ومن هنا يتبين لأستاذنا أن واقع اللغة العربية المعاصر لم يحظ بدعم جاد يضعها موضعها الصحيح ولم تحظ بدراسات متأنية مستوعبة تكشف عن حالها الراهنة بما يستشرف مستقبلها. ويرى أن للعربية حالا مختلفة من حيث أساليبها وتراكيبها وميادين التعبير بها تختلف عن ما ألف قديمًا على جماله وفضله، وهو اختلاف يوازي اختلاف حياتنا عن حياة أجدادنا، فلابد إذن من الكشف عن لغتنا الفصيحة المعاصرة المبرأة من العامية وما يخالف النطق الصحيح أو القواعد المقررة، وإنما هو استكشاف للمزاج اللغوي المعاصر، ومثل هذا لابد له من روح الفريق الذي ترعاه المؤسسات الكبرى، فإن حددنا المحصول اللغوي المعاصر استطعنا أن نخطط للمستقبل، ولنطور ثقافتنا لابد أن نحسن إعداد أجيالنا. وللفصحى المعاصرة مشكلات لابد من حلها ومن أهمها أن تمارس في الحوار والاستعمال وتمكين اللغة من أداء وظيفتها في الفكر والتعبير عنه، إذ كان تهميشها علة تخلفنا بعد ازدهارنا المشهود، وما هذا التفعيل إلا جوهر مشروع الأمة النهضوي، ولابد له من وعي بأهمية اللغة الفصيحة وإذكاء الحماسة لها ودفع شبح الهزيمة الذي يبعدها ويدني غيرها، ولابد من قرارات سياسية تكفل لها مكانتها الاجتماعية وفاعليتها، ونزه الأستاذ دعوته عن شبهة الدعوة لهيمنة لغوية، بل هي دعوة لضوابط عامة تحفظ على المجتمع لغته، ولابد من توجه الدراسات نحو درس جاد للعربية في صورتها الفصيحة المستعملة في الوقت الراهن لاستخلاص قواعدها ووضع المناهج لتعليمها.

وإنّ ما يدعو إليه أستاذنا لا يعبر عن دعوة إلى الانكفاء على الذات ولا عزلة

عن حركة العالم المتطورة تطورًا متسارعًا؛ بل دعوة إلى الجمع بين مقومات الهُوية العربية والإسلامية ومكتسبات الإنسانية المتفاعلة، ويبدو أنّ هذا أمر يرد على الذهن، ونجد تركي الحمد تناول ذلك في قوله "قد يقول قائل إنّ بإمكاننا الدخول في التقنية دون التخلي عن ثقافتنا الذاتية، وفق مبدأ أنْ نأخذ أفضل ما عندهم وأفضل ما عندنا. وقد يبدو مثل هذا التقرير توفيق[١] مناسب وجميل، ولكن هل يمكن ذلك، هذا هو السؤال"[٢]. ويوضح أن التقنية ليست محايدة وإن بدت كذلك فإنها مجتلِبة خلفيتَها الثقافية، وأن من الوهم الفصل بين التقنية والقيم التي تولدت عنها، وهنا يحاول معالجة ما يبدو مشكلًا حين يسأل عن الحل. فهل يعني ذلك أن ثمن التقنية ضياع الهُوية والثقافة الخاصة؟ يبين أن الجواب مرهون بالموقف من هذه الهُوية والثقافة الخاصة؛ فإن كان المقصود بالثقافة الخاصة ثقافة مفارقة لإطار الزمان والمكان الراهن وهو ما يظهر من تحديد بعض المتصدين لمعالجة تلك المفاهيم؛ إن كان الأمر كذلك فإن الزوال هو النهاية الحتمية، ويعلل ذلك بأن "كلّ تحديد صارم ثابت لشيء متغير في طبيعته، لابد أن يصطدم مع عوامل التغير ومن ثَمَّ إمّا أنْ يسقط مباشرة، أو ينعزل، إن كان بإمكانه ذلك"[٣]. وأما إن نظر إلى الثقافة وفاقًا لما يقتضيه واقع الحال بوصفها واقعًا معيشًا لا مفهومًا متعاليًا مغلقًا وبوصف الهوية تعريفًا للذات لا تحديدًا نموذجيًا ذهنيًّا مفارقًا للزمن الراهن

---

(١) هكذا في النص ولعل الصواب توفيقًا مناسبًا وجميلا.

(٢) تركي الحمد، الثقافة العربية في عصر العولمة، ص ١٠٢.

(٣) تركي الحمد، الثقافة العربية في عصر العولمة، ص ١٠٢.

والمجتمع الحاضر فإن الاستمرار هو النتيجة(١). ويعود تركي الحمد إلى تصحيح ما يمكن أن يرد إلى الذهن من لبس في أمر تلك الثقافة الموصوفة بالاستمرار؛ إذ يظن أنها تخلٍ عن مقومات الهوية الأصلية أو الثقافة الأصيلة، فهو يرى أن الثقافة الجديدة لن تكون نسخة مكررة من القديمة ولا الهوية مطابقة لتلك الهوية؛ ولكنها لن تُلوي بها وسيظل العربي عربيًّا وسيظل المسلم مسلمًا، ولكنّ ذلك وفاق ما يقتضيه العصر الحاضر والحياة الواقعية لا الذهنية التاريخية، وضرب مثلًا باليابان التي استظهرت الحضارة الغربية وملكت ناصية التقنية من غير أن تغير من هويتها ما يعصف بها ويزيل رسومها(٢).

وإن من المشاهد أنّ كثيرًا من الموصوفين بالتعلق بالنموذج القديم هم من أكثر الناس إقبالا على منجزات التقنية، ولكن ذلك في حقيقته لم يتعد إطار الاستهلاك الذي يتساوى فيه الجاهل والعالم، ولم يبلغ درجة توطين تلك التقنية والصدور عنها والإبداع فيها، ولعل من أشق الأمور أن عجلة التطوير في تسارع مذهل يزيد من الفجوة الرقمية التي وصفها نبيل علي في كتابه وفي محاضراته المختلفة.

(٦)

اللغة العربية والإعلام:الواقع والمأمول

والحق أنّ الإعلام أصبح من أهم المؤثرات في المجتمعات؛ إذ صار يدخل البيوت بأشكاله المختلفة وبوسائله المتنوعة فصار له من الخطر ما يفوق التعليم

---

(١) تركي الحمد، الثقافة العربية في عصر العولمة، ص ١٠٢.

(٢) تركي الحمد، الثقافة العربية في عصر العولمة، ص ١٠٢.

المنهجي أو التربية الأسرية، صار الطفل منذ صغره يتلقى جملة من المفاهيم تتسرب إلى ذهنه من جملة مشاهداته، وهذا ما جعل كثيرًا من المربين والمصلحين ينبهون إلى خطر ما يتعرض له الطفل من برامج، وهو أمر يهم العالم كله، والمجتمعات كلها تحس هذا الخطر؛ ولكنها تتفاوت في أمر معالجة آثاره ودرء مخاطره. إنّ للإعلام تأثيرًا جميًّا لا يخطئه الملاحِظ، فعلى المستوى اللغوي وهو ما يهمنا هنا يشيع صواب استعمال اللغة أو خطأ استعمالها بسبب ترددها على ألسنة المذيعين أو ضيوف البرامج الحوارية، ومن أمثلة ذلك شيوع كلمة (أرْيحيّة) باستعمال المعلقين الرياضيين لها استعمالا خطأً؛ إذ هم يستعملونها بمعنى (الراحة) وليس هذا معناها الذي وضعت له؛ إذ معناها الصحيح ما ينال المضيف من فرح وبهجة ونشاط ظاهر يستقبل به ضيفه، إن الإعلام بيده أن يعلي من شأن اللغة كما أن بيده أن يفسدها ويضعفها وهو ما نرى آثاره.

ولعل ما يعلمه أستاذنا من خطر الإعلام هو ما جعله يخصص له المطلب الخامس من كتابه، حيث دعا فيه أستاذنا إلى أن يكون حوارٌ بين اللغويين والإعلاميين، وبيّن أن المشكلة الرئيسية في غياب الوعي بأهمية اللغة العربية الفصيحة، وبأنا نهدر ميزة فريدة لهذه اللغة، وهي أصالتها واتصالها، ومن هنا يتبين أن الفصيحة تقوية لأواصر الأمة، أما المحليات والعاميات فتمزقها وتفتتها، ولذا نحس أن بعض القائمين على وسائل الإعلام أعداء للعربية الفصيحة، فليس لها من الوقت إلا أقله، وإن قدمت ففي صورة سيئة منفرة. وأما البرامج ذات الحضور الكثيف فلغتها العامية التي ربما خالطتها ألفاظ أعجمية، وربما تجد البرامج الثقافية تعبث بها العامية، ويجاهر بعض الإعلاميين والأدباء بنفورهم من الفصيحة وحبهم

للعامية بدعوى قربها من عامة الناس ودقة تصويرها أحوالهم. ومن الغريب أن يتوجه ذو الشأن والثقافة بعامية إلى جمهور عريض في العالم العربي والإسلامي ذي العاميّات المتباينة واللغات المختلفة، ولم تعد المشكلة ما يقع من أخطاء في لغة الإعلاميين بل الأمر أدهى وأمرّ، فحياة الفصيحة في خطر، إذ نجد من يكيد لها من أهلها، ولم يكن البعد الاستراتيجي للغة ضمن اهتمامات السياسيين أو المخططين العرب، وكان الظن أن الاستعمار يضعف العربية ثم تبين أن أصحاب القرار هم السبب بفتنتهم بلغة المستعمر، حتى في إبان المد الوحدوي كان الهم سياسيًا فلما انهار استحرّت التجزئة بتشويه الوجه الثقافي بمحاربة الفصيحة وتمكين العامية، وشكك في الثوابت وزيف التاريخ وبعثت الطائفية والعرقية ونُشرت لغات ميتة، وهكذا نجد الإعلام يرفض تعميم الفصيحة، بل جندت لحربها فضائيات عدة أعلت من شأن العاميات بمظاهر باهرة، وهكذا ندخل عصر العولمة بلا سلاح، إن وضع الإعلام صورة من الوضع اللغوي المتردي، ولعل تراجع الفكر الوحدوي قد أضر بفكرة سيادة الفصحى، وعصرنا الحاضر كعصر الاستعمار الذي سعى فيه إلى نشر لغته، إذ الدعوة لتعليم الأطفال اللغة الإنجليزية وانخراط كثير من أبنائنا في المدارس الأجنبية هو ما كان يسعى إليه المستعمر. ولم يكتف الآن الإعلام بتشجيع العاميات بل انتصر لها واعتمدها، فبرامج الثقافة بالعامية وصوت أفلام الصور المتحركة بالعامية، بل قرئت الأخبار بها، ولم تعد إجادة اللغة شرطًا في المذيع، وهكذا صارت البلاد العربية كيانات مختلفة تتوجه إلى كل المشاهدين والمستمعين باللهجات المحلية، وإن الأمر المطروح اليوم هو أمر دولي، فالعرب جزء من العالم جنوبه، وهم معنيون بما يهدده من عولمة. ودول العالم تتكتل

مسفرة عن أهدافها السياسية والاقتصادية، وقربت العنكبية بين العوالم، فجعلت الضعيف لقمة للقوي بتقنيته ومعلوماته، وإن الدول النامية مفتقرة إلى المعلوماتيّة. ويرى أستاذنا أن على العرب أن تؤسس عقلانيا لما ينفع شعوبها وإن اختلفت أنظمتها السياسية، وهم يطمحون إلى سوق مشتركة فلابد لها من لغة مشتركة هي الفصيحة؛ إذ الانسجام اللغوي من أهم وسائل النجاح الاقتصادي، وأما في مجال المعلوماتية فالوضع مفزع في ظل الشتات والفرقة، وأهم تحدياته اللغة التي هي سبيل التعبير عن المعلوماتية. ولن يستفاد من الحواسيب إلا بتعريبها بلغة موحدة، ومن هنا فعلى الإعلام أن يعزز في النفوس مكانة اللغة الفصيحة بأن يفسح المجال لها، وهي لغة صالحة للجمهور يحسن الإنصات إليها ويتلذذ بها متى أُحسن استعمالها، وعلى الجهات الرسمية أن توفر السبل الكفيلة لتحقيق ذلك من أموال للدعاية والرعاية، ولابد من إصدار تشريعات محفوفة بالنفاذ تصونها من العبث ومزاحمة الأجنبية لها، ومن الغريب أن تنصّ دساتير العرب على أنها اللغة الرسمية ثم لا تكفل ذلك بما يقتضيه، وآخر الأمر أن المستقبل الاقتصادي أو العملي التقني لن يزدهر بلا لغة موحدة والفصيحة هي تلك اللغة المرشحة.

(٧)

لقاء مع مجلة المعرفة

وهذا سادس مطالب هذا الكتاب وهو ما أجاب عنه من أسئلة مجلة المعرفة؛ إذ سئل أستاذنا بمجموعة من الأسئلة كان أولها عن رأيه في قول من يدعو إلى تأجيل الاهتمام بالعربية والانصراف إلى إتقان العلوم وإن كانت تُعلَّم بغيرها؛ لأنه متى قوي أهل اللغة قويت لغتهم وأثّرت في الحضارة. وكان من جوابه أن لا تلازم

بين قوة اللغة وتأثيرها؛ فقد كانت لغة الجاهلية قوية غير مؤثرة، وأما اللغة المؤثرة فهي لغة المسيطر عسكريًّا أو ثقافيًّا، واللغة القوية في المجتمع هي التي تنقله إلى التقدم، وأما اللغة الأجنبية فتؤدي إلى تخلف المجتمع، ولا جدال في أهمية التقنية وأن لغته أجنبية وأن تعلم الأجنبية مهم؛ ولكن علينا أن نحذر من طغيانها على لغتنا، وفرضها على المجتمع دراسة وحديثًا وكتابة، فاتخاذ الإنجليزية في كل مجالات الحياة انتحار حضاري، وليس صحيحًا أن كل الأمم الناهضة اعتمدت على اللغة الأجنبية، بل ثقفها من احتاج إليها.

وكان السؤال الثاني عن المسؤول عن ضعف اللغة العربية، فكان من جوابه أنّ علتها من أبنائها أولا وإن كان المستعمر علة أثناء الاستعمار، ولكن الضعف استمر بعد زواله حين خلفَ خلْفٌ هم أشد من المستعمر عداوة للعربية.

وكان السؤال الثالث عن فشل طرائق التدريس، فكان من جوابه أن اعتراف التربويين بالفشل علامة صحة، وتعليم العربية أُتي من الإخفاق في تحديد فلسفة تعليم اللغة، فليس لدينا دراسات كاشفة عن قدر ما نحتاج إلى تعلمه من الركام المعرفي التراثي، وخلطنا بين حاجة المتخصص وغيره، واللغة السليمة لا تكتسب بكثرة القواعد بل بالممارسة لمهاراتها من سماع وتحدث واسيعاب وقراءة وكتابة، وعلمناهم المهارات مفرقة كغيرها من العلوم مع قلة الوقت المتاح لها، كان الأسلاف يبعثون أبناءهم للبوادي لا ليتعلموا القواعد بل ليسمعوا اللغة الصحيحة وليتحدثوا بها، ونحن الآن بما لدينا من وسائل قادرون على فعل ذلك. ولكن المشكلة أن البيئة عامية، فلعلنا نجعل المدرسة بيئة فصيحة.

وكان السؤال الرابع عن تدريس الصغار اللغة الإنجليزية، وأستاذنا لا يرى أن

يعلموا لأن مرحلة التأسيس وتشكيل الشخصية يجب أن يكون عربيًا، ومن المستهجن أن نربط أبناءنا منذ الصغر بها فنربكهم لغويًّا وعاطفيًّا، وليس مجتمعنا ثنائي اللغة، ومن المعلوم أن تعليم اللغة مرتبط بالثقافة والانتماء، وهذا التوجه ضد تشجيع التعريب. وقد فشلت قبلنا دول في تعليم اللغات الأجنبية مع كثرة تكاليفه التي لا توازي النتائج. وكان السؤال الخامس عن تعريب التعليم الجامعي، وكان من جوابه أن تعريب التعليم يزيد استيعاب الطلاب وكل الأمم الناهضة إنما امتلكت التقنية بالتعليم بلغاتها القومية، والعرب الذين سلخوا ثمانين عامًا من التعليم بالأجنبية فشلوا في امتلاك العلم والتقنية، وتعريب التعليم لا يقتضي الانقطاع عن تعلم اللغات الأجنبية لتكون نافذة إلى الجديد في العلوم، ثم بيّن الأستاذ مواقف المسؤولين عن هذا التعليم فقسمهم ثلاثة أقسام مرّ ذكرها في مطلب سابق، وهم فئة متحمسون للعربية شاكون في قدرتها على متابعة الجديد، وفئة يجهلونها فيفضلون عليها ما يعرفون، وفئة مستغربون مفتونون بالأجنبية، وبيّن الأستاذ كما مرّ سابقًا فشل هذه السياسة، وسئل عن أثر الإدارة الثقافية في الجامعة العربية واتحاد الجامعات العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، فهل من جهة قادرة على الإلزام بالتعريب، فكان من جوابه أن تحدث عن المؤتمرات والندوات التي عقدت لتناول تعريب التعليم، وما تضمنته مواثيق المنظمات ووثائق السياسات الثقافية والخطة الشاملة للثقافة، وكلها تؤكد اعتماد التعليم بالعربية؛ ولكن تلك القرارات لم تنفذ، وسئل عن قرار تعريب التعليم أتعليمي هو أم سياسي، فبين أستاذنا أنه قرار سياسي حاسم مشمول بالتنفيذ يعيد للغة سيادتها ويُقْدر الأمة على المشاركة في صنع الحضارة، والسؤال السادس عن اللغة العربية وسوق العمل

المفتوح المقتضي لاستعمال الإنجليزية، فكان من جوابه أن أهل هذه البلاد عرب مسلمون والعربية لغتهم الرسمية؛ ولذا يجب أن تسود العربية، وأما وجود أجانب في السوق فليس حجة لتشكيل حياتنا، والأجانب في البلاد الأخرى يتكلمون لغة البلد الذي فيه يعملون، ولتكن العربية ميزة لمن يريد منهم العمل في بلادنا، وإن اشتراط اللغة الإنجليزية للعمل في بلادنا حرم أبناءنا من العمل، وهي إن كانت مطلوبة في بعض الأعمال فليست كذلك في غيرها. وفي سؤال عن ضرورة عقاب من يخالف قرارات المحافظة على العربية فأجاب إن متابعة تنفيذ القرار تقتضي سن العقوبات، وسئل عن وجاهة اشتراط اللغة الإنجليزية في العمل، فأجاب إن الإنجليزية تدرس في الجامعات بما يكفي، وهو ليس ضد تعلمها ولكنه ضد سيادتها، والسؤال السابع عن اللغة العربية والعامية عن التوجس من خطر العامية ومستواه، وكان من جوابه إن العامية معايشة للفصيحة منذ القدم؛ ولكنها لم ترق لتكون لغة الأدب والثقافة والدواوين، وتظهر خطورتها في تجاوز مكانها من الخطاب اليومي إلى ميادين التعليم والإعلام، وسئل أيما أشد على الفصيحة العاميةُ أم الأجنبيةُ، فقال إن العامية لا تقل خطرًا عن الأجنبية ما أزاحت الفصيحة عن موقعها، وسئل عن اختلاف وسائل مقاومة العامية عن الأجنبية، فقال إنه يدعو لجعل كل في مكانه الصحيح.

وسئل عن مستقبل العربية وهو ما تناوله في مطلب سابق ولكنه قال هنا إن العربية ستواجه تحديات كبيرة في ظل العولمة ما لم ينتبه أولو الأمر والشأن إلى تدارك الأمر بما يدفع الهزيمة النفسية وينشر الوعي بالأهمية القومية للغة والعمل على تفعيل دورها في صياغة المستقبل.

(٨)

بل الواجب أن تكون عربية

وآخر مطالب هذا الكتاب تعقيب على بحث للدكتور محمد بن حسين الحبوبي الذي دعا فيه إلى استعمال الحروف الأعجمية للوحات السيارات لصعوبة الحروف العربية لتشابه أشكالها، ولما يثيره تواليها في اللوحة من معان قد تستهجن، ولأن من يسافر بسيارته للبلاد الأجنبية يجد مشكلة، ولوجود جالية كبيرة في بلادنا لا تعرف العربية، ولاحظ أستاذنا أن الباحث جاء بحل نفعيّ لم يراع الملابسات الاجتماعية والنفسية والثقافية ذات الأثر البالغ العميق، فهو هدم لأسس المحافظة على اللغة القومية الممثلة لهويتها، وهذا المنطق الذي تحدث به الباحث هو منطق أعداء العربية المشككين بقدرتها ولكن الأمة ثبتت على استعمال لغتها، وليست القضية استفادة أو سهولة وصعوبة بل القضية قضية هوية، والحجج المذكورة غير مقنعة فتشابه الحروف واقع في كل لغة والتآكل ينالها جميعًا، وأما المعاني التي تنتج فيمكن التغلب عليها، وأما السفر بالسيارة للخارج فهو قليل وليس بمشكلة. وأما وجود الجالية الأجنبية أو الحجاج والعمار فليس بحجة فما من دولة تغير من لغتها رعاية للسياح أو الزوار، ومن مصلحة الأقليّة الأجنبية أن تتعلم العربية، والحجاج والعمار مسلمون يقرأون القرآن ويعرفون الأرقام العربية، ويشيد الأستاذ بما قامت به وزارة الداخلية من تغيير لوحات السيارات لتكون عربية خالصة، ولكن الكتاب صدر ثم عادت الوزارة إلى لوحات ثنائية اللغة وأنتجت في اجتماع الأحرف الإنجليزية من المضحكات أضعاف ما تنتجه العربية. هذا من أستاذنا بيان وتسجيل موقف.

وكنت تمنيت لو أن أستاذنا وقد جمع هذه الأمور المتفرقات في إطار واحد أن يختم بخاتمة عامة تنطلق من جملة ما أثارته هذه البحوث المتوالية لبيان موجز ينتهي به القارئ إلى ما يمكن أن ينجز في سبيل درء مخاطر العولمة والتمكين من أمر العربية في أنفس أبنائها وأوطانها العربية والإسلامية، ومثل هذا مبثوث في أثناء الكتاب بما لعله جعل أستاذنا يكتفي به، ولكني سأذكر بعض التوصيات التي ذكرتها في مشاركات تدور حول هموم العربية ومشكلاتها وأراها نافعة. وهذا جزء من مشاركتي في (لقاء مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية): "إننا الآن أحوج ما نكون إلى استعادة هويتنا وإثبات وجودنا ولن يكون ذلك إلا بعمل داخلي يعيد لعصب تلك الهوية حياته وهو اللغة العربية فيعيد التعليم إلى حضيرتها ويلقي زمام العمل في يدها.

وإني أدرك كل الإدراك أهمية القرارات السياسية في ذلك؛ لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن؛ ولكني مؤمن كل الإيمان بأن المجتمع بأفراده عليهم إن هم أرادوا استعادة هويتهم أن يعملوا على ذلك.

إنّ الطموح المشروع إلى استعادة الهوية سبيله أن تعود العربية لغة مسموعة مقروءة مُتحدَّث بها في جميع أرجاء العالم العربي، وإن ذلك ليس بعزيز؛ ولكنه ليس بالسهل، بل هو تحد يواجه الأمة كلها؛ إذ لا بد ليتحقق شيء من ذلك من خطوات جادّة في سبيل الإصلاح، ومن ذلك:

أولا: إصلاح التعليم

علينا أن نصحح مسارات التعليم فلا نسوق أبناءنا في مسارات لا تلائم قدراتهم، بل علينا أن نوجههم توجيهًا مبكرًا إلى ما يناسب قدراتهم التي تكشفها

الاختبارات الدقيقة الصادقة والقياس الصحيح الذي لا تعيث به نزعات الأنانية واختيان النفس والغفلة عن المصلحة العامة.

علينا أن نربي أبناءنا على شرف الأعمال الحرفية الصغيرة، وبيان أهميتها في سيرورة حياة المجتمع، وعلينا التحسين من بيئات العمل بما يكون جاذبًا لطاقات شبابنا، وعلينا أن نتعلم أن كل إنسان مؤهل لما خلق له، وأنه ليس من الواجب أن يكون كل الشباب جامعيًا أو فوق الجامعي.

وعلينا في سبيل إصلاح التعليم أن نهتم بما يأتي:

١-الاهتمام الجاد بأخذ اللغة مشافهة، وإدراج ساعات للتلاوة والحوار والإنشاد في المراحل المبكرة، ولنا في تاريخ الكتاتيب تجارب أثمرت في الأجيال السابقة.

٢-تأليف الكتب على أسس جديدة تراعي ربط اللغة بالعصر الحاضر والحياة اليومية ومتطلباتها المختلفة.

٣-التركيز على التدريب العملي المتنوع المتواصل.

٤-تدريب المعلمين تدريبًا متواصلا ومساعدتهم على ما يجوّد عملهم.

٥-مراعاة مقتضيات الجودة من حيثُ عددُ طلاب الفصل وساعات عمل المعلم.

ثانيًا:العمل الاجتماعي

١-بعث روح الغيرة على اللغة العربية.

٢-تنشئة الطفل على معرفة العربية وحبها وتوفير وسائل الترفيه المعتمدة على العربية وتحويل كل ما يقدم إليه من أعمال تلفازية بلغة عربية.

٣- التخلي عن سلبية التعامل مع لغات العمالة المنزلية والتصدي لها والإفادة من نتائج الدراسات البحثية التي تقاطرت في المؤتمرات ولم تخرج لحيز التنفيذ العملي.

ثالثًا: العمل السياسي

لابد من قرار سياسيّ مشمول بالنفاذ متصف بالمتابعة المستمرة يؤدي إلى ما يأتي:

١-تمكين العربية بجعلها لغة العمل والإدارة في البلاد العربية.

٢-جعلها لغة التعليم العلمي والتقني في جميع المراحل التعليمية.

٣-أن يلتزم باستعمال العربية القطاع الخاص من شركات ومحلات تجارية ومطاعم وفنادق ومستشفيات وما في حكمها ووسائل النقل المختلفة.

٤-تشجيع وسائل الإعلام على اعتماد العربية الفصيحة في بثها المسموع والمرئي.

٥-تشجيع الأعمال التمثيلية باللغة الفصيحة وتقديمها على غيرها.

٦-جعل العربية شرطًا أساسيًّا في التوظيف.

٧-أن يتعاون العرب جميعًا كلٌّ حسب مجاله وما يُسر له، فصاحب الأموال بماله وصاحب السلطان بجاهه وسلطانه، والعالم التقني بمعرفته الحاسوبية والعنكبية، واللغويّ بمعرفته اللغوية، والإعلامي بقوة تأثيره.

٨-المبادرة بإنشاء جهاز عربي ضخم لترجمة المصادر العلمية وموالاة ترجمة كل جديد.

رابعًا: العمل التقني اللغوي:

١-تقريب المسافة بين الفصيحة وعامياتها باستغلال المفردات المتداولة في العاميات بعد تفصيحها.

٢-التعجيل بإنشاء معجم عربي شامل لكل الألفاظ والمصطلحات وأن يكون مبثوثًا على الشبكة العنكبية، وأن يحتذى فيه آخر ما توصلت إليه الأمم

المتقدمة من تقنيات وإمكانات كما هو الحال في المعجم الفرنسي.

٣-تزويد الحواسيب بأكثر التعبيرات الفصيحة استعمالا.

٤-تزويد الحواسيب بنماذج من المخاطبات الرسمية المصوغة بلغة وظيفية سليمة من الغموض والفصيحة لغويًّا.

٥-استغلال منافع الحوسبة والعنكبية في الترجمة والنشر والتعليم.

خاتمة

لن نستعيد هويتنا إلا إن تولينا شؤوننا بأنفسنا وتحولنا من الاستهلاك إلى الإنتاج، ولن يكون ذلك إلا بتعلمنا بلغتنا وباحترامنا لأنفسنا وتقديسنا للعمل ما صغر منه وما كبر، وهذه مسؤولية قومية ليست على فرد دون فرد، وليست على حاكم من دون محكوم، وكما تكونون يولى عليكم، وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ"[١].

(١) جزء من مشاركتي في (ندوة: اللغة والهوية) افتتاح الحلقة النقاشية (آفاق الريادة والتميز) مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز العالمي لخدمة اللغة العربية،الرياض،١٠-١٢/جمادى الآخرة/١٤٣٣هـ ، الموافق ١-٣/مايو/٢٠١٢م.

كل عام وأنتم بخير

تفضل أخي (فيصل بن علي المنصور) بإهدائي نسخة من كتابه النفيس (رسالة في مسائل كل عام وأنتم بخير متضمنة مسائل نادرة في النحو والتصريف والبلاغة وأصولهن)، ونجد في صدر الكتاب لمسة برّ في إهداء عمله إلى والده رحمه الله وإلى والدته أطال الله عمرها ثم لمسة وفاء بإهداء الكتاب إلى أستاذه د. حسن بن أحمد العثمان، وليس يعرف الفضل لأهله سوى أهل الفضل. وبين في مقدمة كتابه هدفه من عمله وهو بيان أحكام هذه المسكوكة لَمَّا رأى كثرة الاختلاف في أمرها عند من يزاولون التصحيح اللغوي، ولأنها كثيرة الاستعمال في مناسبات الناس كثرة قد تدعوهم إلى السؤال عن صحة تركيبها، وبيّن في المدخل أنها تستعمل بالواو وبدونها، وأنّ (كلّ) تأتي مرفوعة أو منصوبة، وبهذا يتحصل أربع صور. والكتاب شرح لهذه الصور، بدأ برفع (كل) من غير واو، وثنى برفعها مع إثبات الواو، واستغرقت الصورتان معظم الكتاب أمّا الصورتان الأخريان فجاءتا في صفحتين متقابلتين، ثم ختم ببيان أي الصور الأربع أبلغ، وهي الصورة الثانية.

وهذه الصورة هي الشائعة عند الناس في مخاطباتهم ومراسلاتهم، ولا أعلم أنّ الصور الأخرى مستعملة فلعلها من اقتراحات المصححين. والمؤلف لم يكتف بشرح هذه الصور ولا بإعرابها بل انتهز الفرصة لمناقشة مسائل نحوية دقيقة يثيرها القول في تراكيب هذه الجملة، ويحمد للباحث أنه يصدر عن معرفة واثقة بعلوم العربية مع نظرة نقدية مؤيدة بالحجج والبراهين.

ونبه المؤلف إلى مذهب اختص به نفسه قد لا يوافقه فيه غيره، فهو يكتب

(يحيا) بالألف المشالة، والاسم في بيآتنا المختلفة ينطق نطقين ويكتب كتابين، فهو ينطق بإسكان الحاء كما هو في النطق الفصيح، وهو ينطق أيضًا بتسكين الياء بعد قلب مكانيّ بين فتحتها والحاء، ولعلّ الذين ينطقون كالفصيح التزموا الرسم القديم (يحيى) وهو رسم استعمل لما تؤول ألفه إلى الياء عند التثنية بغض الطرف عن الجذر كما هو الحال في مثل (مصطفى) الذي لامه واو، ولعل الذين ينطقون بتسكين الياء وفتح الحاء اتخذوا الرسم الآخر (يحيا) لأنهم نقلوه من الفعل (يحيا) كما يستعمل في عاميات نجد، وأرادوا أن يكون مختلفًا عن اسم النبي (يحيى). والمؤلف في اختياره أراد أن يتابع القاعدة الفرعية لرسم الألف، وهي قاعدة تراعي التخلص من المتماثلات الخطّية، وهو أمر فصلته في كتاب (الشاذليات). ولعلي أوافق المؤلف في مذهبه هذا وإن اختلف هدفانا، فأنا أريد تعميم كتابة الألف مشالة؛ لأني لا أرى هذه الألف قلبت عن ياء، بل هي نتيجة مطل فتحة العين بعد حذف اللام سواء كانت ياءً أم واوًا، فالفعل (يحيا) وزنه عندي (يفعا).

والكتاب جدير بالقراءة المتأنية، وهو ذو مسائل مغرية بالمناقشة، فلعلي أعود إلى شيء من هذا.

كيف تسبر نصًّا بالإحصاء

لعلي كنت سأجعل هذا عنونًا لكتاب العالم الجليل الأستاذ القدير سعد مصلوح، وهو "في النص الأدبي: دراسات أسلوبية إحصائية"؛ وذلك أن مضمون الكتاب في جوهره عرض لكيفية درس النص بمقاييس إحصائية ترتفع عن الحدس والمزاج والذوق الخاص والانطباع العابر، وهو أيضًا تطبيق عملي أنجزه الأستاذ لقياس خاصية تنوع المفردات في الأسلوب عند العقاد والرافعي وطه حسين، ودرس لشعر شوقي للكشف عن المنسوب إليه للتحقق من صحة النسبة، ثم تشخيص أسلوبي إحصائي للاستعارة في دواوين البارودي وشوقي والشابي. وأكتفي بإشارة إلى التحقق من نسبة النص إلى منشئه، وهي تعتمد على مقياس العالم الإنجليزي يول Uule، وهو يعتمد على أن للمنشئ جملة من المفردات المتخيرة من اللغة يؤلف معجمًا خاصًّا يتكرر عنده على تباين في مرات التكرار، وبجملة من العمليات الرياضية يمكن معرفة خاصية المنشئ الذي يقع استعماله بين العتبتين القصوى والدنيا، وهما رقمان لما يمكن أن يكون من إنشائه، فإذا أريد التحقق من نص نُسب إليه ولا يعلم صدق نسبته أجريت عليه العملية الإحصائية، فإن وافق مدى العتبتين فهو للمنشئ. وتبدأ الإجراءت بإعداد قائمة من المفردات الصالحة للقياس لمعرفة التوزيع التكراري، وهي عملية تتألف من خطوات خمس هي تدوين الاسم، وبيان عدد تكراره، وترتيب الأسماء معجميًا، وتصنيفها حسب مرات الورود في فئات، وعدّ بطاقات كل فئة، ثم تجرى عمليات حسابية متوالية، ومثال ذلك أن تكون الفئة أسماء تكررت ٣ مرات، فالخطوة الأولى ضرب ٣ في عدد كلمات الفئة، والخطوة الثانية ضرب مربع الفئة ٣×٣ في عدد كلماتها، ويفعل هذا في كل

الفئات، ثم تجمع نتائج الخطوة الأولى، وتجمع نتائج الخطوة الثانية، ثم يطرح مجموع نتائج الأولى من مجموع نتائج الثانية، ثم يقسم الحاصل على مربع نتائج الخطوة الأولى، وللتخلص من الكسور يضرب الرقم في ١٠٠٠٠، وسيكون الناتج هو خاصية المنشئ. وعند الدراسة التطبيقية اختار الأستاذ تسع قصائد من الشوقيّات الثابتة النسبة إليه ومثلها لشوقيات مجهولة، ومثلها للشوقيات الروحية وهي أعمال شعرية نشرت بعد موته ويُزعم أن روحه أنشأتها، واستطاع الباحث الفذ باستعمال معادلة يول التي مرّ شرح مختصر لها أن يبين خاصية شوقي اعتمادًا على ما ثبت له وبموازنتها بنتائج القصائد المجهولة استطاع أن يثبت بعضها وأن ينفي بعضًا، وأما القصائد الروحية فيبين التفاوتُ الواضحُ في الخصائص بين الشوقيات الثابتة وبينها أنها لا تنتمي إلى شعر شوقي. ولعل هذا الإجراء صالح لمعرفة نسبة المخطوطات المجهولة لمن نسبت إليه، كتاب جدير بالقراءة الجادة.

لسان آدم

(١)

هذا كتاب ألفه عبدالفتاح كيليطو، وترجمة عبدالكبير الشرقاوي، نشرته دار توبقال في الدار البيضاء (ط٢، ٢٠٠١م)، وهو مقسم قسمين: الأول لسان آدم، وبه سمي الكتاب، والقسم الآخر ترحيل ابن رشد، وهو عنوان أول موضوعات هذا القسم، وأما موضوعات القسم الأول فهي (ثغثغات، بلبلات، جنة عدن بابلية، أقدم قصيدة في الدنيا، شاعر أم نبيّ؟ آدم أو النسيان، مصير قصيدة، ملحق)، وأما موضوعات القسم الثاني فهي (ترحيل ابن رشد، أسباب السفر، العرب والكتاب، انتقام الصورة، الكتاب السحري، امرأة في الحلم، Cide Hamede Benengeli، الجنون الحكيم، الكتاب ونقيضه، الكتاب الغريق). وهذا الكتاب مكتوب في أصله باللغة الفرنسية؛ فهو موجه لقراء الفرنسية، وهو معتمد على جملة من الأقاويل المطّرحة المتروكة؛ لأنها لا أصل لها، وقد تكون قيلت للتسلية أو إثارة العجب، وهكذا كان حديث خرافة، احتفل المؤلف بهذه الخرافات لينظم منها عقدًا زائفًا أو يرسم لوحة فسيفسائية تسر بعض الناظرين؛ ولكنها عند القرب منها كالسراب، ففي الثغثغات[١] يتساءل عن لسان آدم، واختار اللسان ليس لأنه الاسم المطلق على اللغة كما في القرآن بل لأنه لفظ يحقق له دلالة مشتركة وهي اللغة واللسان الجارحة المتذوقة، ثم ينطلق بذلك إلى ثنائية (المعرفة والعَرْف) في الشجرة التي نهي آدم وحواء عنها ولكن آدم يتذوق عَرف الثمرة من شجرة المعرفة،

(١) جاء في تهذيب اللغة "الثغْثَغَة: الكلام الذي لا نظامَ به".

ويتعمد استعمال العرف لما بين المعرفة والعرف من مشترك في الجذور (ع/ر/ف) وإن كان العرف يشم لا يتذوق إلا على نحو من المجاز، ويمعن في الثنائية حين يشير إلى أن المعرفة تمييز بين الخير والشر، والتمييز شقّ، فيربط هذا بلسان الحية المشقوق، ولا ينسى أن ينقل عن الجاحظ وصفه لسانها، ذاكرًا أنها تخرج لسانها لما يهاجمها الإنسان وكأنها تذكره بما حدث في الجنة، ويسوق المؤلف جملة من النقول المختلفة منها قصة حي بن يقظان، ليرى فيها تلميحًا لخروج آدم من الجنة، ومن الغريب أنه لم يقف عند دلالة الاسم الدال على الحياة واليقظة، فالحياة مشتركة بين الإنسان والحيوان، واليقظة معرفة للإنسان هدته إلى معرفة خالقه، ومهما يكن من الأمر فهو يجمع ببراعة أشتاتًا غير مجتمعات، قد تعجب الناظر فيستطرفها؛ ولكنها أبعد شيء عن عقله.

وأما في (بلبلات)[١] فيتعرض لاختلاف لغات البشر، فيطرح جملة من الأسئلة عن اللسان الأول وسبب اختلاف لسان آدم عن غيره، وتفسير تعدد الألسنة ومتى بدأ ذلك، ويبنى الكلام على زعم أنّ اللسان واحد "كان ذلك لما كانت الأرض بأجمعها تتكلّم لسانًا واحدًا، وتحديدًا قبل بابل"، وأما بابل فبني فيها برج رأى أنه محاولة بشرية للتحول إلى آلهة، وينقل من الكتاب المقدس ما يدل على نزول الرب ليرى البرج وليعاقب بني آدم ببلبلة لغتهم حتى لا يفهم بعضهم بعضًا، ثم يقرن بين خطأ بناء البرج وخطأ تذوق ثمرة شجرة المعرفة، إذ تفرق الناس واختلفت ألسنتهم، ثم نجده يمضي في ذكر آيات قرآنية يستخلص منها أن هذا الاختلاف

(١) جاء في لسان العرب "والبَلْبَلَة: اخْتِلَاطُ الأَلسنة. التَّهْذِيبُ: البَلْبَلَة بَلْبلة الأَلسن".

ليس عقابًا للبشر بل هو شرط للمعرفة، وينتهي الكلام في (البلبلات) من غير إجابة شافية لما قدم من أسئلة، وأنى تجاب تلك الأسئلة في غياب تاريخ البشرية الطويل؛ فعمر اللغات أبعد من أن يعرف أصله ومنشؤه؛ ولذلك أُخرج درسُ أصل اللغة من علم اللغة. ولكن المؤلف يعالج هذا في (جنة عدن بابلية) فيذكر تساوي اللغات في نظر الله؛ ولكن حركة الشعوبية جعلت العرب يستغلون نزول القرآن بالعربية ليزعموا تفوق لغتهم وأنها لغة أهل الجنة، على أنه ينطلق من قول لابن جني إلى أن آدم وولده يعرفون جميع الألسنة، ويزعم أنّ البشر لما تفرقوا استقل كل فريق بلسان، ثم يعرض لنشأة اللغة من حيث التوقيف وينقل أقوال من يذهبون إلى ذلك كابن حزم الذي لا يجزم باللغة الأصلية، ويرى فجاجة دعوى من قال إنها لغة أهل الجنة محتجين بنقل الله خطاب أهل الجنة بالعربية؛ إذ ليست هذه بحجة؛ لأن الله نقل خطاب أهل النار بالعربية أيضًا، ومهما يجد القارئ في هذه الكتابات من سياق ممتع فإنه لن يجده في قياس مقنع.

(٢)

يبدأ عبدالفتاح كيليطو حديثه عن (أقدم قصيدة في الدنيا) بسؤال "إذا كانت العربية عند بعض المؤلِّفين هي لسان الجنة، فماذا سيكون لسان الهبوط؟ هل[١] سيستمر آدم، بعد طرده من جنَّة عدْن، في التكلُّم بالعربية، أم سَيُعَبِّرُ بلسان آخر؟"، ونجده في محاولة الإجابة عن السؤال يعيد فضل معرفة الجواب إلى الكتابات التي أثيرت حول قصيدة نسبت إلى آدم يرثي بها ابنه هابيل، "لأنّ آدم لم يكن

---

(١) لعل الصواب استعمال همزة الاستفهام فيقال أسيستمر؛ لأنه سؤال عن التصور لا التصديق.

أول نبيٍّ فحسب، وإنَّما كذلك أوَّل شاعر". ويمضي المؤلف يحكي النزاع بين ابني آدم مستعينًا بما ورد في القرآن الكريم وكتب التاريخ والتفاسير وبما جاء في سفر التكوين، ويشير إلى الأوائل فالغراب يسنّ الدفن، وقابيل أوّل من سنّ القتل، وهابيل أول قتيل من بني آدم، وآدم أول من نظم قصيدة رثاء، ويدخلنا في مضمون القصيدة التي تحكي عن تبدل وخراب وبهذا تكون الأرض معلنة عن حدادها، ويورد المؤلف القصيدة من مصادرها العربية فيذكر أنّ أول من ذكرها القرشي في جمهرة أشعار العرب. ثم يذكر أن الطبري يذكر القصيدة بسلسلة إسناد يوصلها إلى عليّ بن أبي طالب ﵁، ولا يغفل المؤلف أشعار أخرى كشعر إبليس الذي يرد به على آدم وما نسب إلى بعض الملائكة، ويورد أبيات نسبت لحواء تحثه على الرضا بالقدر. وينتهي الموضوع من غير جواب حاسم عن السؤال الذي افتتح به الموضوع؛ لأن القضية لَمّا تنته بعد فهي متصلة في الموضوع الذي يليه وهو (شاعرٌ أم نبيٌّ؟) حيث تطرح أسئلة عن صحة المرثية ولغتها وروايتها، ويبدأ بما كَذّب به ابنُ عباس من نسب الشعر إلى آدم، ويقرن المؤلف ذلك بنفي قول الشعر عن النبي ﷺ حين اتهمه بعض قريش بذلك، وينتهي إلى أن القصيدة موضوعة مصنوعة، والحق أنّ هذا بيّن واضح ليس بحاجة إلى شواهد أو أدلة. وينتقل المؤلف إلى لغة آدم فيذكر تأكيد الثعلبي أن لغة آدم بعد هبوطه من الجنة كانت السريانيّة ويورد ما ذكره السيوطي من قول ابن عباس أن آدم لغته في الجنة العربية ثم سلبها بعد عصيانه ثم ردت إليه لما تاب الله عليه، ويمضي المؤلف في إمكان كون المرثية نظمت بالسريانية أو قيلت نثرًا بالسريانية ويعرج على رأي الجاحظ في صعوبة ترجمة الشعر، ولكنه يعود للمرثية ليرى أنها إن قيلت بالسريانية فلا ضير من نسبتها لنبي؛ لأن

السريانية وغيرها من اللغات غير العربية بعيدة عن الشعر، ويستنتج من هذا كونها قيلت نثرًا وظلت تنتقل من جيل إلى جيل حتى انتهت إلى يعرُب ملك اليمن الذي يقال إنه أول من تكلم بالعربية، وجملة ما يتردد في بقية الموضوع توحي بالغرابة وجو الأساطير وجانب غير معقول من مرويات التراث بأخبار غير مؤكدة، ولكن المؤلف لا ينتهي إلى قول فصل في شأن المرثية فيسلمنا إلى الموضوع الذي يليه (آدم أو النسيان) حيث يبسط الحديث عن أثر أدبي هو رسالة الغفران للمعري الذي ورد فيها لقاء ابن القارح في الجنة آدم عليه السلام ليسأله عن بيتين منسوبين إليه فينكر آدم معرفته بهما، ويتساءل المؤلف أيكون نسي شعره والإنسان من النسيان، ويختم المؤلف بقوله "طرد آدم من الجنة فنسي العربية وتكلم السريانية ولما عاد إلى الجنة نسي السريانية وتكلم العربية"، وهو بهذا يصل إلى أن آدم "إنسان لسان واحد"، وأما المرثية فكان آخر مقال لها حديث عن (مصير قصيدة). ويعرض المؤلف لما سماه مسألة شكلية ذكرها القرشيّ وهي الإقواء؛ إذ رَويُّ البيت الثاني مكسورٌ خلافًا لرَويّ البيت الأول المضموم، وذكر أنها ظاهرة مقبولة في الشعر الجاهلي ليصل إلى أنها قد تكون دليلا على قدم الأبيات المنسوبة إلى آدم؛ ولكن الرواية قد تصححه، جاء في تفسير البحر المحيط "وقول الزمخشري في الشعر : إنه ملحون ، يشير فيه إلى البيت وهو الثاني :

تغير كل ذي لون وطعم   وقل بشاشة الوجه المليح

يرويه بشاشة الوجه المليحِ على الاقواء، ويروى بنصب بشاشة من غير تنوين، ورفع الوجه المليح. وليس بلحن، قد خرجوه على حذف التنوين من بشاشة، ونصبه على التمييز، وحذف التنوين لالتقاء الألف واللام"، والأمر الذي أميل إليه

أنّ رواية الكسر مُتوقف فيها وأنّ الصحيح (المليحُ) بالضم لا الكسر؛ فلعل رواية الكسر استجابة لأحكام نحوية، أمّا الشاعر فلا يهمه الإعراب بل استقامة النغم والإنشاد، وليس في الرفع معاندة لقواعد النحو؛ إذ للنحويين مخرج آخر لا أدري لم أغفل أمره وهو تخريجه على قطع النعت، فيكون عندهم خبر مبتدأ محذوف (هو المليح)، ثم عرض لرأي من قال بانتحالها بسبب رداءتها، ولكنه يرى أن هذا القول إن لم يكن متحيزًا فهو جزئي لم ينظر إليها في سياقها ومشهدها المسرحي، فهي مكملة للقصة المأساوية وأن الناظم المجهول قد صنع الأبيات التي كان لابد أن يقولها آدم.

وإن من الجلي أنّ تقليب الأمر ومناقشته مهما تكن طريفة ممتعة صالحة لتزجية الوقت فإنها لا ترضي العقل، فإن قبلت فمن باب الفنون القولية، والمؤلف بلا جدال قارئ متمرس بالتراث؛ ولكنه عرض لمسائل معروفة نتائجها مقررة على الصحيح، فلا أحد يعرف على وجه اليقين لغة آدم، وما نسب إليه من شعر منحول كما قرر القدماء وانتهى إلى تقريره المؤلف، غير أنه بيّن سرّ الانتحال وهو رغبة في إكمال مشهد المأساة الآدمية بوضع قصيدة تقيدها.

ماضي مفرد مذكر

هذا عنوان كتاب قرأته للأستاذة أميمة الخميس، وهو من الكتب المهمة في رأيي؛ لأنه رؤية من الداخل ناقدة لا مدافعة، ويتصف بصراحة ووضوح لا تعكر صفوه جمجمة، والعنوان يكشف عن العلة التي أرادت المؤلفة أن تجعلها سببًا لما تصفه من أحوال تعليم المرأة بخاصة وشؤونها بعامة، وهذه الصفات هي عنوان المدخل الثاني من مداخل الكتاب، والصفات كما ذكرت هي سمات الميزان الصرفي، وتقصد به (فَعَلَ) فهو ماض في زمنه، وهو مفرد في عدده، وهو مذكر في جنسه، وهكذا صيغت ثقافتنا، وهذه الانطلاقة فكرة ذكية بلا شك؛ ولكنّ حديثها عن الإجراء الوزني، في رأيي، غير موفق؛ بل هو معاند لفكرة الميزان الصرفي نفسه الذي يهدف إلى بيان بنية اللفظ أمجرد هو أم مزيد، أفيه تقديم أم فيه تأخير، وليس القول بالزيادة تهميشًا بل هو بيان لما هو غير مشترك بين ألفاظ شجرة الكلمات المشتقة، وكان يمكن بقليل من الصياغة علاج الأمر.

تكشف الأستاذة أميمة الخميس بهذا الكتاب عن عالمين أنثويين أما أحدهما فخارجي أي البيئة التعليمية التي عاشت فيها طالبة ثم معلمة ثم إدارية، وأما الآخر فداخلي أي ما يدور في ذهنها من أفكار تقارب أفكار مثقفاتنا السعوديات وهي أفكار تدور حول قضايا المجتمع وبخاصة المرأة في بلادنا التي ما زالت تعاني من الظلم والإقصاء وحرمانها من مباشرة شؤونها بسبب المبالغة بالوصاية، وأرى الأستاذة أجادت بوصف الوضع التعليمي للبنات، وهو وضع لا يختلف كثيرًا عن وضع تعليم الذكور من حيث سوء البيئة التعليمية وضعف المناهج وغياب الأهداف

البعيدة، وكان منها إلحاح على بيان تضييق الإدارة الرجالية على مدارس النساء؛ فالأسوار عالية كأسوار السجون والمريول موحد كئيب اللون واسم الطالبة عورة فلا تنادى به، وكل ذلك صحيح؛ ولكنه في الواقع ليس فرضًا من الإدارة الرجالية بقدر ما هو فرض من المجتمع الذي يطيل أسوار بيوته ويلزم الوافدة بالعباءة ويغطي الخادمة من رأسها إلى أخمص قدميها، والتعليم النسائي بدأ كشمعة في مهب الريح كان لابد لها من كفّ تحوط لهبها أن يعصف به، فكان ما كان من إدارة دينية رجالية، وكانت رجالية للضرورة في البداية، وكل ما قالته من سوء في الإدارة صحيح في معظمه، ورأت أن من غير المقبول أن تستمر الإدارة الرجالية فلا يشب التعليم النسائي عن الطوق فتكون له إدارة نفسه، ثم كانت المفاجأة حين أوكل إليها شيء من الإدارة فرأت نفسها في دوامة لا تمكنها من فعل شيء يذكر، وبلغ الأمر ذروته حين أوصلت امرأةٌ إلى مركز قيادي عال فإذا هي تذوب في ملح الإدارة العامة، وهنا تكشف للأستاذة- ولنا أيضًا- أن الأمر أكبر وأعم وأخطر، وأن المشكلة في الإدارة نفسها من غير تمييز بين أنثى أو ذكر، وهو أمر ظهر واشتهر في كثير من الأداء الحكومي وغير الحكومي حتى وصف أحيانًا بالفساد.

جاء الكتاب بلغة تراوح بين التقريرية التي تناسب الوصف والسردية التي تطرزها جماليات بلاغية تفثأ سورة الوصف المباشر، وتنم عن قدرات الكاتبة الإبداعية؛ ولكن الكتاب لم يسلم من بعض الأخطاء اللغوية التي تؤخذ على المؤلفين عامة ويؤاخذ بها معلمو اللغة بخاصة، وربما كان مردّ ذلك إلى أن بعضهم يدفع بالكتاب للطباعة ثم لا يعود إليه بفضل مراجعة، فيخرج بما يشوب جماله.

مظاهر الخلاف النحوي والصرفي

أكرمني ابني الدكتور عبدالله راجحي محمد غانم بنسخة من رسالته لدرجة الدكتوراه المقدمة لجامعة عدن، وعنوانها (مظاهر الخلاف النحوي والصرفي عند ابن فلاح اليمني في كتابيه: المغني وشرح الكافية)، بإشراف الصديق العالم الجليل الدكتور عبدالله صالح بابعير وجاءت الرسالة في ٨٨٢ صفحة، وليس غريبًا أن ظهرت في هذا الحجم الكبير؛ لأن قضايا الخلاف كثيرة، ومهما كان السعي للاختصار - وهو ما صنعه الباحث- ظل الأمر فوق الطاقة، وأحسب أن سعة الموضوع وكثرة القضايا من الأمور التي أجاءت الباحث إلى الاجتزاء في بحث بعض القضايا والاكتفاء بالترجيح.

يثير عنوان الرسالة بعض الإشكال عندي؛ إذ المتصفح لعنوانات فصول الرسالة ويطلع على محتواها يجد أنها تدور حول قضايا الخلاف النحوي أو هي ظواهر الخلاف أي الظواهر اللغوية التي وقع فيها الخلاف، أما مظاهر الخلاف فأحسبها الجهات التي حدث فيها الخلاف، أي ما يدل على الخلاف بينهم، فمن مظاهر الخلاف الموقف من النصوص اللغوية المعتبرة في التقعيد، والموقف من البيئات اللغوية المرتضاة للاستشهاد اللغوي، وربما أراد الباحث بالمظاهر القضايا الكبرى التي تضم جملة من المسائل المندرجة تحتها وهي عنوانات فصول الرسالة الثمانية. ومن الأمور التي يثيرها العنوان كونه دراسة للخلاف من وجهة نظر ابن فلاح؛ ولكن الباحث جعل كتابي ابن فلاح منطلقًا لجمع قضايا الخلاف بعامة وإبداء الرأي فيها حتى إنه حرص على تلمس موقف الباحثين المحدثين من بعض

تلك القضايا، وحاول الاستفادة من جهود علماء الساميات لترجيح الأقوال.

أدرك الباحث أهمية كتابي ابن فلاح وبيّن أنهما كأنما أُلِّفا في الخلاف النحوي، فهما من أكثر كتب النحو حصرًا لمسائل الخلاف والعناية بها استقصاءًا للأقوال وحشدًا للحجج، مع تناول ناقد فهو يقبل منها أو يردّ معتمدًا على ما يُهدى إليه من أدلة وحجج بالغة، وهو أسلوب لم يجده الباحث عند من سبقوا ابن فلاح. ومع أن أبا حيّان ثم السيوطي قارباه في طريقته لم يبلغا شأوه، وهذا ما دفع الباحث إلى الاعتماد على كتابي ابن فلاح منطلقًا لدرس قضايا الخلاف في رسالة مؤلفة من ثمانية فصول بمقدمة وتمهيد وخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع وفهارس فنية وخلاصة للبحث بالعربية والإنجليزية.

اتخذ الباحث طريقة موحدة في درسه قضايا الخلاف؛ إذ يجعل للقضية عنوانًا يورد تحته ما ذكره ابن فلاح من أقوال خلافية في المسألة، وينسب الأقوال إلى النحويين ومن تابعهم أو وافقهم ومن رجحه من المحدثين مثل مهدي المخزومي والسيد رزق الطويل، ثم يبين حجج النحويين، وقد لا يكتفي بما ذكره ابن فلاح من أقوال خلافية في المسألة بل يورد ما يسميه "قول آخر في المسألة". وينتهي بتقرير مذهب ابن فلاح ويختم برأيه أو ترجيحه هو بعد قوله "أما الباحث...إلخ".

والقارئ يدرك من تصفحه لهذه الرسالة الجهد الكبير الذي بذله الباحث والمعاناة التي عاناها، وهو عمل فوق طاقة الباحث الفرد؛ إذ مسائل الخلاف من الدقة والتشعب والعمق ما يحوج إلى فريق عمل، والقضايا الخلافية تستحق أن تدون في موسوعة شاملة لهذا الغرض.

وقد أحسن الباحث أن ذكر في مقدمته أن "البحث في هذا الموضوع ليس

الغاية من ورائه مجرد البحث في قضايا الخلاف؛ وإنَّما قد يساعد البحث في هذا الموضوع في تفسير كثير من الظواهر اللغوية التي يدرسها علم اللغة الحديث، كما يمكن أن تظهر دراسات جادة، وجهود مخلصة تفيد من مسألة الخلاف النحوي والصرفي في تقديم نحو عصري خال من التعقيد والاضطراب من خلال مقاربة الآراء والخروج بنموذج مقبول يأخذ من كلّ فريق أحسن ما عنده وينبذ ما دون ذلك وراء ظهره". وما يشير إليه الباحث مهم جدًّا فما العربية بحاجة إليه هو معالجة نحوها العظيم انطلاقًا منه إليه من غير فرض مقولات غريبة عنه، غير أن استلهام تجارب الآخرين والاستفادة منها في هذه المعالجة أمر محمود ما دام دائرًا في فلك النحو العربي الموضوع بعد نظرة وصفية دقيقة إلى جمهرة الاستعمال العربي الموثوق بعروبته.

معاني الكلام في النظرية النحوية

أهدى إليّ الأستاذ النحوي النابه معاذ بن سليمان الدخيّل كتابه (منزلة معاني الكلام في النظرية النحوية العربية:مقاربة تداولية)، وهو ثمرة مراجعة شاملة مستوعبة لمعطيات النحو العربي في ضوء رؤية لسانية عمادها (التداولية) التي تحتفل باستعمال اللغة؛ ولذلك تُولي أهمية كبيرة لمعاني الكلام التي يرومها المستعملون اللغة، فيكون التحليل اللغوي منطلقًا من تلك المقاصد مراعيًا لها.

كان هذا الكتاب في أصله رسالة علمية عنوانها (منزلة معاني الكلام من علم الإعراب: شرح الرضي على الكافية أنموذجًا)، وهذا يفسر ما نراه من احتفاء بآراء الرضي في هذا الكتاب، ويفسر أنّ المقاربة التداولية وإن وضعت في عنوان الكتاب لم تظهر بما يقنع القارئ، ودرس منزلة معاني الكلام هو ردّ عمليّ لمقولة ترددت عند بعض المحدثين من أمثال إبراهيم مصطفى الذي قال: "إنهم رسموا للنحو طريقًا لفظية، فاهتموا ببيان الأحوال المختلفة للَّفظ من رفع أو نصب من غير فطنة لما يتبع هذه الأوجه من أثر في المعنى. يجيزون في الكلام وجهين أو أكثر من أوجه الإعراب، ولا يشيرون إلى ما يتبع كل وجه من أثر في رسم المعنى وتصويره. وبهذا يشتد جدلهم ويطول احتجاجهم، ثم لا ينتهون إلى كلمة فاصلة"[(١)].

بدأ الكتاب بمهاد نظري رائع يشرح مفهوم التداولية، ثم تتابعت موضوعات الرسالة الأصلية مع محاولة لإقحام مفاهيم التداولية في أنحاء متناثرة في الكتاب، وكان يغني عن ذلك كله الإشارة التي تتكرر في مواطن مختلفة ويلح المؤلف على

(١) إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، ص٨.

إبرازها وهي مراعاة النحويين وبخاصة الرضي للمعنى في تحليله للجمل وتفسيره للتراكيب، ولكن صنيع النحويين ومنهم الرضي في استغلال معاني الكلام قد يكون موجهًا لرأب صدوع يواجهونها في النظرية النحوية، فظاهر الأمر رعاية المعنى وباطنه رعاية الشكل، ولعل من أوضح أمثلة هذا معالجة أمر النعت المقطوع، وتفسير العدول بحركته عن مقتضى الإتباع مثل (جاء زيدٌ الكريمَ) بنصب الكريم، فمحاولة تفسير الإعراب هي التي جعلتهم يفترضون عاملًا أحدث هذا التغير الإعرابي، وهو أمر يجعل النعت من عناصر جملة أخرى، وهذا في رأيي معاند لمقصد المتكلم الذي لا يعدو مدح الفاعل بوصفه بالكرم، وأما جعله معمولًا لفعل وتجزيء الجملة فمقصد نحوي قُبل أو توقف فيه، فلا شكّ في أن المتكلم أراد مدح زيد فعدل عن المتابعة اللفظية تنبيهًا منه إلى ذلك، كما أنّ المتكلم حين يسأل صاحبه وهو يحمل ورقة: أعندك قلم؟ لا يريد منه جوابًا للسؤال بل يريد أعطني قلمك، وهذا لا يغير من تركيب الجملة الاستفهامية وإن تغيرت دلالتها في هذا السياق.

تخير المؤلف مصطلح (معاني الكلام) وفضله على (أقسام الكلام) وإن كان هو المصطلح الذي استعمله الرضي، وعلل تخيره بأن مصطلح (أقسام الكلام) قد ينصرف إلى المراد بأقسام الكلم، أي التصنيف الصرفي للكلم، وهو ما وقع لبعض النحويين واللغويين من قدماء ومحدثين؛ إذ استعملوا (أقسام الكلام) مريدين (أقسام الكلم)؛ ولكن معاني الكلام أوسع من أقسام الكلام التي هي الإخبار والاستفهام والأمر والنهي والنفي والطلب وغيرها من هذه المجالات، ومن هنا كان يمكن أن يكون العنوان "منزلة المعنى في النظرية النحوية".

ولعل من الأمور التي كان ينبغي شرحها في هذا العنوانِ المرادَ بالنظرية النحوية،

وفي التراث عرفنا نظريتين مهمتين نظرية العامل المفسر للتصرف الإعرابي، ونظرية النظم المفسرة للتصرف الموقعي للألفاظ في التركيب.

ويذكرنا هذا الكتاب بأهدافه التي شرحها بطائفة من الكتب التي عالجت التراث، لتثبت سبقه وتقدمته، فهو يقول في أحد أهدافه "إبراز قيمة التراث النحوي بالكشف عن حدس النحاة بكثير من المفاهيم، والمبادئ التي بشرت بها اللسانيات الحديثة؛ مما يدحض زعم القطيعة المعرفية بين التراث وما يجدّ من نظريات حديثة"، وإن من المحزن أن تعلق قيمة التراث بمدى قربه من اللسانيات لا أن تعلق بتاريخه المتواصل، وإن يكن من قطيعة بين هذا التراث وما يجد في اللسانيات فهي قطيعة لا تعيبه أو تقدح فيه حتى نفتش في جوانبه عن ما جعلنا نعلقه بنظريات لغوية ما فتئت تنسخ الواحدة منها أختها، وإنما قيمة هذا التراث في أنه مهاد نظري متين؛ ولكنه بحاجة إلى أن نصقله ونعيد النظر فيه ليكون صالحًا لتعليم اللغة تعليمًا يجمع بين الوضوح والدقة والسهولة. وليس من بأس أن نستفيد من فضائل كل النظريات اللغوية الأخرى بالقدر المناسب الملائم للغتنا ولنظامها اللغوي. وإن يكن من قطيعة فليس للتراث بل للأمة بقطيعتها وتخلفها عن الحضارة العالمية في كل المجالات، وأما تراثها فكان حلقة من حلقات الحضارة العالمية المشرفة.

مقدمة في تاريخ النحو

هذا اسم كتابي الذي تفضل بنشره (مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية) وهذا نص مقدمته أعرضها لمن قد لا يتيسر له أن يطلع على الكتاب.

ظاهرتان في تراث العربية لا ينتهي منهما العجب أولاهما الشعر الجاهلي وأخراهما النحو العربي؛ فكلا الظاهرتين تبدوان شامختين وما زال لهما حضورهما المؤثر في ثقافة العرب إلى يومنا هذا.

وأما النحو العربي كما ظهر في كتاب سيبويه فقد ظل غضًّا يتجلى في آثار الدارسين، وما زالت الدراسات تتوالى متناولة مضمونه أو منطلقة منه أو مقتبسة؛ فمعظم ما يكتب في الدرس النحوي في عصرنا الراهن معتمد بشكل أو بآخر على مدونة النحو الأولى وهي كتاب سيبويه، وعبر محمد العياشي صاري في بحث حديث عن أن النحو العربي كان لسانيًّا قبل أن تعرف اللسانيات.

إن مبعث العجب في هذا النحو أننا لا نجد له من الإرهاصات ما يكشف عن سر منشئه كشفًا تطمئن إليه النفوس. وكل محاولة لربطه بأمة أخرى تجد من ضعف الحجة ومن تهافت الدعوى ما يصرف النظر عنها. ومن عجائبه ما أسلفناه من استمرار حضوره على الرغم من تتابع الجهود والدراسات ولئن عجب بعض اللسانيين من تمسكنا به واطمئناننا إليه فليس مرد ذلك إلا على قوة إقناعه وثبات صرحه وليس قولنا هذا بمعش النظر عن عيوب ظاهرة في بعض مفاصله ولا ظهور ثقوب في إهابه؛ ولكن العلوم مهما استقام كيانها واستوى عودها هي جهود بشرية تحتاج إلى فضل المراجعة ومعاودة الدرس ولكن الأركان لا تزول والصروح لا تتداعى.

إن من المغامرة الزعم بأن كتابة تاريخ النحو كتابة ترضي العقل المتطلع وتطمئن إليها الأفئدة ممكنة؛ لأن النحو تاريخ أمة طال عهدها وتنوعت إبداعاتها فليس من الأمر الهين أن يُزوى ذلك في سفر وإن طال وتعددت أجزاؤه. ومن أجل ذلك آثرت أن أكتب مقدمة يسيرة هي أدنى إلى التعريف بمنشئه وببعض رجاله وكتبه وهي مقدمة موجهة للطالب المبتدئ وللقارئ الذي يقنع بخبر النحو دون أن يلج في تفاصيل أمره.

كان هذا الكتاب في أصله مذكرة كتبت على عجل لتفي بدرس تاريخ النحو لبعض طلاب قسم اللغة العربية في جامعة الملك سعود. ولَمّا كان المقرر في نظري أقرب إلى الثقافة منه إلى العلم المتعمق جاءت صياغة الكتاب على هذا النحو الذي يتوخى الوضوح في العبارة والمباشرة في الطرح والاجتزاء بالمعالم الكبرى. ويتألف من تمهيد وأربعة فصول. ويفي التمهيد بما يمكن أن يعد محاولة لتلمس نشأة النحو العربي، وأوليات هذا النحو. وأما الفصل الأول فتناول المراحل المفصلية في النحو العربي وهي مرحلة النشأة ومرحلة النضج ومرحلة التدوين الأولى. وأما الفصل الثاني فهو يتناول أكثر مظاهر النحو حضورًا وهو الخلاف بين البصريين والكوفيين في محاولة لبيان أسبابه وأصوله المعتمدة. وأما الفصل الثالث فقد اهتم بانتشار النحو في البيئات العلمية الأخرى. وأما الفصل الرابع فهو الوجه الآخر لتاريخ النحو وهو الحديث عن الجهود النحوية نفسها متمثلة في كتب النحويين فصنفت من حيث ميادين درسها وطرائقها في التأليف. حاولت في هذا الكتاب تجنب ما صاحب تاريخ النحو من مؤثرات سياسية أو اجتماعية لأن ذلك أمر يطول بيانه وتتعدد مسالكه ولم يظهر منه إلا ما لابد من ظهوره.

ولعل من الجدير بالذكر أني اعتمدت في إعداد هذا الكتاب على مصادر أساسية لابد من ذكرها هنا لأهميتها وإن كانت مذكورة في متن البحث وقائمة المصادر والمراجع، وأما أولها فهو كتاب محمد خير الحلواني (المفصل في تاريخ النحو العربي)، وكتاب عبدالرحمن السيد (مدرسة البصرة النحوية نشأتها وتطورها)، وكتاب عبدالحميد السيد طلب (تاريخ النحو وأصوله) وكتاب مهدي المخزومي (الدرس النحوي في بغداد). أرجو أن أكون وفقت إلى الغاية التي أردت، وأرجو أن يجد القارئ فيه ما يسر الخاطر ويمتع النفس ويقنع العقل.

مميزات الشاعر

هذا عنوان كتاب الأستاذ الأديب عبدالرحمن بن زيد السويداء، وهو واحد من سلسلة أعماله المتفاوتة طولًا وقصرًا؛ ولكنها متفقة في خطّها الجاد وشمولها للثقافتين الفصيحة والعامية، وكنت اطلعت على بعض تلك الأعمال واستفدت منها في أبحاثي، ومنها (النكهة الطائية في اللهجة الحائلية) و(فصيح العاميّ في شمال نجد)، وأما هذا الكتاب فهو نتيجة قراءة مذهلة للتراث الشعري العربي الفصيح وجملة من أشعار المعاصرين المبدعين، انتخب منها الأستاذ عبدالرحمن ما يعبر عن ذوقه الفنيّ، وحسه المرهف، وساقه في هذا الكتاب مرتّبًا ترتيبًا هجائيًّا، وإن لم يكن هذا الترتيب لازمًا في مثل هذا الكتاب؛ بل لعل موضوع القطعة المختارة أولى في الترتيب، وهو يريد من اختياراته هذه أن يبين مميزات الشاعر التي جعلها عنوانًا تفسيريًّا للعنوان الرئيسيّ للكتاب، إذ سطر تحت العنوان قوله (فنان رائع، رسام بارع، مصور حاذق، نحات ماهر)، إذن فهذه هي السمات التي تميز بها الشاعر، والحق أن للشاعر مكانة عالية في حياة العرب وأثرًا بالغًا؛ فقد كان لسان قبيلته، المدافع عنها، المفاخر بأحسابها وأنسابها، والشاعر بقدراته الإبداعية اللغوية الخلاقة يتجاوز حدود النظام اللغوي بما تقتضيه القيود الشعرية، فكان أن التمس له العذر بما سُمّي الضرورة الشعرية، بل بالغ الأخفش في منحه الحق أن يخالف في نثره أيضًا، ولعله يفترض أن نثره سيكون له من السمو وعلو القيمة الفنية ما يوازي الشعر، والحق أن الإبداع الشعري الأصيل يدهش المتلقي بغض الطرف عن المستوى اللغوي أفصيح هو أم لهجيّ، فما زلنا نستمع إلى قصائد لهجيّة ذات مستوى فنّي رائع قد يتفوق على كثير من القصائد الفصيحة.

قدم الأستاذ عبد الرحمن بمقدمة شرح فيها ما أجمله في عنوان كتابه، فتحدث عن الشاعر من حيث هو فنان رائع مشيرًا إلى قدرة الشاعر على تخير ألفاظه ووضعها في مواضعها، وآية ذلك ما نلاحظه من أشعار نزار قباني التي لا تختلف كلماتها عن كلمات الحديث اليومي؛ ولكنّ وضعها بما سماه السويداء هندسة الكلمات هو ما يجعلها شعرًا فاتنًا، يقول السويداء "لو أخذنا بيت شعر ونثرنا كلماته لأصبح كلامًا عاديًّا؛ لكن الشاعر بفنيته وتقنيته يمسك هذه الكلمات يختار الكلمة أو إحدى اشتقاقاتها أو مفرداتها يقدم فيها ويؤخر يبدل ويغير يضيف ويحذف بحيث يضع كل كلمة بمكانها الصحيح"، وما يقوله الأستاذ هنا هو ما حرره عبدالقاهر الجرجاني حين تحدث عن النظم ليفسر الإبداع تفسيرًا نحويًّا بأنّ المبدع إنما يتوخى الإمكانات التي يتيحها النظام اللغوي.

وتحدث الأستاذ عن الشاعر بصفته الرسام البارع الذي يستطيع أن يخلق بكلماته المناظر الخلّابة، فهو بأوصافه وتشبيهاته وكل طاقات البيان والبديع يرسم من دقائق الصور ما يجعلها ماثلة للعيان، وهو أيضًا مصور حاذق إذ ينقل بكلماته ما قد نألف مشاهدته ونعرف هيأته، فإذا الشاعر الرائع ينقل لنا تلك المشاهد كأنا نراها بأعيننا؛ ولكن على نحو مدهش حيث تصور لنا الكلمات تفاصيل الحدث أو تفاصيل المشهد، وهو نحات ماهر يعرف كيف يسيطر على إظهار تفاصيل الجسد وانحناءات القدّ كل ذلك بأدوات من كلمات، وتطرق الأستاذ إلى ما قد يمتلكه الشاعر من قدرة اجتماعية قد تنقذ الحياة وتدرأ الشرّ، فكلماته التي تأخذ بمجامع القلوب وتلين منها ما كان كالجندل كفيلة بفعل الأعاجيب.

والأستاذ يضرب الأمثلة لكل ما يقول، وهي أمثلة يضيق الحيز عن ذكرها

فللقارئ أن يقرأها في الكتاب الجدير بالقراءة حقًّا، ويقف الأستاذ قارئه عند أمر مهم هو التشبيهات في لغة الشعر، وهو أمر التفت إليه النقاد ونبهوا إليه؛ ولكنه يتوجه به إلى الشباب الذين قد لا يدركونه وقد صرفتهم حياة العصر عن قراءة الأشعار أو استماع الشعّار، فالشاعر قد يشبه المرأة أو أجزاء منها بما هو أدنى منها جمالًا من عناصر البيئة البدوية كالظباء أو المها، وإن المتأمل ليدرك قوله، ولكن الاستعمال اللغوي عجيب؛ إذ تلك التشبيهات وما تتضمنه من مفردات إنما هي مثيرات لصور مفارقة لما تشير إليها؛ فهي إنما تثير من الصور التجريدية الخيالية ما يفوق الحقيقة، ولو نظرنا إلى لغة الشعر نظرنا إلى اللغة الإشارية لنفرنا من تلك الصور التي ينقلها لنا من مثل قول امرئ القيس:

وكشحٍ لطيفٍ كالجديل مخصرٍ ... وساقٍ كأنبوبِ السقي الْمُذلّلِ

وَتَعْطو برَخْصٍ غيرِ شَثْنٍ كأنّهُ ... أساريعُ ظبيٍ أو مساويكُ إسحلِ

فأي جمال في تشبيه الساق بالأنبوب أو أنامل المرأة بالدود أو المساويك، جاء في معجم العين "واليَسْرُوع والأسروع: دودٌ تكون على الشوك والحشيش"، ولكن الذهن يتجاوز ذلك إلى ما تثيرة الصورة من مثالٍ خياليّ.

ضمّ الكتاب مقطوعات قصيرة ممتعة عبرت عن ذوق الأستاذ وسعة اطلاعه على التراث الشعري الغزير، ودلت على حسن تخيره.

نقد العراقيين المعجم العربي القديم

تفضل عليّ أخي الدكتور علي خلف حسين العبيديّ بنسخة من رسالته للدكتوراه التي نوقشت حديثًا، وعنوانها "نقد المعجم العربي القديم في دراسات اللغويين العراقيين المحدثين من ١٩٥٠إلى ٢٠١٠"، جعلت الرسالة في مقدمة وتمهيد وبابين ذوَي فصول، وخاتمة. عالج في التمهيد جملة أمور كان البحث في غنى عنها على فضلها ومنفعتها وبخاصة الحديث عن العمل المعجمي قبل الإسلام اعتمادًا على النقوش والمعثورات الآثاريّة، وأما الباب الأول فعنوانه (المعجم العربي القديم بين أصول اللغة وعصور الاحتجاج) وهو عنوان قلق في نظري، وجعل الباب في ثلاثة فصول، أما الفصل الأول فعنوانه (السماع والمعجم العربي) وهو عنوان غريب؛ إذ الهدف بيان أثر هذا الأصل في تأليف المعجم وعلاقته به، فكان يجب أن يفصح العنوان عن مضمونه على نحو أوضح، وتضمن هذا الفصل مبحثين أحدهما عن حدّ السماع ومفهومه والآخر عن السماع في معاجم الألفاظ أولًا ومعاجم المعاني ثانيًا، وجعل قسيمًا ثالثًا سماه (السماع والمعجم العربي رأي وبيان) بيّن فيه رفضه للتحديد الزماني والمكاني لما يحتج به، وأنا معه في ذلك من حيث الألفاظ المعجمية ذات الجذور العربية والأبنية العربية، ولذلك أدعو إلى إحياء حركة جمع جديدة لما في بيئاتنا المختلفة من ألفاظ، وإلى ضمها إلى المعجم الحديث واستعمالها في لغتنا استعمالًا فصيحًا. ولا نجد في هذا الفصل صدى لدراسات العراقيين. وكذلك في الفصل الثاني (القياس) الذي جعله في مباحث أولها (القياس حدّه وموقف اللغويين القدامى والمحدثين منه) وكان الأولى أن يقتصر على بيان

موقف المحدثين من اللغويين العراقيين؛ لأنّ هذا هو موضوع رسالته، ولكنا رأيناه شعّب الموضوع وأدخل فيه موقف الغربيين من القياس، وأهم ما فيه الدعوة إلى قبول ألفاظ المحدثين، والباحث مدفوع بحماسته إلى قبول كثير من مقولات المحدثين، وإن كان عليه أن يتوقف فيها توقف الباحث المدقق، فنراه يسكت عن لفظ (عَصْرَنَ) أي جعله معاصرًا، بحجة أنه على بناء (فَعْلَلَ)، وواضح من اللفظ أنه ثلاثي الجذور وألحقت النون فهو من الملحق بالرباعي، فهو على وزن (فَعْلَنَ)، وليست الملحقات مما لبنيتها دلالة مطردة كالجعل أو الاتخاذ أو الإزالة، فالجعل يكون لفعّل بتضعيف العين، فيمكن أن يقال: عصّره أي جعله معاصرًا، كما تقول: سوّده جعله سيّدًا. وأما المبحث الثاني من القياس فهو (موقف المعجميين القدامى من القياس) وهو لمعاجم الألفاظ أولا ثم لمعاجم المعاني ثانيًا، والباحث حشد هنا جملة من النصوص المنقولة من المعاجم كما فعل في موضوع السماع، وليس هذا الدرس بلازم لموضوعه، ومع هذا كان يمكن أن يستخلص من هذه النصوص موقفهم مستشهدًا ببعض النصوص، وبخاصة أنّ المعاجم ينقل بعضها من بعض. ونجد ما أشرنا إليه من استخلاص في ما ختم به الباحث هذا المبحث وسماه (رأي والإيضاح)، وكان ينبغي أن يجعل مادة للبحث. وجعل الفصل الثالث من الباب الأول عن (أصول نظرية الاحتجاج اللغوي ومعاييره)، وجعل هذا الفصل في مباحث ثلاثة: الأول أصول نظرية الاحتجاج اللغوي، والثاني معايير الاحتجاج اللغوي، والثالث مستويات الأداء اللغوي والمعجم العربي، وشن الباحث هجومًا على ما نسب إلى الفارابي من نصّ يحدد الإطار الزماني والمكاني المرتبط بقبائل بأعيانها، واستفاد الباحث من عمل العمايرة عن القبائل الست وفاته ما كتبه أستاذ

اللسانيات في قسم اللغة العربية بجامعة الملك سعود الدكتور حمزة المزيني، وكان كتب "قضية الاحتجاج للنحو واللغة"، مجلة جامعة الملك سعود (الآداب)، المجلد العاشر، الآداب (١)، ١٤١٨هـ، ص ص٣ـ٣٣. وكل هذه الأعمال توقفت في مضمون نص الفارابيّ، ولكن العبيدي دعا كما دعا غيره إلى الاحتجاج بأشعار وكتابات المنشئين على مر العصور العربية التي وصفت بأنها تعدت زمن الاحتجاج، وكذلك الاحتجاج بأقوال المحدثين بالقيود التي نصت عليها المجامع اللغوية، وهو أمر سائغ في مجال توليد الألفاظ وتكثيرها، وأما التراكيب فلعله ينبغي التريث في أمرها فلا يقبل منها إلا ما لا يخرم قاعدة أو يعاند بناءً. ويتضمن هذا الفصل أشياء هي مكان توقف ولكن يضيق المقام عن تفصيلها.

أما الباب الثاني من رسالة الدكتور علي خلف حسين العبيديّ فهو (نقد المعجم العربي في دراسات اللغويين العراقيين المحدثين) وهو كما ترى مطابق لعنوان الرسالة، وهو أمر متوقف فيه، وبالجملة يمكن القول إن الرسالة تبدأ في هذا الباب، وأما ما سبق في الباب الأول فهو على نفعه تزيّد كان يمكن اختصاره في التمهيد على الأقل؛ لأنّ العمل صار بهذا كالعملين. وجاء هذا الباب في فصلين خصص الفصل الأول لنقد معاجم الألفاظ، وخصص الفصل الثاني لنقد معاجم المعاني. تفرع الفصل الأول إلى مباحث أولها نقد ضبط البنية في الأفعال والأسماء، وثانيها نقد العبارة المعجمية، وثالثها نقد المادة اللغوية، ورابعها نقد مناهج التأليف المعجمي القديم. وجاء الفصل الثاني في ثلاثة مطالب الأول لنقد ضبط البنية في معاجم المعاني، والثاني لنقد العبارة المعجمية، والثالث لنقد المادة المعجمية، وغاب مبحث نقد مناهج التأليف على أهميته في معاجم المعاني.

وإن ما يحسب للباحث القدير شجاعته ودقة ملاحظته التي تظهر في النقود التي وجهها إلى جهود اللغويين العراقيين، ومن ذلك قلة دقتهم وتثبتهم في إيراد الصور الضبطية لبعض الأبنية، ثم بناء أحكام على صور مصحّفة أو محرفة في مظانّها الأصلية، وهو أمر رآه يدعو لتقويم تلك الأحكام، وبدا للباحث أنهم ربما لم يتبينوا الفروق الدلالية الناجمة عن تغاير صور الضبط. ولم يعلّل النقاد المعجميون العراقيون في الغالب عللًا مقنعة لتخيرهم ضبطًا ما، وتعدد صور الضبط من غير تنبه أو تنبيه والاكتفاء بعبارات غامضة قد لا يؤدي إلى الجزم بها. وبين الباحث أن الرؤية النقدية عند المعجميين العراقيين المحدثين لم تتضح إلا بعد العقد التسعيني من القرن الماضي، فلم يكن لهم تصور نقدي ينطلقون منه سوى السامرائي والعزاوي، وأما ضبط أبنية ما حققه العراقيون من معجمات فقد نال حظًّا من النضج والوضوح أكثر مما بدا في البحوث والرسائل الجامعية. وذكر أنه ليس لهم منهج واضح في نقد الضبط، بل أوردوا النقود عرضًا في دراساتهم، ولذا رأى أن هذا النقد بحاجة إلى دراسة تحليلية شاملة لرصد الخطل في المتن المعجمي وتأصيل النطق العربي الحديث، وتعليل ذلك تعليلًا علميًّا وفاق العلم اللغوي الحديث. وتوجه الباحث بجملة نقود لمنهج اللغويين العراقيين في نقدهم مادة المعاجم فهم وإن نصوا بوضوح على المستعمل أو المهمل لم يرجعوا إلى مستويات من الاستعمال للتحقق من الاستعمال ولا عادوا إلى المراجع المساعدة التي قد تكشف ذلك، وهذا يشكك في قرارهم بالإهمال، وهم لم يستقروا استقراءًا كافيًا فقد يحكمون بإهمال لفظ وهو موجود في مظانَّ أخرى، وقد يعممون الحكم بذلك كزعم مصطفى جواد أنّ الفيّوميّ لا يجمع (حيوان) على (حيوانات) وهو قد ذكرها في

غير موضع، ولم يكن بعضهم دقيقًا في حكمه كزعم محقق العين تفرده بلفظ (مصك) وهو غير متفرد، ومن ذلك أنهم تابعوا القدماء في أحكام غير دقيقة، ومع ذلك قد تكون عباراتهم مضطربة غير واضحة، وقد يعرفون مادة أغفلتها المعجمات ولكن تعريفهم غير دقيق. ووجه الباحث جملة من النقود إلى منهج اللغويين العراقيين في نقدهم منهج التأليف المعجمي فوصفه بأنه غير واضح الملامح وأنه في الغالب وصف للثغرات في المعاجم من غير تعليل، وأنهم قد خلطوا نقد منهج التأليف بغيره من نقد للبنية والعبارة، ووقفوا عند قضايا لا تعد من النقد المعجمي كنسبة العين للخليل، ورأى الباحث أن مِن ما نقدوا به القدماء مردود بما أوردوه في مقدمات معاجمهم وأن القدماء التزموا بمنهجهم غالبًا، وأثار الباحث أمرًا طريفًا وهو التناقض بين التنظير والتطبيق، فاللغويون القدماء والمحدثون يرون أن غاية المعجم استيعاب كل كلام العرب؛ ولكنهم عند التطبيق ينتقون.

وإن ما كتبته هنا غير مغنٍ عن الاطلاع على عمل الدكتور الذي بذل جهدًا وأبان عن صبر وسعة اطلاع على مصادر بحثه، وكان مراعيًا لمقتضيات العمل العلمي، وكان شجاعًا وحاضر الشخصية في تضاعيف بحثه، وأرى عمله من أجلّ الأعمال إن نالها شيء من التركيز والتهذيب لتكون ملائمة للقارئ والباحث.

نون عبدالله نور

أهداني الصديق الأستاذ محمد السبيهين، بعد خروجنا من دارة العرب يوم الخميس الماضي، كتابًا غريبًا سماه مؤلفه (عبدالله نور) نون القرآن الكريم: دلالات حروف اللغة العربية.

والمؤلف كما يفهم من سيرته أميل إلى الصحافة والأدب؛ ولذلك جاء كتابه أدنى إلى الأدب لا العلم والبحث والتحقيق الصريح، وإن توهم ذلك واستصرخ أمة العرب والإسلام لإعطاء هذا البحث ما يستحقه من عناية ورعاية. والكتاب فيه تسلية وطرافة؛ ولكنه مظلل إن توهم القارئ أنه على حق. يوجه المؤلف الكلام إلى حفيده لينظر إلى الرسم العربي للنون نصف دائرة ونقطة أي حبّة أي صفر أي بذرة أي خلية، وينتقل به الخيال ليجعل هذه النون كالرحم فالنقطة جنين والإطار المستدير الرحم، ولو قرأ المؤلف في تاريخ الرسم العربي لعرف أن الحروف ومنها النون لم تكن منقوطة قبل عهد الدولة الأموية، وأن المصحف كتب بخط مكيّ أو مدنيّ أقرب إلى الخط الكوفيّ بيبوسه وزواياه وتربيعه، والخط أُخذ عن الأنباط الذين طوّروه عن الآرامية، ومردّ الأبجدية إلى الفينيقية التي انشعب عنها شكلان من الخطوط المشرقيّ الذي انتهى إليه الخطّ العربيّ واللاتينيّ، فلم يسرق الغرب إذن منا رسم السين (S) (C) كما توهم في ص٣٤ من كتابه ومعلوم أن (C) يقابل في الأبجدية (ج). ومن عجائبه قوله(ص١٩): "واعلم أن كل كلمة تنتهي باللام قديمًا فإنها تعني أنها منسوبة إلى الذات الإلهية المقدسة، مثال ذلك، جبريل، اسرافيل، ميكافيل، عزرائيل". وهذه الأسماء المركبة من الدخيل على العربية. وحاول أن يظهر

هذا المعنى الإلهيّ العام فلم يوفق في كلامه عن (رجل) و(عمل)، ولا أظنه يجد نسبة إلى الذات الإلهية في مثل هذه الكلمات: (الخيال، والخبل، والخلل، والضلال، والاحتيال، والإغفال، والإهمال) وهذا أمر لا يقال على كل حال. ومن طرائفه حكاية سرقة اللاتينية لحرف (K) وأنه حرف القاف رسم تحتها رسم جبل، وفي (ص٢١) يقول لحفيده "وانظر وتمعن في أشكال الرسم العربي لحرف الكاف... طالع في الهمزة المرسومة في وسط الكاف الأخيرة أليست هي الهمزة ... مضافًا وراءها عمودًا عند اللاتينيين".

وهذا القول مبني على الوهم؛ فليس ما يرسم في بطن الكاف المتأخرة همزة، بل هو كاف صغيرة لتميز الكاف عن اللام في نهاية الكلمة، كما رسمت الكاف فوق الكاف في أول الكلمة ووسطها وقد كانت الكاف القديمة قوسًا منحنيًا نحو اليسار، فلما خيف التباسها باللام ميزت بكاف أخرى. ومن عجائبه متابعته من عدّ (طه) من أسماء الرسول، وهذا القول لا تجده عند المحققين من المفسرين، وأقوى المذاهب أنه من فواتح السور. قال ابن عاشور في التحرير والتنوير: "وكذلك لا التفات إلى قول من زعموا أنه من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم".

ومن عجائبه حديثه عن الصاد بأنها مأخوذة من الصيد، وأن صادها إذا قلبت أشبهت الميزان ذي الكفتين، وصارت "رمزًا على الميزان المسئول عنه الوزير طاها، أو تاها، أو تاهوت، أو كما يقول المصريون: تحوت".

وليس لهذا الإله الفرعوني علاقة بالميزان ولا بالصاد ولا بـ(طه) إلا في خيال عبدالله نور، ويبدو أن هذا الكتاب فاتحة لطائفة من الكتب الطريفة التي وعد بنشرها، وقد يتوقف في أمرها أولو النهى من الناس، فلله الأمر من قبل ومن بعد.

هل العربية أصل للغات

يتوهم بعض العرب أن العربية أصل اللغات، ولو أنّ هذا بقي في إطار الحديث والكلام لهان الأمر؛ ولكن المؤسف أن تواجه بجملة من الكتب التي تدعي هذا الادعاء، منها كتاب (اللغة العربية أصل اللغات كلها) لصاحبه عبدالرحمن أحمد البوريني، قال في مقدمة كتابه: "إن النظر المتعمق في اللغات والدراسة المقارنة بينها وبين العربية تكشف عن علاقة بين تلك اللغات والعربية لا تكون إلا بين الفرع والأصل، وقد تمّت الدراسة المقارنة بين كلمات أحرف الإنكليزية وبعضًا من كلمات أحرف أخرى. وبعد الدراسة تبين وجود علاقاتٍ مُشَابَهَة بين الكلمات الإنكليزية ومقابلاتها العربيات بالقدر الذي يؤكد صحة انتساب الإنجليزية إلى العربية"(ص١٠)، ولسائل الحق أن يسأل ولم لا تكون الإنجليزية هي الأصل والعربية هي الفرع. وقبل أن نمثل لبعض الكلمات الإنجليزية التي أوردها وزعم أنها تدل على أن الإنجليزية فرع العربية؛ ينبغي التنبيه إلى أن اللغة لا تكون فرع لغة بمجرد تشابه في الألفاظ؛ ذلك أن الاقتراض بين اللغات واقع أملته التعاملات والظروف التاريخية، وقد وضعت المعجمات والكتب المبينة لتلك الألفاظ؛ ففي العربية كتب كالمعرّب للجواليقي، ونجد في الإنجليزية معجم وبستر عن تاريخ الكلمات ونجد منها كلمات يردها المؤلف إلى أصل عربي مثل (Algebra الجبر، Magazine مخزن، Zero صفر)، ولا تكون اللغة فرع أخرى حتى تتشابه اللغتان من حيث التصريف والتركيب، وليس ذلك جاريًا بين العربية والإنجليزية؛ فالعربية من الناحية التصريفية اشتقاقية في الغالب، وأما الإنجليزية فهي إلصاقية في كثير من ألفاظها، وما فيها

من نظام اشتقاقي مختلف عن نظام الاشتقاق العربي وجداوله، والعربية من حيث التركيب يلي الفاعل الفعل بخلاف الإنجليزية التي يلي فيها الفعل الفاعل، وتختلف طريقة إسناد الفعل إلى الضمائر في العربية عن الإنجليزية.

حين نقرأ ما اجتهد المؤلف في بيان أصله العربي نرى التكلف والربط بين اللفظين بأدنى ملابسة، حتى إنه قد لا يبقى من المشترك الصوتي بين اللفظين سوى صوت واحد، ومن أمثلته (ANEMO) بمعنى الريح يزعم أنها أخذت من (النعامى: ريح الجنوب) ولست أدري كيف ينتقل لفظ يكاد يكون قليل الاستعمال بين أهل اللغة، وهو في الحقيقة وصف للريح لا اسم لها، ومن ذلك اللفظ (ANEMOGRAPH) ترجمة بقوله "غراف النعامى" أي غراف الريح. وزعم أن (GRAPH) عربية، قال "الغراف: مكيال ضخم"، وفي قوله هذا مغالطة فمن المعلوم أن اللفظ أعجمي ومعناه (رسم)، والكلمة الملصقة حديثة الوضع في الإنجليزية لأنها اسم راسم الريح، وغفل المؤلف عن أنه سبق أن ذكر أن العربية أخذت من الإنجليزية اللفظ تلغراف (TELEGRAPH). ومن الألفاظ (APAREGA) ترجمه بسرج لفرس. وذكر أنه من "البرجاس: وهو نوع من السروج، المحشوة توضع على ظهر الدواب". لم أجد اللفظ في المعاجم الإنجليزية ولم أجد المعنى العربي في المعاجم العربية، والمؤلف لا يوثق مادته حتى يعيننا على المتابعة. و(APE) قرد. يردها إلى اللفظ (حبن)، قال: "الحبن وجمعها حبون: القرد (تحولت الحاء إلى هاء ثم إلى همزة، وحذفت النون)"(ص١٠٥)، وقلة من المعاجم ذكرت أن الحبن بمعنى القرد، وكما نرى ليس من صلة بين اللفظين سوى حرف الباء. ومن ذلك اللفظ (asleep) أي "نائم، ميت، ساكن عديم الفاعلية"، يردها إلى "السليب

(النائم سليب الوعي والميت سليب الحياة والساكن سليب الإرادة والمقدرة) وهذا منتهى التكلف، ومن تكلفه عد (cow) أي بقرة، قال "ربما قلبت كلمة (خوار) فصارت (خاور) ثم تلاشت الراء من آخر الكلمة فصارت خاو وتلفظ كاو (جزء من كلمة خوار وهو صوت البقر)(تلفظ الخاء كافًا"، ومن الغرائب جعله (press) بمعنى (يضغط على) من الفرْس، قال "فرس الأسد فريسته: دق عنقها (ويكون ذلك بالضغط عليها، لفظت الكلمة فَرْس بطريقة الخطف فصارت فْرَسْ، ثم قلبت الفاء إلى (p)" والعربية فيها من ألفاظ الضغط ما يغني عن هذا الالتفاف العجيب، ولم لا يكون اللفظ من الفعل (مرس) وهو أقرب بلفظه ومعناه من فرس الأسد.

ومن الغرائب كذلك اللفظ (father) أي (أب) وقد تكلف إرجاعه إلى (أب) وكان أسهل له أن يكتفي بالقول إنه من (الباذر) أي المنسِل، قال "باذر (تلفظ الباء فاء). با–أب (تقلب الأب إلى با) الذر: النسل (باذر إذن هي أبو الذر)" ولست أعلم لم غفل عن أن البذر أو البزر تعني النسل. وأما (grass) أي عشب فردها إلى "غْرَسْ. غَرْس(لفظت خطفًا)"، ولو اطلع المؤلف على لهجاتنا المحلية لوجد العشب البري المسمى (قرّاص أو قرّيص) أقرب إلى اللفظ الأعجمي. والفعل (have) أي: (يملك، يتضمن) رده إلى "حوى(تلفظ الحاء هاء والواو (v) فتكون الكلمة (هفا) ثم تقلب فتكون هاف"، وهو خيال عجيب من المؤلف وتكلف بالغ يمكن به أرجاع كل كلمة من أي لغة على غيرها من اللغات الأخرى.

لا ينفع العربية أن تكون أصل اللغات ولا يضيرها أن تكون لغة كغيرها من اللغات، ولكن الذي يضيرها أن يهجرها أهلها فلا تكون لغة العلم أو العمل، ولا يجد مستعملها حرجًا أن يتلفظ أو يكتب من غير اهتمام بصحة استعماله.

وقفات لا تضير عند لهجات بابعير

الأستاذ الدكتور عبدالله صالح بابعير علم شامخ في سماء العربية؛ إذ زويت له من علومها ومعارفها ما جعله أستاذًا قديرًا تخرّج على يديه أجيال من طلاب العربية في جامعة حضرموت، وكتب عددًا من البحوث والكتب العلمية المهمة في علوم العربية أصواتًا وصرفًا ونحوًا ودلالة، ومن أواخر كتبه ما أتحفني به مشكورًا وهو (انحراف اللهجات العامية الحديثة عن العربية الفصحى: مظاهر من لهجة المكلّا)(١).

وقارئ هذا الكتاب يجده مرتكزًا على ثقافة لغوية تراثية عميقة ومعرفة بعلوم اللغوية الحديثة مع دقة ملاحظة لمفارقة استعمال الناس اللغة اليومية في حياتهم العامة وأغراضهم التواصلية للغة الفصيحة المعبرة عن الأدب والأغراض الرسمية؛ ومع ذلك يعن له من الوقفات ما تهبه النظرة المختلفة، وهي وقفات لا تضير ولا تقلل من قيمة هذا العمل الرصين، ولعل أول ما يستدعي التوقف هذا العنوان الذي يبدأ واسعًا بنسبته إلى اللهجات ثم يضيق في لهجة واحدة هي لهجة المكلّا، ولعل الذي أجاء أستاذنا إلى ذلك ما لاحظه من اشتراك بين لهجة المكلّا ولهجات أخرى في غير مظهر من مظاهر الانحراف، ويستوقف العنوان القارئ عند وصفه اللهجات بالعامية الحديثة؛ إذ نجده يعالج من المظاهر أو الظواهر ما لا يوصف

---

(١) الطبعة الأولى، عام ٢٠١٢م، دار حضرموت للدراسات والنشر، ومؤسسة العون للتنمية، المكلّا- حضرموت، الجمهورية اليمنية.

بالحداثة فمنه ما هو لغة من لغات العرب القديمة كالقاف المجهورة التي استمر استعمالها فهي تسمع في المكلّا وجنوب المملكة العربية السعودية ونجد، ومن ذلك كسر أحرف المضارعة الذي عزي قديمًا إلى قبيلة بهراء وسمي بتلتلة بهراء، والأستاذ حريص على التأصيل التاريخي فلا يدع مظهرًا له أصل إلا ذكر أصله.

ومشكلة أخرى يثيرها العنوان وهي قضية انحراف اللهجات عن الفصحى، والمشكلة عندي في افتراض أن الفصحى كانت لغة الناس كلهم في يوم من الأيام ثم بدأت تختلف لهجات البيئات الجغرافية عن هذه اللغة الموصوفة بالفصحى، وهذا ما نفهمه من قوله"تمثل اللهجات العامية الحديثة انحرافًا عن العربية الفصحى المشتركة، ولكنها ليست انحطاطًا عنها فهي فروع منشعبة عنها"(١)، هذا الانشعاب أمر أتوقف فيه، فالفصيحة المشتركة التي استعملت في الشعر الجاهلي ثم عزز استعمالها نزول القرآن بها هي مستوى جمع مظاهر لغوية من لهجات (لغات) العرب؛ ولكنها لم تلغ تلك اللهجات ولم تستول على لغة الخطاب اليومي وظلت محافظة على سماتها بما كتب لها من ارتباط بالدين والدولة والتقعيد النحوي، أما اللهجات القديمة فهي التي استمرت إلى جانب الفصيحة المشتركة في بيئاتها وإن نالها تأثر بالفصيحة فإنها لم تتخل عن مظاهرها الخاصة فاستمرت الإمالة والكشكشة والكسكسة والعنعنة والاستنطاء، والتلتلة، وغيرها من السمات اللهجية التي وصفها سيبويه في كتابه، وذكر أنه لا يقرأ بها القرآن وإن كانت عربية، فإن يكن من انحراف في اللهجات الحديثة فهو انحراف للهجة في العصور الحديثة

---

(١) بابعير، انحراف اللهجة العامية الحديثة، ص١١.

عن أصلها القديم المستمر إلى جوار العربية المشتركة، وليس انشعابًا عن الفصيحة المشتركة، ونحن اليوم نشهد تغيرات واسعة في اللهجات بسبب تأثر بعضها ببعض وهبته وسائل الإعلام المختلفة التي جعلت اللهجات دُولة بين الناس، ووهبه تمازج أبناء البيئات الجغرافية المختلفة بانتقالهم من بيئة إلى أخرى انتقالا مؤقتًا أو دائمًا، وتأثرت اللهجات بانتشار التعليم وسيطرة اللغة الأجنبية على بعض جوانب التعليم وغلبتها في إدارة العمل وتوجيهه، وتلقي الناس منجزات التقنية الاستهلاكية المعتمدةِ الاستفادةُ منها على قدر من المعرفة باللغة الأجنبية التي بدأت تضيق الخناق على العربية فصيحها وعامياتها والعامية أسرع استجابة لها.

أشار الأستاذ الدكتور عبدالله صالح بابعير في كتابه (انحراف اللهجات العامية الحديثة عن العربية الفصحى: مظاهر من لهجة المكلّا) إلى أنّ صوت القاف كما وصفه سيبويه في كتابه مجهور، أي يسمع كالجيم القاهريَّة، وأنّ هذا مختلف عن القاف المهموسة المستعملة في النصوص الفصيحة المسموعة في قراءة القرآن اليوم، وذكر أن نطق القاف مجهورة كما ذكر سيبويه هو الشائع في حضرموت[١]، والمؤلف بقوله هذا يثبت أنّها غير منحرفة عن الاستعمال القديم لها. ويتحدث عن كسر أحرف المضارعة ويعدّه انحرافًا عن الفصحى، ولكنه يذكر أنّ كسر أحرف المضارعة هو لغة عربية عرفت بتلتلة بهراء[٢]، ولذا يصح أن نقول إنّ كسرها في لهجة المكلّا ليس بالانحراف الحديث؛ إذ هو متابعة للغة بهراء.

(١) بابعير، انحراف اللهجة العامية الحديثة، ص١٦.

(٢) بابعير، انحراف اللهجة العامية الحديثة، ص٢٠.

ومع أنه يذكر أن إبدال الثاء فاءًا عربي قديم[١]يرى قول العامة في المكلّا (فوم) في الثوم و(فلافة) في ثلاثة من انحراف اللهجة الحديثة، ونجد هذه الظاهرة في لهجة القطيف شرقي المملكة العربية السعودية؛ وليس ذلك سوى متابعة للغة قديمة.

ومن الغريب أن يثبت إبدال بعض العامة الثاء تاءًا الذي وصفه بالقلة[٢] (ثوم<توم، ثعبان< تعبان) وإبدال الذال تاءًا[٣](شحاذ< شحات) وهو المثال الوحيد، وأحسب هذه الأليفاظ من الدخيل على لهجة المكلّا وهبتها لغة الإعلام، فلعلها تسللت من اللهجة القاهرية المستعملة في الأفلام والمسلسلات. فالإبدال إن حدث يشمل تصاريف اللفظ كله (شحذ، يشحذ، شحّاذ) وهو ما نسمعه في لهجة القاهرة (شحت، يشحت، شحّات).

وقال إن الفاء تبدل صادًا في (نصّ) أي: نصف، قال "فقد أبدلت الفاء صادًا، ثم أدغمت في الصاد، على سبيل المماثلة الرجعيّة"[٤]، وهذا التغير شائع في لهجات الجزيرة العربية، وهو من المماثلة التقدمية لا الرجعية. وأما إبدال الهمزة حرف مدّ[٥]، وهو ما عرف قديمًا بالتسهيل، فهو فصيح كما قرر المؤلف، وهو ظاهر في قراءة القرآن برواية ورش، ولا يسوغ عدّ لهجة المكلّا ولا غيرها من لهجات

---

(١) بابعير، انحراف اللهجة العامية الحديثة، ص٤٤.

(٢) بابعير، انحراف اللهجة العامية الحديثة، ص٤٦.

(٣) بابعير، انحراف اللهجة العامية الحديثة، ص٤٩.

(٤) بابعير، انحراف اللهجة العامية الحديثة، ص٥٢.

(٥) بابعير، انحراف اللهجة العامية الحديثة، ص ٦٤.

الجزيرة بسببه منحرفة عن الفصحى ولا هو بالتغير الحديث. وعدّ من الانحراف الصرفي (ص٧٦) زيادة ياء ممالة بعد الفعل (ردّ) وأمثاله عند إسناده لضمير رفع متحرك[١]يقال في (ردْدْت): ردَّيت، وهذا أمر شائع في لهجات الجزيرة، ولعله ليس من قبيل زيادة الياء كما قال، بل من قبيل تضعيف الدال الأولى وإبدال الثانية ياءًا، وهي ظاهرة قديمة ذكرها سيبويه في مثل الأفعال (تسرّرت، وتقصّصت، وتضنّنت) يقال فيها: (تسرّيت، وتقصّيت، وتضنّيت)[٢].

ومن ذلك تأنيث (فعلان) مما بابه (فعلى) بالتاء فيقال (فعلانة)، يذكر المؤلف أنهم يقولون غضبانة في غضبى[٣]، وهذه طريقة لهجات الجزيرة أيضًا، والمؤلف ذكر عدّ الزبيدي لها من لحن العامة، ولكنها لغة نسبت لقبيلة أسد أو بعضهم كما ذكر المؤلف، وعليه فليست لهجة المكلّا الحديثة منحرفة بهذا بل هي متابعة للغة قديمة شاعت في لهجات الجزيرة وهو أمر أكثر قياسية.

وعدّ من مظاهر الانحراف النحوي ما يعرف بلغة أكلوني البراغيث، وهي لغة عرفت قديمًا عند طيئ وبني الحارث بن كعب وأزد شنوءة، ولها شواهد من القرآن والشعر، كل ذلك ذكره المؤلف[٤]، وذكر أنها من سمات اللغات السامية، ومن هنا فليست لهجة المكلّا بدعًا وليست منحرفة بل هي متابعة للأصل السامي القديم وهي كغيرها من لهجات الجزيرة تجمع بين الفاعل وعلامة المطابقة كما في المثل

---

(١) بابعير، انحراف اللهجة العامية الحديثة، ص٧٦.

(٢) سيبويه، الكتاب، ٤: ٤٢٤.

(٣) بابعير، انحراف اللهجة العامية الحديثة، ص١٠٠.

(٤) بابعير، انحراف اللهجة العامية الحديثة، ص١٢٦.

الذي أورده (إذا كثرن الطباخات فسد المرق). والذي ننتهي إليه أنّ كثيرًا من القضايا التي جعلت أمثلة لانحراف لهجة المكلّا الحديثة هي شواهد على أصالة هذه اللهجة واتّصالها، ومهما يكن من أمر هذه الوقفات فإنها لا تغض من قيمة هذا الجهد العظيم الكاشف لسمات لهجة من لهجات الوطن الحبيب يستعملها أهل حضرموت الأعزاء على قلوبنا.

رابعًا–متابعات

اتجاهات حديثة في تعليم العربية لغة ثانية

هذا عنوان المؤتمر الدولي الذي نظمه معهد اللغويات العربية في جامعة الملك سعود من يوم الإثنين ١٠/ ٤/ ١٤٣٥هـ حتى الأربعاء ١٢/٤/ ١٤٣٥هـ، وشهد هذا المؤتمرَ حضور كثيف منذ افتتاحه حتى ختامه، ووفق القائمون على إعداده، وآية ذلك تسلم من شهد المؤتمر كتاب البحوث وملفًا يضم برنامج المؤتمر ونشرات تعريفية عن المعهد ونشاطاته. وكان يحسن أن يضم الملف كراسة تعريفية بسير مختصرة عن المشاركين، وملخصات بحوثهم.

جعل المؤتمر في سبع جلسات بعد الافتتاح، أما الجلسة الأولى فكانت عن نظريات تعلم اللغة الثانية، تحدث فيها أ.د. محمد صلاح الدين الشريف من جامعة منوبة بتونس فشرح بعض الأسس النظريّة لمقاربة عامة تعليمية توحد مختلف القدرات اللسانية لاستعمال العربية في التواصل المناسب للمقام، وقد بين الباحث كيف أن كثيرًا من الدارسين يتعلمون في بلادهم العربية تعلمًا مرتبطًا بالتعليم الديني فيكون المستوى المتعلم هو المستوى الفصيح المغرق في تراثيته وقدمه، وهو مستوى حسن ومطلوب، ولكنه لا يفي بالغرض التواصلي مع أهل اللغة المعاصرين الذين يستعملون مستوى فصيحًا مختلفًا بعض الشيء عن ذلك المستوى التراثي؛ ومن أجل ذلك يجد هؤلاء الدارسون عنتًا في تفاهمهم مع أهل اللغة، ومن أجل ذلك لابد من تعليمهم هذا المستوى، وتعليمهم أن العربية لها عمقها التراثي ولها بعدها الحداثي، هذا ما فهمته من استماعي لعرض الأستاذ.

ومن الموضوعات التي لفتت نظري ما قدمه الباحث القدير د. سعد بن محمد

الجديع من جامعة الملك سعود عن الأعمال اللغوية وتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها: نظرة في المنهجين القديم والحديث، لفت نظري ما عرضه عن نظرية التلطف، وأحسن في عرض نماذج من الحوارات الممكنة التي تبين مستوى الطلاب الكاشف عن مهاراتهم التواصلية، ولكن الأمثلة موضع توقف ونظر؛ لأن ثمة جملة من المتغيرات تؤثر في سياق الحوار، منها الوقت المحرج ومنها درجة العلاقة بين المتحاورين وجنسهم، فليس الطلب المباشر مشيرًا بالضرورة إلى قلة التلطف، فالمعوّل في جزء من ذلك على موقف المخاطب الموجه إليه الطلب، ثمّ إنّ من معززات الطلب ما لم يشر إليه المثال المطروح وهو هيأة المتكلم الطالب، وما علا محياه من تأثر وتعبير، من ابتسامة أو لهفة، كل ذلك له اعتباره في المسألة التواصلية، وهي موازيات للتعبير اللغوي لا يمكن تنميطها وتعليمها.

وقدم د. محمد أحمد القضاة من الجامعة الأردنية عمله الذي شاركت في إعداده أ. مشاعل بنت ناصر آل كدم، وهو عن المنهاج وأثره في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، وبين الباحث أهمية أن تبرز المناهج الثقافة العربية؛ إذ اللغة العربية ليست قواعد نحوية فقط بل هي ثقافة أمّة، وأشار إلى أمر مهم وهو ما يعيب بعض مناهج تعليمها وهو تطبيق نماذج غربية بحذافيرها من غير مواءمتها بما يناسب طبيعة العربية نفسها، وهو محق كثيرًا، إذ نجد من يركز على التعليم المقطعي وهو غير ذي أثر في العربية أو التوقف عند النبر وهو غير مهم في معاني الألفاظ، بخلاف التنغيم الجملي الذي قد ينقل الجملة من الإثبات إلى الاستفهام، ويشي بطائفة مختلفة من الدلالات من سخرية أو تشجيع أو إعجاب.

وكانت الجلسة الثانية عن إشكالات التخطيط اللغوي في تعليم اللغة الثانية،

والجلسة الثالثة عن المعجم وتعليم اللغة، وأما الجلسة الرابعة فعن مداخل تعليم اللغة الثانية وأساليبها، وأما الخامسة فعن تطبيقات في تعليم اللغة العربية، وجاءت الجلسة السادسة محورها أهداف وكفايات لغوية، وجاءت الجلسة السابعة الخاتمة عن التكنولوجيا الحديثة في تعليم اللغة الثانية.

وليس بالإمكان استعراض البحوث في جميع الجلسات، ولا غنى لمن يريد المعرفة من الاطلاع على الكتاب الضام أبحاث المؤتمر. وكانت بعض الجلسات تضم خمسة متحدثين فلا ينالهم من الوقت ما يفي بعرض الفكرة عرضًا شافيًا، فترى من يهزّ كتفه أو يطوّح بذراعيه مستسلمًا لأمر مدير الجلسة بالتوقف داعيًا المستمع للعودة إلى ما كتبه، وهذا من الأمور المعيبة في المؤتمرات. قلة من الباحثين يفلحون في زوي أفكارهم في الوقت المحدد، وما من شكّ أن طبيعة الموضوع ومضمونه من أهم المؤثرات في ذلك، ولم تستطع الوسائل العرضية التقنية في إنجاز ذلك. لا نملك إلا أن نتقدم بالشكر لمعهد اللغويات العربية ولجامعة الملك سعود لتنظيم هذا المؤتمر.

أجامعة تريدونها أم كُتّابًا

يصاحب الحديث عن الجودة في تعليم الجامعة أن يجري النقاش حول ذلك التعليم، وأخص بهذا قسم اللغة العربية؛ إذ يركز على أنّ هذا التعليم لا يلائم السوق فهو لا يخرّج طلابًا يحسنون الأعمال في القطاع الخاص، وهم يشيرون أيضًا إلى أنّ هذا القسم لا يفلح في تعليم طلابه المهارات اللغوية. والذين يذهبون إلى هذا ينسون مسألة مهمة وهي أنّ لغة السوق ليست اللغة العربية، فليس ينفع هذا السوق أن تخرج طالبًا أنحى من سيبويه ولا أجمل ترسلا من عبد الحميد، وما يفعل بطالب يجيد تحليل النص؟ والذين يحسون ضعف مهارات الطلاب يرون أن على القسم أن يركز اهتمامه على إذكاء تلك المهارات، وهم يغفلون عن أنّ تلك المهارات هي موضوع اثني عشر عامًا يسلخها الطالب من عمره قبل الدخول في الجامعة، أما قسم اللغة العربية فليس معهدًا لتعليم المهارات اللغوية الأولية بل هو قسم مهمته الأولى تعليم علوم اللغة العربية وآدابها، وهي علوم لا ينبغي أن يتعلمها من الطلاب سوى من اكتملت مهاراته وأضحى مستعدًّا لتلقي هذه العلوم ليعرف مصطلحاتها وطرائق التفكير فيها وتاريخها ورجالاتها وأمّات الكتب التي فصلتها، وهو بحاجة إلى معرفة عميقة بأدب العربية في أحقابها المختلفة ليقف على نفائس النثر والأشعار فيها وألوان تطور أساليبها، وهو إلى ذلك محتاج إلى تعرف جوانب البلاغة فيها والتدرب على الكشف عن مواطن الجمال في هذه اللغة الشريفة. وللنقد تاريخ قديم ليس يسهل الوقوف عليه وله امتداد وتنوع حاضر، ومن العلوم اللغوية ما هي مجتلبة من ثقافات أخرى كالعلوم اللسانية الحديثة والمذاهب النقدية الجديدة وهي من الثراء والعمق بمكان لا يُقارَب إلا بمشقة وعنت وكد ونصب.

قد تكون هذه العلوم اليوم مرغوبًا عنها في عرف السوق، ولكن الخطر في أن يكون السوق هو المخطط لكيفيات تحصيل العلوم، ولست أنكر على السوق أن يطلب ما أراد، ولست أمنع أن يجاب إلى ما أراد، ولكن الحل ليس في ترك تعليم العلوم المتخصصة، بل تهيئة المعاهد التي ترعاها الجامعة إن شاءت لتعلم وفاق حاجة السوق وعلى السوق أن يسهم في التدريب والتعليم التطبيقي. وأما القسم الذي يعلم علوم العربية وآدابها فهو قسم ينبغي أن يخصص لمن أراد تعلم هذه العلوم من غير التفات إلى حاجة السوق أو هوى العمل. ولم يفسد التعليم في رأيي شيء أكثر من كونه سلّمًا للتوظف وكسب العيش.

قد لا يكون لعلوم العربية وآدابها وظيفتها الظاهرة في حياة الناس ظهورَ العلوم الطبية والهندسية وأمثالها؛ ولكنها عميقة الأثر في الحياة من حيث صلتها باللغة نفسها الممثلة لهوية الأمة المكتنزة تاريخها المصورة طبائعها الكاشفة عن سماتها المميزة لها من غيرها، وهي عميقة الأثر من حيث صلتها بالفكر نفسه فهي ترجمانه بل آلته التي لا يكون إلا بها، وللعربية خصوصية تتعدى حاجة العرب إلى المسلمين بعامة فهي لغة القرآن التي بها يُفهَم وبها يُتَعبَّد، ومهما ترجمت معانيه ترتد الأعين حسيرة عن تلك الترجمات فلا تجد بغيتها إلا باللسان العربي المبين، وأنى يدرك هذا البيان إلا بتحصيل علومه التحصيل القويم. وإن تكن كيفية تعليم علوم العربية مرتفعة عن مستوى التعليم المهاري فهي التي تقف وراء ذلك التعليم تغذوه بحسن التفسير وجميل التيسير، وما التخلي عن تعليم أصول العلوم العربية والاكتفاء بيسير المهارات إلا رجعة بالجامعة التي تزوي العلوم إلى ما قد يوازي الكُتّاب.

أعط الفقير درهمًا وإن شتمك*

أورد هذه الجملة الأستاذ معاذ بن سليمان الدخيّل في كتابه (منزلة معاني الكلام في النظرية النحوية العربية"مقاربة تداولية") وعرض لرأيي في هذه الواو والجملة بعدها وتسميتي لها بعبارة شرطية وبتسمية الواو بواو الرغم لما يؤول له تأويل الجملة في نظري، وذكر رفضي جعل الجملة حاليّة؛ لكون التقدير يؤول إلى فهم بعيد عن روح التركيب، ورفضي أيضًا جعل الجملة اعتراضية. وقال "ولم يسلم ما ذهب إليه الباحث من النقد؛ لأنه قد وقع فيما نقد به النحاة القدماء من بُعد عن المعنى المراد بهذا التركيب، فهو قد بنى نقده وحكمه على مقدمة، يساوي فيها هذا التركيب بتركيب آخر من حيث المعنى، وهو: أعط الفقير درهمًا رغم شتيمته لك. وهذا أمر غير مسلَّم به". وعلّل عدم التسليم بقوله "لأن هذا الأسلوب يدل على وقوع الشيء، وهذا ما يلحظ بعد تتبع استعمالاتها، ومن الأمثلة على ذلك قول الشاعر:

كان عبدالمجيد سَمَّ الأعادي ملءَ عين الصديق رَغمَ الحسود

ومن ذلك أيضًا:

فبتنا على رغم الحسود وبيننا حديث كمثل المسك شيبت به الخمر

يلحظ في هذه الشواهد أن العرب تستعمل هذا الأسلوب قاصدة به أن ما بعد (رغم) حاصل. في حين أن التركيب الآخر مدارَ المسألة لا يفيد هذا المعنى، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم (اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد

---

* كتب الأستاذ معاذ تعقيبًا على ما كتبته نشر في المجلة الثقافية، وهذا رابطه:
http://www.al-jazirah.com/2014/20140830/cu4.htm

حبشي كأن رأسه زبيبة). فما بعد أداة الشرط غير واقع في الحال، بل جيء به على عادة العرب في توكيد المعاني؛ إذ إنّ المتكلم يقول هذا على سبيل توكيد المعنى الذي أراده في نفس المخاطب". وقبل أن أناقش قول الدخيل أرى أن الشاهد الأول لا موضع للاستشهاد فيه فليست (رغم) هنا قيدًا على شيء بل هي خبر ثالث والمعنى: مرغِمًا الحسود، أو هي محتملة ذلك على الأقل، والمهم أن الدخيل يرى أنّ (رغم) تستعمل في الأمور الماضية بخلاف (إنْ) التي تستعمل لما يستقبل من الزمن، فمعنى (وإن شتمك) أي شتمك بعد إعطائك له. هذا ما فهمته من كلامه، ولم يقدم شرحًا يجلّي معنى التركيب سوى ذهابه إلى أن الغرض من (وإن شتمك) توكيد الطلب السابق (أعط الفقير درهمًا)، ولا أرى في ذلك توكيدًا كالتوكيد الذي نجده بتكرار الجملة، وكل ما نفهمه أن مَن قال (أعط الفقير درهمًا) خاف أن يكون سلوك الفقير من موانع الإحسان فأراد الاحتراز فجمع بين أمرين قد لا يجتمعان الإعطاء والشتيمة. وأما استعمال إن على الاستقبال فهو الأصل؛ ولكنها تستعمل في الماضي كما ذكر الرضي في قوله "وقد تستعمل (إن) الشرطية في الماضي على أحد ثلاثة أوجه، إما على أن يجوز المتكلم وقوع الجزاء، ولا وقوعه فيه، كقوله تعالى: (إن كان قميصه قُدَّ من قبل فصدقت)، وإما على القطع بعدمه فيه، وذلك المعنى الموضوع له (لو)، كقوله تعالى: (إن كنت قلته فقد علمته)، وإما على القطع بوجوده نحو: زيد وإن كان غنيًّا لكنه بخيل، وأنت، وإن أُعطيت جاها: لئيم، واستعمالها في الماضي على خلاف وضعها ولا تستعمل فيه، في

الأغلب، إلا وشرطها (كان) لما يأتي في الجوازم"[١]. ولو قيل (أعط الفقير درهمًا ولو شتمك) لكان مؤديًا الغرض نفسه. وأما ذهابه إلى أنّ (رغم) تكون للماضي فصحيح ولكن قد تستعمل لغيره، فمن أمثلة كونها لغيره قول الشاعر:

فاسلمْ على رغم الحسود ولا تزل   للدّهر رُكنًا دائمًا بدوامه

وقول الآخر:

ومن صاحب الدهر لاقى الذي   يخاف على الرغم من أنفه

وإن المتبادر إلى الذهن ارتباط الأمر محترزًا فيه عن أمر مضى، وأما المستقبل المحتمل لوقوعه وعدمه فغير متبادر في فهمي، فقولك (أعط الفقير درهمًا وإن شتمك) يصح أن تكون (أعط الفقير درهمًا وإن شتمك أمس)، وأما ذهابه إلى أن (وإن شتمك) جملة مستقلة فيجعل الواو استئنافية، وجعلها للتوكيد يجعل حذفها غير مؤثر في المعنى كثيرًا، على أنه لا تناقض بين ما فهمته من التركيب ومراد المتكلم من عزم في الطلب وتوكيد له في نفس المخاطب.

---

(١) شرح الكافية، ٣: ١٨٦، وانظر: ٤: ١١٥.

التعليم الإليكتروني في خدمة اللغة العربية

هذا عنوان الملتقى الذي نظمه كرسي بحث صحيفة الجزيرة للدراسات اللغوية الحديثة في يوم الأربعاء ١٤٣٥/٦/٢٣هـ، في جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن، وبدأ د. عبدالملك السلمان -أستاذ علوم الحاسب بجامعة الملك سعود- أول أعمال هذا الملتقى بورقته فتكلم عن "دمج التقنية في تعليم اللغة العربية ضرورة أم ترف؟" مقترحًا تغيير العنوان إلى توظيف التقنية في تعليم اللغة العربية، وبيّن أهمية التحول من التعليم التقليدي المعتمد على التلقين والحفظ إلى التعليم التقني المحفز إلى التفكير والابتكار، ولسنا نجادل البتة في أهمية التقنية وفوائدها الجمّة؛ ولكنّا لا نوافقه في وصمه التعليم التقليدي بأنه مقتصر على التلقين والحفظ؛ لأن التلقين والحفظ إنما هما أداتان من أدواته وليسا كل شيء، فالجهود التراثية عبر التاريخ مليئة بالتحليل والتفسير والتصنيف، ولولا ذلك ما تقدمت البشرية عن الوضع الذي كانت عليه يوم خلق الله آدم، ولعل التعليم التقليدي حين كان يتعلم التعلم الحق كان يكسب المتعلم جملة من المهارات اللغوية يقصر دونها ذوو الشهادات العلى من المتخصصين بالعربية. إن التقنية اختصرت الوقت، وإنها يمكن أن تنجز من الأعمال العضلية ما يوفر على الباحث وقته وجهده، وإنها ربما كانت أدق من البشر في النقل والنسخ؛ ولكنها مؤتمرة بأمره، فإن أحسن استعمالها كانت خيرًا له وإن أساء كانت وبالًا عليه، وما أكثر ما أشاعت تلك الوسائل من أخطاء الناس. وأكد الأستاذ أهمية تظافر جهود التقنيين وعلماء اللغة؛ ولكن أنى يكون ذلك من غير إنشاء مؤسسة ضخمة تضم هؤلاء المتخصصين يتفرغون لذلك تفرغًا، فلا يشغلهم غيره من أعمال تدريس أو إدارة

أو غيرها. ومن أعمال هذا الملتقى مشاركات عن (جهود المراكز والمؤسسات في خدمة اللغة العربية من خلال التقنية) أي بالتقنية؛ منها عرض متقن شكله، قدمه تقديم مستظهر د. علي الحمادي- مدير قسم المناهج العربية – مجلس أبو ظبي للتعليم- عن الدول العربية (مجلس أبو ظبي للتعليم أنموذجًا) قلل فيه من جهود مجامع اللغة العربية، وعاب عليها أنه يشترط في عضوية أعضائها تجاوزهم سنًّا كبيرًا. وهذا الذي ذهب إليه من الأحكام المتسرعة التي لم تبن على عمل بحثي رصين؛ إذ جهود المجامع مشكورة على قلة إمكاناتها وضعف دعمها؛ ولكنها جهود لم يُستفد منها كل الاستفادة؛ لأن موضوعها وهو (اللغة) صارت محيّدة في إدارة العمل وبعض الخدمات العامة وأحلت اللغة الأجنبية محلها، وحريٌّ بنا أن نستغل مكاسب التقنية لتعزيز العمل المجمعي الرصين وتطويره لا أن نرمي المجامع بالحجارة متهمينها بالتقصير، وكرر علينا بعض المتحدثين الاعتذار عن ضعفه اللغوي مسوغًا ذلك بأنه غير متخصص بعلوم اللغة العربية، وهو عذر أقبح من ذنب؛ فإتقان المهارات اللغوية فريضة على كل متحدث باللغة. وأما "مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية" فقدم د. عبد المحسن الثبيتي أستاذ البحث المساعد بمعهد بحوث الحاسب بمدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية، وصفًا لأعمالها؛ وبعض أعمالها عرفته عن قرب؛ ولكن المدينة لم تنجح النجاح الذي يفي بالغرض ويحقق الآمال، ويُشتكى من أن بعض هذه الأعمال حبيسة المدينة غير متاحة لجمهور الباحثين، وما أتيح مثل المعجم التفاعلي ليس في المستوى المرضي، ولا جرم أن إنجاز معجم كهذا يحتاج إلى جهود ضخمة تفوق إمكانات المدينة، وهو عمل قوميّ يفتقر إلى جيوش من العاملين المدربين وأنّى هم، وقدم المهندس صلاح الدين

فرحان، مندوب شركة نسيج، ورقة عن "القطاع الخاص عن (شركة النظم العربية المتطورة أنموذجًا) ومن الغريب أنّ عرضه التقديمي كان من أسوأ ما رأيت شكلًا، وهو أمر لا يناسب شركة محترفة؛ ولعل الشركة لم تأخذ الملتقى مأخذ الجدّ.

الجملة المعترضة لا محلّ لها من الإعراب

المشهور عند النحويين القدماء أنّ الجملة المعترضة لا محل لها من الإعراب؛ لأنها لم تقع موقعًا تقعه المفردات. وأما د. مصطفى علي الجوزو فجاء بقاعدة لغوية جديدة رأى أن مجلة العربيّ (الكويتية) تتفرد بها، حيث نشر في ص٦٦ من العدد٦٣٨ الصادر في صفر عام ١٤٣٣هـ مقالًا ذكر فيه أنّ الجملة المعترضة تقوم مقام الصفة والاسم، وضرب أمثلة لهذا منها جملة (قال تعالى)، إذ يرى أن لفظ الجلالة حذف فصارت جملة (تعالى) فاعلًا قياسًا على حذف الاسم الذي يحل نعته محله في الإعراب، ومن الأمثلة قولنا (قال صلى الله عليه وسلم) حيث حلت في نظره جملة (صلى الله عليه وسلم) محل الفاعل، وهو يرى أن القدماء غفلوا عن ذلك. وهذا أمر مستبعد كل الاستبعاد، وما ذهب إليه غير صحيح في نظري، فالجملة المعترضة ليست كالنعت؛ إذ النعت والمنعوت مركب واحد بمنزلة الاسم المفرد[1]، وهذا لا يعني أن الجملة المعترضة لا علاقة لها بما قبلها، إذ هي كما رأينا في المثالين مربوطة بما قبلها لفظًا أو معنى؛ ولكنها ليست عنصرًا من عناصر الجملة، بل هي مقحمة فاصلة بين عناصر الجملة لأغراض إبلاغية وبلاغية، وربطها بما قبلها هو المسوغ لحذف الفاعل، ولكن هذا الحذف إنما نال لفظ الفاعل، وأما معناه فمراد يدل عليه السياق، وقد بالغ جمهور النحويين سوى الكسائي والسهيلي وابن مضاء في منعهم حذف فاعل الفعل المبني

---

(١) علي المعيوف، المركب الاسمي في كتاب سيبويه، ص١٢٣.

للمعلوم؛ لأن التراكيب والاستعمالات تعاند مذهبهم هذا، وعدّ طاهر سليمان حمودة ثمانية مواضع تركيبية يطّرد فيها حذف الفاعل(١).

جاء مثال حذف الفاعل في قراءة الأعمش لقوله تعالى ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [١٤٥-آل عمران] قال ابن عطية "وقرأ جمهور الناس (نؤته ونؤته وسنجزي). كلها بنون العظمة، وقرأ الأعمش بالياء في الثلاثة، وذلك على حذف الفاعل لدلالة الكلام عليه"(٢). وخالفه أبوحيان، قال "وهو وهمٌ، وصوابه: على إضمار الفاعل، والضمير عائد على الله"(٣). والإضمار الذي قال به أبو حيان هو عندي حذف اللفظ وإرادة المعنى، ولا أراه يختلف عن قول ابن عطية إلا بالتعبير عن المسألة؛ إذ نفهم من قوله "لدلالة الكلام عليه" أنه أراد أن معنى الفاعل يفهم من السياق. وقد ناقش أمثلة متعددة لحذف الفاعل زميلنا الدكتور خالد بسندي في بحثه (حذف الفاعل واستتاره بين التنظير والواقع الاستعمالي)، وكذلك فعل طالب محمد إسماعيل في كتابه (حذف الفاعل بين المعيارية والتطبيق في القرآن الكريم).

ننتهي إلى أن الفاعل في مثل "قال تعالى"، "قال صلى الله عليه وسلم"، "قال رحمه الله"، "قال رضي الله عنه"، "قال عليه السلام" محذوف لفظه مراد معناه الذي تدل عليه الجملة المعترضة التي لا محل لها من الإعراب، ولو جاز أن تحل

---

(١) طاهر سليمان حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، ص ١٣٧.

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز، ٢: ٣٧٥.

(٣) ابن حيان، تفسير البحر المحيط، ٣: ٧٦.

هذه الجملة محل الفاعل لحلت محل المفعول به؛ ولكنا لا نقول: "سيبويه تلميذ الخليل وقد تابع، رحمه الله، في كثير من أقواله".

الشعر المعجب في أدبيّ المذنب

(١)

كانت ليلة الثامن عشر من ذي القعدة عام ١٤٣٣ﻫ موعدًا لأمسيّة شعريّة أحياها فرع نادي القصيم الأدبي في محافظة المذنب، لم أكن أتوقع أن يكون الإقبال على سماع الشاعرين كذلك الإقبال، فقد كنت أظن أن بضاعة الشعر قد كسدت، وأنّ الناس باتوا أميل إلى ألوان من متع البصر والسمع لا تُحصى، وهي تأتيهم بأيسر سبل في بيوتهم وعلى طرف الثُّمام بأيديهم، وكنت أظنهم إنما يقبلون إن هم أقبلوا على الشعر النبطيّ، ولكني رأيت تلك الليلة أنه جلس الشاعران على المسرح في مواجهة جمهور متلهف إلى السماع، يصغي فيحسن الإصغاء، ويقابل ما يسمعه بالتصفيق والثناء، وراح الشاعران يتعاقبان إلقاء منتخبات من أشعارهما الرائعة، فلا ترُوعك من أحدهما قصيدة حتى تفتنك من الآخر قصيدة، أما الشاعران فهما أبو ذكرى عبدالرحمن النويصر وأبوحسّان عبدالعزيز السراء. والشاعر أبو ذكرى من أبناء محافظة المذنب، وأما الشاعر أبوحسّان فمن محافظة حريملاء، وأبوذكرى عبدالرحمن هو ابن أستاذي الأستاذ القدير والرجل النبيل الأستاذ المربّي سليمان النويصر الذي كان مدير أول مدرسة بدأتُ فيها أولى خطوات تعليمي (المدرسة الخالدية)، وكان من حظّي تلك الليلة أن تشرّفت بالسلام عليه والجلوس إلى جانبه.

أدرك المستمعون، وهم يصغون للشاعرين باستمتاع، ما اتصف به كلا الشاعرين من صفات تميز أحدهما عن الآخر؛ فقد كان السراء يقتنص مواقف من الحياة نادرة فيصور ما فيها ويشخصه تشخيصًا باهرًا، وكان النويصر يشيع في

سامعيه المشاعر فتلامس شغاف القلوب بما اخضلت به أشعاره من فيض العواطف الإنسانية. وإن لم يكن بالإمكان أن نورد تلك القصائد الرائعات؛ لأنها تسمع من الشاعرين أجمل من أن تقرأ، فإنا نجتزئ ببعض تلك البيوت.

من قصائد أبي حسان السراء قصيدة قالها على لسان فتى أصمّ أبكم، لغته التي يعبر بها حركات الإشارة من كفّيه، يقول:

أنا حُرٌّ .. وَ تَكْفِيْنِي الإشَارَةْ   وبَيْنَ أنَامِلِي قَدْحُ الشَّرَارَةْ

يستثمر الشاعر الحكمة الشعبية (الحر تكفيه الإشارة)؛ فالحر الأبيّ المجرب يدرك من واقع الحال ما يغنيه عن المقال، وهذا الصبي يفهم بالإشارة فيكتفي، وهو بالإشارة بأنامله يقدح من المعاني ما تقدحه الأنامل بالزند من شرارة.

يَخُونُ القَولُ وَالتَّعْبِيرُ قَومًا   وَفِي كَفَّيَّ تِبْيَانُ العِبَارَة

وبهذه الموازنة يحيل الشاعر العجز قوة والبكم فصاحة، وهو بهذا يؤكد مفهوم اللغة أنها نشاط ذهني في المقام الأول وإنما تأتي العبارات مترجمة لتلك الأفكار الكامنة، وإشارة الأبكم تترجم تلك الأفكار أيضًا؛ فالمنبع واحد والوسائل مختلفة، وإنما التفاضل بالقدرة على التعبير عن تلك الأفكار.حتى الصمم يحيله الشاعر بلفتة ذكية إلى ميزة حين يقول:

وَفِي أذُنَيَّ دُونَ الفُحْشِ وَقْرٌ   وَتُسْدَل ُدُوْنَ مُنْكَرِهِ السِّتَارَة

بل يجعل الشاعر للقلب أذنًا هي خير من الأذن السامعة:

إذا أُذُنُ الفُؤَادِ صَفَتْ وطَابَت   فَمَا فَقْدُ الْمَسَامِعِ بِالخَسَارَة

وبعد أبيات طويلة يختم الشاعر بما يُعلي من شأن لغة الإشارة من حيث هي نافذة إلى أفكار هؤلاء البكم الفصحاء:

سَيُوْصَدُ دُوْنَ فَهْمِ القَوْلِ بَابٌ   إذا لَمْ تَفْهَمُوا (لُغَةَ الإِشَارَةِ)!!

والخوف أن يفقد المرء حريته إن لم يفهم الإشارة منذ كان الحر تكفيه الإشارة.

وفي قصيدة (أستغفر الله) يصور لنا الشاعر أبوحسان موقف طائف حول الكعبة بجسده، وأما قلبه فطائف بكعاب تطوف، يتنازعه الدين والدنيا، ولكن الصياد صار فريسة، وتبدأ المفارقة بالظباء التي لا يحل صيدها في الحرَم؛ ولكنها تصيد الليث فيه:

ظباء مكة لا يقتلن في الحرم   ما بالهنَّ قتلن الليث معتمرا؟!!

وهو موقف عمريّ خبرناه من ابن أبي ربيعة، ومن بصري الوضيحي الشمري الذي زاحمته من رامت تقبيل الحجر فلم يملك إلا تقبيل خدها، يقول شاعرنا السراء:

فللخضاب بكفٍّ أومأت فتنٌ   فكيف تزحمني كي تلثم الحجرا ؟!

هذا بعض من شعر السراء وأعذب الشعر أكذبه، ولكن لشاعرنا قول آخر:

ما أكذب الشعر،إن ما هز سامعه   تراه شوقا كعود البان مضطربا

فهل نجد من شاعرنا الآخر (عبدالرحمن النويصر) ما يهز سامعه، وهذا ما سنعرض له بعدُ.

(٢)

لم تكن ليلة الثامن عشر من ذي القعدة عام ١٤٣٣هـ أول معرفتي بالشاعر الرقيق عبدالرحمن النويصر فقد تفضل بإهدائي ديوانه (لوعة الظنون)، وهو عنوان قصيدة في الديوان، ومعظم قصائد الشاعر فيض مشاعر يجيد نسج بنائها ويتفنّن

في تخير كلماتها الموحيات التي تلامس شغاف القلوب، ويحسب سامعه أنه يتحدث بلسانه ويحكي خواطره ويفصح عن مكنون نفسه، فإذا السامع يفرح في لحظات الفرح وإذا هو يأسى في لحظات الأسى. نجد في الديوان قصائد معبرات عن محبة الوالد ابنته (ذكرى)، وتأتي في مطلع هذه القصائد قصيدة (لوعة أب) التي يظهر اسم ذكرى في ثالث بيت، وهو من أجمل بيوت القصيدة لما اكتنز به من التفات إلى المأثور التراثي الرائع، يقول:

أبتْ ذكرى سوى قلبي مُثارًا   لنقع الشوق كسبًا للنزال

فإنا نستحضر، بهذا، الخيول الأصيلة العاديات التي أقسم بها الله تعالى، قال عز وجل: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ [العاديات٤]، ثم قول بشار بن برد:

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤوسِنَا   وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُه

وكان مطلع القصيدة دعوة للتعالي مطرزًا بألوان من البديع، فالجناس في ثلاثة مواضع منه؛ إذ بدأ بفعل أمر يدعوها به للتعالي، ثم ختم باسم التعالي، فجمع بين الاسم المبيّن للحركة الفاعلة ثم الاسم المبيّن وضع الاستقرار والاستمرار بالاتصاف، ونجد الطباق في (تعالَي) من العلو والمنعة حيث يقابلها (تعالِي) دعوة للقدوم والمطاوعة، ونجد الجناس بين (تعالِي) الفعل و(تعالِ/تعالي) الاسم، يقول الشاعر:

تعالَي يا منى عمري تعالِي   وتِيهي في حياتي في تعالِ

وكان من أكثر ما أثار إعجاب الناس بالشاعر الرقيق المتواضع أبي ذكرى احتفاؤه بضيفه الشاعر أبي حسان وتقديمه له على نفسه وتصريحه بأنه يستحق أمسيّة خاصة لا ينازعه فيها أحد، ومن قصائد الشاعر عبدالرحمن النويصر التي

شدّت الجمهور قصيدته في ابنته ذكرى حين عاد من سفره فلم يجدها، لأنه تعود أن يقبلها قبيل نومه، فكان أن جمع بعض أشيائها أمامه فكانت قصيدة سكب فيها عبراته، ومنها قوله:

تتصاغر الدنيا إذا ما أقبلت   كلُّ القريض بما سواها أضيَعُ

واستعماله (أضيع) هنا من الاستعمالات النادرة في العربية حين يأتي أفعل بمعنى فاعل، كما في مطلع لاميّة العرب للشنفرى:

أقيموا بني أميّ صدور مطيكم   فإني إلى قوم سواكم لأمْيَل

فقوله (أمْيل) أي: مائل. ومن طرائف أبياته ما نجد فيه القلب في المعنى، فإن يكن المألوف أن يلوك المتحدث الحروف مجازًا فإن الشاعر قلب المعنى، فجعل الحروف أنفسَها تلوكه تعبيرًا عن فقده التحكم والسيطرة بسبب بُعد حبيبته ذكرى عنه، وهذا جعل الحروف تتشكل بما يرضي النفس ويؤنس الخاطر، يقول:

وإذا تولت فالحروف تلوكني   في كل سطر للصغيرة موضع

ويعبّر عن ذروة شغفه بها حين لا يرى غيرها فيجعلها حجابًا دون الخلق:

يتبدّد الأحباب حين لقائها   فكأنها دون الخليقة برقع

ومن قصائدة التي أطربت السامعين (سحائب الحسن)، ومنها قوله:

صنعَت جنون العقل وهي بعيدة   ببراعة الأشكال والأسماء

وليس غريبًا أن تفعل ذلك وهي كما قال:

فيها من الأرض البسيطة سهلها   ومن السماء تطاول الجوزاء

وأعجب من ذلك قوله:

العين ماءٌ والرموش كدوحةٍ   واللحظ دائي والشفاه دوائي

ومن القصائد الشجية ما عبر به عن قريبته (نوال) التي توفيت فعُصر قلبه، وأشجى بشجوه السامعين، قال:

مضتْ في غير ما نَرجو نوالُ ... وما بالدمع للراجي نوالُ
وإذ بالقلب ثاوٍ في هموم ... كما صيدٍ تخرّمُه النبالُ
مضت خير البدور إلى زوال ... فما يجدي رثاءٌ أو سؤالُ

ثم يدعو الشاعر إلى الاعتبار من مصايب الدنيا ومفاجآتها حتى يقول:

فلا وعظٌ سينفع كالمنايا ... ولا خُطَبٌ تُبلِّغُ أو مقالُ

ويختم قصيدته ختامًا مؤثرًا يدعو فيه للمرحومة:

فنوّرْ يا إلهي القبر أنسًا ... فمنك إليك يا ربِّ السؤالُ

أعود إلى القول إن الشاعرين أبي حسان وأبي ذكرى أبدعا في الأمسيّة التي نظمها النادي الأدبي في القصيم فرع المذنب، وإن سماعهما وسماع ردودهما على المداخلات والأسئلة شيء ليس إلى وصفه من سبيل، فالشكر لهما والشكر لمدير الفرع الأستاذ الأديب عبدالرحمن الغنايم، وللجمهور الذي جعل الأمسيّة مشهدًا جميلًا.

الطباق الثقافي

(١)

هذا عنوان مقتبس من محاضرة ألقاها أ.د.عبدالله الغذامي في مؤتمر مسقط ونشرتها المجلة الثقافية في عددها٣٨٨، وما فهمته من هذا هو أنّ ثمة ظاهرتين متقابلتين إحداهما اللغة المزدهرة في إنتاجها، والأخرى ظاهرة النحو الذي يأخذ أصحابه على الناس ضعف لغتهم ويلاحقهم بالتصحيح، يقول أستاذنا "ولا مخرج لحل مشكلة النحو عند جمهرة العرب المعاصرين ما لم نتمكن من إقناعهم أولا بأن النحو ضرورة لغوية لهم، وأولها أن نثبت لهم أن الناس لن يفهموا منهم قولهم إلا بالشرط النحوي، وأن النحو هو العقد الدلالي بين المرسل والمرسل إليه، فإن غاب غاب معه فهم الرسالة، وهذا مطلب يبدو أنه غير واقعي؛ لأن الناس ظلت تنتج اللغة العربية الفصحى العصرية إرسالا واستقبالا، وإفهاما وفهما، دون وسيط نحوي، وبالتالي عم الشعور (غير المصرح به) بأن النحو ليس شرطًا للفهم والإفهام. مما يفقده وظيفته في الشعور العام"، والمشكلة هنا سوء فهم للنحو وهبه حصر النحو في مظهر واحد هو التصرف الإعرابيّ الذي يكثر فيه اللحن، والنحو أوسع أفقًا من ذلك، فهو منظومة من القوانين المنتزعة من وصف الاستعمال اللغوي في جمهرة اللغة؛ فمن هذه القوانين ما يتعلق بالمطابقة جنسًا وعددًا، ومنها ما يتعلق برتبة الألفاظ في التراكيب، ومنها ما يتعلق بربط عناصر التركيب، كل هذه القوانين هي روح ما سماه عبدالقاهر بالنظم حين فسر بلاغة الكلام بمدى تطبيق تلك القوانين وحسن تخير ما تتيحه من إمكانات، ومن هنا ندرك كيف استمرت اللغة العربية العصرية تفهِم وتفهَم وإن خالفت مقتضيات الإعراب ولم تُعن بسلامة

الحركات؛ لأن الفهم والإفهام ليسا مرهونين بالحركات وحدها، بل إن الحركات قد تكون سليمة في جمل غير مقبولة معنًى، وهو أمر جلاه سيبويه في مقدمة كتابه، وهو أمر يفسر لنا كيف استطاعت العاميات أن تفي بأغراضها التواصلية متخلية عن حركات الإعراب، بل استطاعت أن تنتج أشعارًا بليغة ذات مستوى فني زاخر بالصور والسمات البلاغية الباهرة قد تتفوق بها على قصائد كتبت بلغة معربة، ولكن هذا الفهم والإفهام إن هو جاء من غير التزام بالسلامة الإعرابية فإنه سيكون مهدرًا لأمكانات تركيبية لا تتحقق بغياب الحركات، مثال ذلك (إنما ضرب زيدٌ عمرًا) و(إنما ضرب عمرًا زيدٌ)؛ فالجملتان مختلفتان من حيث المعنى ففي الجملة الأولى حصر لضرب زيد في مفعول واحد هو عمرو، وهو بريء من ضرب غير عمرو، وأما الثانية فحصر لضرب عمرو في فاعل واحد هو زيد، وغير زيد بريؤون من ضرب عمرو، وهذا التفريق سيتخلف من غير الحركات؛ إذ سنضطر إلى التزام الرتبة فسيكون زيد في الجملة الأولى هو الفاعل (*إنما ضرب زيد عمرو) وسيكون عمرو الفاعل في الجملة الثانية (*إنما ضرب عمرو زيد). إن الصواب اللغوي مطلوب لذاته بغض الطرف عن مدى تعلقه بالوفاء بالمعنى أو احتياج المعنى إليه، وللتقريب نمثل بربط الحزام عند القيادة فهو شرط للسلامة أثناء السير؛ ولكن السير يمكن أن يكون من غير التزام به، ومثله الالتزام بالمسار الصحيح للمركبات؛ فقد يكون عكس المسار مؤدّيًا للغرض من الوصول إلى الغاية المنشودة باختصار مسافة وزمن؛ ولكن ذلك لا يعنى أنّ قوانين المرور لا جدوى منها. وأمر علاقة حركات الإعراب بالمعنى من المسائل التي تجادل فيها علماء اللغة المحدثون على اختلاف توجهاتهم، ومن أشهرهم إبراهيم أنيس الذي نفى علاقة العلامات بالمعنى الوظيفي

وحصرها في تسهيل النطق بالأصوات، وهو أمر ردّه أستاذنا داود عبده؛ ولكنه على مخالفته أنيسًا كان مخالفًا لمذهب القدماء أيضًا، ولكن ما يحفظ لأستاذنا داود عبده ذهابه إلى أن الالتزام بالحركات واجب لكونها قوانين كان لها علاقة بالمعنى الوظيفي أم لم يكن. وقبل أن ننتقل مع أستاذنا الغذامي أود أن أذكر أنّ التزام مستعملي الفصحى بقوانينها المعيارية هو ما كفل لها استمرارها عبر القرون.

(٢)

يطرح أستاذنا أ.د.عبدالله الغذامي سؤالًا يحاول أن يبين في إجابته حالة الطباق الثقافي ليخلص إلى أنّ اللغة بخير وأنّ النحويين ليسوا بخير، ولكن الذي يفهم عقلًا أنّ النحويين وغيرهم سيكونون بخير متى كانت لغتهم بخير، يقول أستاذنا "من هنا نطرح السؤال: هل صرنا أمام حال من الطباق الثقافي في وضعنا مع اللغة الفصحى المعاصرة...؟!!"، إن كانت اللغة المعاصرة هي (اللغة الفصحى) فما شكوى "أهل النحو واللغة وأهل الثقافة والكتابة"، وهذه الشكوى في قوله "هي حالة ظلت تتكرر على مدى قرن كامل أو يزيد، وكلما توسعت دوائر التواصل الثقافي تكثف معها القول بالخطر الداهم على اللغة العربية، وأصبح هذا علامة ثقافية في كل محفل أو مؤتمر أو لقاء إعلامي"، والحق أنّ هذه الشكوى ليست جديدة، بل هي نشاط حيويّ رافق اللغة في أزهى عصور ازدهارها، فحبها والغيرة عليها جعلت كتب لحن العامة ركنًا من أركان المكتبة العربية، وإن من الطبيعي أن تتكرر مع توسع التواصل الثقافي، إذ وهب هذا التوسع المجال لكل أحد أن يكتب ما يشاء على ضعف مهاراته اللغوية.

وعلى نحو ما حصر أستاذنا النحو في علامات الإعراب حصر الغرض من

استعمال اللغة في الإبداع الأدبي، أو هكذا ما يفهم من عباراته، يقول "قرن أو يزيد يكتظ بالتخويف على مآل العربية، وفي المقابل فإننا نشهد أمرًا نقيضًا لذلك النذير ويخالف كل مؤشراته، والذي يحدث عمليًّا أن قرنًا كاملًا أو يزيد، كذلك مرّ في عصرنا الحالي ولم نشهد فيه أية علامة على اهتزاز موقع لغتنا ولا على قيمتها بين الناس. بل هي في حال من الازدهار المتصل كما تؤكده الوقائع".

فأين الحال المزدهرة في لغة استبدلت بها الإنجليزية في تعليم العلوم في الجامعات وغيرها من المدارس الخاصة؟ وأينها وما عادت لغة العمل في القطاع الخاص؟ وأينها وهي لغة الأطباء والعاملين في مستشفياتنا، وهي لغة الطيران، وأين هي والمؤتمرات تعقد بغيرها في عقر دارها، وأين هي لا تشترط إجادتها في الوظائف بل تشترط إجادة الإنجليزية، وأين هي على ألسنة أبنائنا الطلبة الذين لا تخفى حالهم عن أستاذنا، قد يُفرح أستاذنا هذا الإنتاج الكتابي الكثيف، ومن حقه أن يفرح به؛ ولكنه ليس من المقبول أن يغلب الكم على الكيف، وليست الكثرة بدليل صحة:

أعيذها نظرات منك صادقة   أن تحسب الشحم في من شحمه ورم

إن الإنتاج الأدبي مطلوب وجميل؛ ولكن سلامته من العيوب مطلوبة أيضًا، وليس من العيب أن يراجع المنتج ما أنتجه ليرأب صدعه ويزيل شعثه، وهذا من أصول كل صناعة. ويستدل أستاذنا لإبطال شكوى "أهل النحو واللغة وأهل الثقافة والكتابة" بحال اللغة اليوم وحال لغة الأجداد القريبين، يقول "ويكفي أن نسأل أنفسنا عن حال اللغة العربية مع مطلع القرن الحادي والعشرين وحالها التي كانت عليها في القرن التاسع عشر، وحينها سنرى أن الفاصل بين القرنين يشهد

أن حال اللغة قد تحسنت بأفضل مما كانت الحال عليه في أي زمن مضى، ويكفي أن يقارن المرء منا حالة لسانه الخاص به مع ألسنة أجداده القريبين لكي يرى بأم عينه كيف أن اللغة صارت على لسانه وعلى مسامعه وفي بيئته الثقافية المحيطة به بحال لا مقارنة فيها مع كل ما سبق"، ويكفي أن نقول إنها لم تتحسن بالتخلي عن الإعراب كما تخلت العاميّات، ولا بإطلاق القول من غير عقال من قوانينه، بل تحسنت بالعودة إلى الأصول وربط الحاضر بالماضي الزاهر، ولولا تعلم اللغة الفصيحة وإتقان علومها ما كان للغة الناس أن تكون على ما هي عليه اليوم، والموازنة التي يعقدها أستاذنا غير دقيقة فهو يوازن بين لغة فصيحة معاصرة ولغة عامية قديمة هي ما يقصده بلغة الأجداد القريبين، وكانت تصح الموازنة لو وازن بين عامية وعامية أو بين فصيحة وفصيحة، والطريف أن أهل العامية يشتكون من فسادها وسوء استعمال الناس اليوم لها، وأظهر ما يتجلى هذا في فقدان الكفاية الاجتماعية التي كانت مرعية حق رعايتها في عامية الأجداد، وإن يكن للفصيحة حراسها فإن للعاميات حراسها أيضًا. وأما قوله"إذن... هل النذير نذير حق وحقيقة وهل هو كاشف عن خطر داهم مهدد أم أنها حالة حنين شعري وتخييلي...!!" فسؤال سنجيب عنه في مداخلة قادمة.

(٣)

أعود إلى سؤال أستاذنا أ.د.عبدالله الغذامي الذي أنهيت به مداخلة سابقة وهو قوله "إذن... هل النذير نذير حق وحقيقة وهل هو كاشف عن خطر داهم مهدد أم أنها حالة حنين شعري وتخييلي...!!" وهو سؤال لا ينتهي منه العجب، فقد لا يكون الخطر داهمًا عاجلًا؛ ولكنه كالمرض إن هو أُهمل أودى مع الزمن

بصاحبه، ومن العجب أن يسطّح أستاذنا شكوى "أهل النحو واللغة وأهل الثقافة والكتابة" فيخطر على باله كونها حنينًا شعريًّا وتخييليًّا، ولست أعرف ما الحنين الشعري والتخييلي، والذي أعلمه أنّ بعض اللغات كانت في أصلها لغة واحدة ثم تشعبت لأنّ أهلها لم يهتموا بأسباب وحدتها، ومن يسمع أبناء العربية من مذيعين ومذيعات في بعض وسائل الإعلام ينتابه قلق حقيقي لا علاقة له بالحنين الشعري، وأدرس في هذا الفصل شعبة من طلاب التخصص على وشك التخرج لا أعلم كيف مروا حتى انتهوا إلى هذه المرحلة، إنهم طلاب لا يحسنون القراءة إن هم قرأوا، ولا يحسنون الكتابة إن هم كتبوا، ولا هم يفهمون ما قرأوا ولا هم يحسنون التعبير عن شيء قرأوه، ولا هم يعرفون ما يجب أن يعرفوه من علوم العربية، وتقرأ في الشبكة العنكبية فتراها ملئت بالعاميات وبالعربية الركيكة التي لا تصلح أن توصف بالفصيحة، وإنك لتقرأ الروايات والدواوين لا يهتم مؤلفوها بما اشتملت عليه من أخطاء، وإنك لا تكاد تقرأ مقالا صحفيًا خلا من الخطأ، وأما الإعلانات فأمر الخطأ فيها صار موضع تندر وصار أمر صياغتها بأي عامية أمرًا مسكوتًا عنه، كيف لا ينتابنا القلق وبعض الطلاب المتقدمين لكتابة رسائل الدكتوراه تجد مهاراتهم اللغوية فيها نظر، ناقشت مع طلاب الدراسات العليا بحثًا كتبه أحد أساتذة النحو ونشر في مجلة لغوية عرفت بدقتها فوجدنا البحث مُلئ بالأخطاء، كيف لا نقلق والشباب قد اخترعوا لغة هي خليط من العربية والإنجليزية وتكتب بالأحرف اللاتينية والأرقام ولها معاجمها المطبوعة.

ويستعرض أستاذنا في تضاعيف إجابته عن سؤاله المسارات الجديدة للغة مستعرضًا تكرر ميلاد العربية فميلادها الأول بنزول القرآن والثاني في العصر

العباسي حتى يصل إلى الأنثى (تويتر) التي رأى اللغة فيها وإن تكن تجربته عمرها عام ليقول "ورأيت فيها حدثا يعيد حادثة العصر العباسي"، هكذا يُزوى العصر العباسي في تغريدات، وهكذا تولد اللغة في تويتر، ولا نعلم ما توصف به لغة المعلقات والشعر الجاهلي قبل نزول القرآن أكانت جنينًا لتولد أول مرة بنزول القرآن؟ إن الحماسة مفيدة باعثة على النشاط إلى العمل والكتابة؛ ولكن وضع الأمور موضعها من أوجب واجبات الكتاب. لا أجادل في أنّ ضيق المساحة في تويتر جعلت الكتّاب يعملون عقولهم فيحسنون صياغة ما يكتبون، فيزوونه ببراعة مستفادة من طاقة العربية وقدرتها على الإيجاز، ومن اتصاف رسمها بالاقتصاد؛ إذ يكتب نصف ما ينطق، وأن لو كتبوا كل ما ينطقون به لأشكل أمر تدوين ما يريدون، وإن يكن من حسن في كتابة المغردين فمرده كما قال النحوي العظيم عبدالقاهر الجرجاني إلى معاني النحو قال "فإذا ثبت الآن أن لا شك ولا مرية في أن ليس النظم شيئًا غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم، ثبت من ذلك أن طالب دليل الإعجاز من نظم القرآن إذا هو لم يطلبه في معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه، ولم يعلم أنها معدنه ومعانه وموضعه ومكانه، وأنه لا مستنبط له سواها، وأن لا وجه لطلبه فيما عداها، غارٌّ نفسه بالكاذب من الطمع، ومسلمٌ لها إلى الخدع، وأنه إن أبى أن يكون فيها كان قد أبى أن يكون القرآن معجزًا بنظمه"(١). فإن يكن النحو هذا شأنه من تفسير إعجاز القرآن فكيف يُهوّن من أمره ويتندر به كما سيتبين في كلام قادم.

---

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ٥٢٦.

(٤)

يجعل أستاذنا الغذامي عنوانًا جانبيًّا سماه (بكلام ليس من كلامنا) وهو عنوان اقتبسه من حكاية نقلها أبو حيان التوحيدي،وهي حكاية وقعت في مجلس الأخفش عن أعرابي حضر درسًا في المسجد (فسمع كلام أهله في النحو وما يدخل فيه، فحار وعجب وأطرق ووسوس، فقال له الأخفش: ما تسمع يا أخا العرب...؟ فقال: أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا). وليس بغريب من هذا الأعرابي الذي لا يعرف من وظائف اللغة سوى ما يحقق أغراضه المباشرة في محيطه وبيئته؛ ولكن الغريب أن ينطلق أستاذنا من مثل هذه الحكاية ليقول "هذه حكاية تحمل مفارقتها الثقافية التي لما تزل[١] حيّة وتنتج مفعوليتها الدلالية وهي هذه الهوة العميقة ما[٢] بين اللغة والنحو"، وكأن أستاذنا يغض الطرف عن الفرق بين لغة التواصل اليومي ولغة العلوم ومصطلحاتها، وهو أمر لا يخص النحو وحده؛ فهذا الأعرابي أو نظيره من عامتنا لن يفهم مصطلحات النقد والأدب، وهو لن يفهم مصطلحات الهندسة والطب والطبيعة وغيرها، فتلك لغات خاصة، ولكل صناعة لغتها التي يستعملها أهلها في صناعتهم ولا يستعملونها مع غيرهم إلا ما كان منها مشتركًا، وليس ينفع اللغة أية لغة أن تهجر نحوها؛ لأن غرابة محتواه تصدم عامة الناس، وكتب التراث تروي لنا جملة من الطرائف والملح التي تفصح عن أن الناس أعداء ما جهلوا، أورد السيوطيّ حكاية عن السجستاني

---

(١) تستعمل (لَمّا) لنفي الفعل المتوقع حدوثه، ويفهم من هذا أن الزوال متوقع، ولعله أراد (ما زالت).

(٢) لا أعرف الغرض من (ما) هنا، ولعله أراد (التي).

أنه "دخل بغداد، فسئل عن قوله تعالى: (قوا أنفسكم)، ما يقال منه للواحد؟ فقال: قِ، فقال: فالاثنين؟ فقال: قيا، قال: فالجمع؟ قال: قوا، قال: فاجمع لي الثلاثة، قال: قِ، قيا، قوا. قال: وفي ناحية المسجد رجل جالس معه قماش، فقال لواحد: احتفظ بثيابي حتى أجيء، ومضى إلى صاحب الشرطة، وقال: إني ظفرت بقوم زنادقة يقرأون القرآن على صياح الديك، فما شعرنا حتى هجم علينا الأعوان والشرطة، فأخذونا وأحضرونا مجلس صاحب الشرطة، فسألنا فتقدمت إليه وأعلمته بالخبر، وقد اجتمع خلق من خلق الله، ينظرون ما يكون، فعنفني وعذلني، وقال: مثلك يطلق لسانه عند العامة بمثل هذا! وعمد إلى أصحابي فضربهم عشرة عشرة، وقال: لا تعودوا إلى مثل هذا"(١). ومن تعليق لي على هذه الحكاية قلت إن من الخطر الإفصاح عن مكنون العقول في محضر العامة التي قد لا تتصف برحابة الصدر وسماحة الخاطر لتستقبل الجديد الغريب الذي لم تألفه نفوسهم وما اعتادته طبائعهم، وهذه كانت معضلة المبشرين وأصحاب الكشوف والاختراعات الذين هلك طائفة منهم بجهل المحيطين بهم والمقتدرين عليهم. ثم يمضي أستاذنا إلى القول "تتسع اللغة أسلوبا وصيغا ولكن النحو يظل في نموذجه كما رسمه الأعرابي (ليس من كلامنا)، في حين تبقى صيغة الكلام عربية، والكلام به وفيه عربيان، ولكن صيغة ثالثة تظل ليست من الكلام، وهي صيغة النحوي والنحوية، وهنا يأتي المأزق الذي ظل متجمدًا على مدى قرن من ثقافة الشكوى وثقافة البحث في حلول تحاول معالجة سؤال النحو في الثقافة العربية"، ولسنا على يقين من غرض أستاذنا؛

---

(١) السيوطي، بغية الوعاة، ١: ٦٠٦.

فما الذي يريده للغة النحو ومصطلحاته حتى يرضى عنها، وكيف نتدرب على تصريف الأفعال إن كان ذلك غريبًا. النحو علم، والعلوم ليست ممتعة متعة الرواية والشعر والفنون؛ ولكنه كغيره من العلوم ضروري، وكل تلك الفنون الجميلة إنما كانت جميلة لما اتصفت به من انتظام، ولكنك إن جئت تكشف عن أسرار جمالها، وبيان أنظمتها انتقلت إلى مستوى يفارق جمال مستواها. وما وصفه من اتساع في اللغة أسلوبًا وصيغًا شاهد للنحو أنه لم يعق تلك اللغة عن الاتساع، ومن المقرر أن اللغة أوسع من نحوها، يشهد لذلك ما عرفناه من لغة القرآن والحديث والقصائد الجياد، فكل أولئك اشتمل على استعمال فارق القواعد فقُبل من حيث هو لغة، وتُوقِّف فيه أن يكون معيارًا للاستعمال؛ لأن ذلك لو حدث لضاع المعيار، ولتشعبت الطرق، ولاتسع الشق على الراقع. وأما قوله "إن اللغة بخير ولكن النحويين ليسوا بخير" فموضوع حديث قادم.

(٥)

بهذه المداخلة الخامسة الآخِرة أنهي حواري مع أستاذنا الدكتور الغذامي، ولولا خشية الإملال لامتدّ القول؛ لأنّ كلام أستاذنا مثير للقول باعث إلى الجدل، ومما يتوقف فيه قوله "هنا سنقول إن اللغة بخير ولكن النحويين ليسوا بخير، وأنت عادة إذا رأيت الشعب بخير ولكن ساسته ليسوا بخير فاعلم أن العلة في الساسة، وكذا سنقول إن العلة في النحويين"، وغني عن البيان أنّ من البديهيّ أنه من ليس بخير فإنما لعلة فيه، ولكن السؤال هو أمن صُنعِه هذه العلة أم من صنع غيره؟ والذي نخالف فيه أستاذنا كثيرًا كون اللغة بخير، وكنت ذكرت من أسباب ذلك ما يغني عن الإعادة. ويفصح عن ضيقه من النحويين بقوله "ومنذ أن سن المرحوم

مصطفى جواد بدعة (قل ولا تقل) وجعلها برنامجًا إذاعيًّا يضع شروطًا على اللسان اللغوي ونحن في لعبة القط والفأر مع أهل التخصص الذين يريدون الحجر اللغوي ويقصرون الناس على صيغ سماعية أو قياسية عامة ويمنعون اللغة من أن تصنع صيغها وتجدد نفسها بتعابير مبتكرة تجاري شرطها العصري"، وإن يكن جواد سنّ شيئًا فهو سنة لا بدعة، وهي سنة أسلاف سبقوه منذ الكسائي صاحب لحن العامة، وليس من شأن أهل التخصص أن يحملوا الناس على شيء ولا أن يمنعوا اللغة من تطورها، فليس ذلك بمَلكهم، وقصارى الأمر أنهم ينبهون غافلًا أو يهدون ضالًا، فمستعمل اللغة بشر يصيب ويخطئ؛ فإن لم يجد من يصحح له خطأه كثرت الأخطاء وعمت الفوضى، والعربية لغة رسالة وكتاب؛ ولذلك يجب أن يكون استعمال الناس اللغة بما لا يفارق لغة تلك الرسالة والكتاب مفارقة ينسى معها ذلك الكتاب كما حدث في لغات أخرى، ولعل أستاذنا أراد التمثيل لتحكم أهل الاختصاص بقوله "لقد بلغ الأمر إلى حد لو أن فتى أو فتاة كتبت مفردة لغوية حسب الإملاء العثماني في كتابة المصحف فإن التبجيل اللغوي سيقول لها إنها أخطأت وسيبكي على حال اللغة وحال الأمة، وسنسمع منه تخريجات تحايلية ليميز بين إملاء المصحف وإملاء اصطنعته كتب الإملاء المدرسية، وكل ذلك لكي يضيق واسعًا ولكي يبرر اشتراطاته الثقافية، مما يعزز سلطة التخصص وتسلطه على ذهن صاحبه أولًا، ثم على جمهرة الناس"، ولا أرى المثال موفقًا لما فيه من تناقض مفاده أن الإملاء المصطلح عليه مجاوز للرسم العثماني، فكيف ينكره أستاذنا وهو يدعو إلى التجديد، وأما التمييز بين رسم المصحف والإملاء فليس بتحايل بل هو تاريخ يعلمه أهل الفن والاختصاص، وكان رسم المصحف ساذجًا

لا نقْط فيه لإعجام ولا إعراب، وأما كتب الإملاء المدرسية فلم تصطنع شيئًا بل تابعت ما اصطلح عليه السلف وشاع بين الناس استعماله، والإملاء أمر اصطلاحي لابد من الالتزام به ما لم يجدد الاصطلاح على تغيير شيء فيه. ثم يعود إلى القول "ويكفي أن نتذكر أن مقولة (قل ولا تقل) لم تظهر في العصر العباسي، ولو كانت ظهرت وطبقت لضاع علينا ثلاثة أرباع لغة الحضارة في ذلك الزمن المنتج والمثمر، ولذا فظهور هذه المقولة اليوم مع عدم اكتراث الناس بها سيجعلها مجرد نكتة ثقافية، لأن اللغة تنظر للنجاح وللإنتاج، ولذا تظل حية"، نعم صدق أستاذنا فليست (قل ولا تقل) بلفظها في العصر العباسي ولكنها بمعناها متواترة الظهور في كل العصور منذ قول المصطفى ﷺ "أرشدوا أخاكم فإنه قد ظلّ"[١]، وقول الفاروق رضي الله عنه "أن قنع كاتبك سوطًا"[٢]، وأما ظهورها اليوم وعدم اكتراث الناس بها فلن يجعلها نكتة ثقافية بل مصيبة ثقافية. وأختم بقوله "لو كنا في موضع خيار لأوصيت بمقولة لغوية نظرية هي: قل وقل، ولشطبت مقولة: قل ولا تقل"، أستاذنا ليس في موضع خيار ولكنه أوصى بما أراد، ونحن مع أستاذنا نقول لكل قارئ: قل وقل، ولكن راع في قولك نظام لغتك وقوانينها وتجنب الفوضى، واعلم أن جمال لغتك إنما هو قرين مراعاة ذلك النظام، وليس بمخالفته جهلًا أو عنادًا، وحسبك أن تكون ملتزمًا بقانون هذه اللغة التزام أستاذنا نفسه وإن أوهم أنه يدعو لغير ذلك، وفق الله أستاذنا الجليل الذي نكن له الإجلال

---

(١) ينظر: ابن جني، الخصائص، ٢: ٨.

(٢) ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٦: ٣٥٧.

والتقدير.

العبداللّات:ليس خطأً لغويًّا

سعدت بقراءة ما كتبه أخي ظافر بن محمد المبطي في العدد ٢٤٨ من المجلة الثقافية معقبًا على ما كتبته عن (العبداللات) في العدد ٢٤٦، وإني إذ أشكره على تفضله بالقراءة والكتابة أود أن أبين ما هو من قبيل الاجتهاد الذي هو سبيل كل هذه المداخلات. جاء في مداخلة الأستاذ ظافر قوله: "وقياسًا، فهم لم يفرقوا بين التاء المربوطة التي هذا جمعها وبين الهاء في لفظ الجلالة (الله) وهم بلا شك وقعوا في الخطأ من ناحية العبودية، ولكن أنقذهم من تبعات ذلك الخطأ، خطأ لغوي آخر، وهو تحويلهم (آل) إلى (ال) التعريف فأصبح الاسم بهذا التحريف (العبداللات) وهذا أسلوب وصف وليس أسلوب إضافة والعبودية لا تصح إلا بالإضافة". وأحسب أنّ الذين جمعوا بالألف والتاء لم يخلطوا بين تاء مربوطة وهاء؛ لأنهم في الظاهر لا ينطقون الهاء، فاللفظ عندهم (عبد اللا) وهذا شائع في لهجات العرب اليوم، والأمر الثاني أن الألف والتاء إنما ألصقتا باللفظ إلصاقًا، بغض الطرف عن نهايته، كما تلصق بعد (رجال) لتصير (رجالات)، وتجدها في مثل (قطارات).

وأما إدخال (ال) في أسماء الأسر فليس من قبيل التحول من (آل) بمعنى (أهل) إلى (ال التعريف)، وليس بينهما سوى هذا التقارب اللفظي. وأما (ال التعريف) هذه فاعتاد الناس إدخالها على الألقاب التي يتلقبون بها مثل (الأصقه أو الصليع أو الشوشان)، ولما جعلت هذه الألقاب أسماء للأسر عمم الاستعمال فأدخلت (ال) على أسماء الأجداد أيضًا حين جعلت أسماء للأسر كأنها ألقاب لهم مثل (صالح وحسين وعلي) فقيل: الصالح والحسين والعلي. ومثلها (عبد

القادر، وعبد الخالق، وعبدالله) صارت: العبد القادر والعبد الخالق والعبدالله. وأما قوله "والعبودية لا تصح إلا بالإضافة" فقول غامض غريب فما الذي يقوله في الأسماء (زين الدين، صلاح الدين، أبا حسين) إذا أدخلت (أل): الزين الدين، الصلاح الدين، الأباحسين).

وأما كون الثلاثة الأخيرة في أصلها من قبيل المضاف والمضاف إليه فلا يضير؛ لأنهم استعملوها استعمالًا وظيفيًّا، فأصبحت عندهم مركبًا إضافيًّا في قيمة المفرد الواحد فالاسم (عبد الله) وإن يكن من لفظين في الظاهر هو في دلالته لفظ واحد مثل دلالة الاسم (زيد). بل إن بعض أسمائنا عوملت معاملة المركب المزجي وكتبت كالكلمة الواحدة مثل (البنعلي: ابن علي) و(البراشدي: بو راشدي). وأمر عدّ المتضايفين مركبًّا قديم، قال سيبويه: "المضاف والمضاف إليه بمنزلة اسم واحد منفرد، والمضاف إليه هو تمام الاسم، ومقتضاه ومن الاسم، ألا ترى أنّك لو قلت: عبدًا، أو أميرًا، وأنت تريد الإضافة لم يجز ذلك"(١). وقال "وابن عرس يُراد به معنى واحد كما أُريد بأبي الحارث وبزيد معنى واحد"(٢). والبحث في هذا واسع أجاده بحثًا ودرسًا الدكتور علي المعيوف في رسالته للماجستير (المركب الاسميّ في كتاب سيبويه)، وقد نشرها مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية (١٤٢٨هـ).

---

(١) سيبويه، الكتاب،٢: ٢٢٦.

(٢) سيبويه، الكتاب،٢: ٩٦.

العرب الغاربة

لست تملك أن تدفع الأحساس بالحزن والإحباط وأنت تقرأ حال العرب اليوم كما وصفه أستاذنا الدكتور أحمد بن محمد الضبيب في مقاله (النشر والقراءة في زمن العرب المستغربة) في صحيفة الجزيرة ذات العدد ١٣٥٤١والتاريخ ٦من ذي القعدة ١٤٣٠هـ ، نبه أستاذنا إلى خطر المغالاة بتقديم اللغة الأجنبية في العمل والتعليم وكيف أن العرب بدع من بين الأمم كلها وتساءل "هل نجد لدى هذه الدول تهويلا وتضخيمًا لأهمية اللغة الإنجليزية في الحياة؟ أم هم يتعاملون معها على أنها لغة مطلوبة في بعض حالات الاتصال مع الآخرين فلا يفرضونها على جميع المواطنين، ولا يعلقون لقمة عيش كل مواطن بها، فهي لا تشكل هاجسًا ضخمًا في حياتهم كما هي الحال عندنا؟"، كلا فالأمم الأخرى تحافظ على لغاتها، ولم يمنعها هذا من التقدم الحضاري أو التقني بل تفوقت فيه كل التفوق، واستنكر أن نلوم العرب في قلة قراءتها أو ترجمتها أو نشرها ونحن نسعى إلى تغريب أبنائنا بحملهم على تعلم الإنجليزية وتضخيم أهميتها تضخيمًا لا مسوغ له، وسأل ما الغرض من لوم العرب في قراءتها ما دمنا لا نقيم للعربية وزنًا ولا نضعها موضعها الذي تستحق، وأستاذنا لا يشغله شيء كخوفه على العربية وتنحيتها، ولذا تجده يواصل الكتابة في هذه المسألة وإلقاء المحاضرات والتعليقات والبحوث. والحقيقة الصارخة أن الخطر عظيم والخطب جلل؛ إذ نحس أنا أسرى للغة الأجنبية فهي الممسكة بعصب العمل في بلادنا، وهي المسيطرة على التعليم في جامعاتنا، والأدهى من ذلك أن الجيل الحاضر صار يتكلم ويكتب بلغة غريبة لا هي الإنجليزية

الخالصة ولا العربية الخالصة، بل تسمع جملا عربية مرقعة بكلمات إنجليزية، وصارت كتابتهم بما يسمى العربيزي، وهو كتابة العربية بالأحرف اللاتينية، وكان هذا ما دعا إليه نفر من الناس منهم عبدالعزيز فهمي الذي استثار الناس في ذلك الوقت فجوبه بعاصفة من ردود الفعل وأميت اقتراحه، ولكن أبناءنا يحققون اقتراحه بطواعية. إن الخطر الذي تواجهه العربية مسؤولية قومية ليست خاصة بأحد دون أحد، فالمسؤول عن التربية معني بها والمعلم معني بها والأسرة معنية بها، ورجل الأعمال معني بها، والحاكم، خِصّيصى، معني بها. وليس يمكن دفع هذا الخطر ما لم تجبر حركة العمل في البلاد على جعل اللغة المستعملة العربية، وما لم يشترط لاستقدام العامل معرفته العربية، وما لم تعلم العلوم في جامعاتنا بالعربية. كنا في إندونيسيا مشتركين في مؤتمر (اللغة العربية من المنظور الثقافي والاجتماعي) وكان من بين أسئلة أحد أبناء إندونيسيا: كيف نجعل العربية لغة العالم كله؟ بقدر فرحي بهذه الحماسة الصادقة للعربية لحبه لها ورغبته فيها كان حزني وأنا أجد ازورار العرب عن لغتهم وتشبثهم الغريب بالإنجليزية من غير مسوغ حتى صار صاحب المكتب العقاري يشترط في التوظيف إتقان اللغة الإنجليزية. وإني لأخشى خشية أستاذي إن استمر الحال على هذا المنوال أن يقال بحقنا العرب الغاربة.

العربية بين الانقراض والتطور

يأخذك العجَب ويملأ تضاعيف نفسك الإعجاب وأنت ترى حماسة الإندونيسيين للعربية وخوفهم عليها وشدة تعلقهم بها وبأهلها؛ آية ذلك أن تعقد إندونيسيا المؤتمرات السنوية المتواصلة التي تعالج قضايا العربية، وهذا هو المؤتمر الثاني الذي أشارك فيه بعمل بحثي، ففي الفترة بين ٢٢ و٢٤ يوليو من عام ٢٠١٠م عقد في مدينة جاكرتا عاصمة إندونيسيا مؤتمر "اللغة العربية بين الانقراض والتطور: التحديات والتوقعات"، ونظمه اتحاد مدرسي اللغة العربية بالتعاون مع جامعة الأزهر الإندونيسية حيث عقد في رحابها، شارك المؤتمرون بأكثر من مئة بحث دارت حول محاور منها استراتيجيات النهوض بالدور الحضاري للغة العربية وآدابها لمواكبة عصر التقنية والعلومات، الارتقاء بسبل تعلم العربية وتعليمها أبناءها وغير أبنائها لمواجهة حاجة سوق العمل، والنهوض بالعربية في المحافل الدولية. شارك في هذا المؤتمر باحثون من مختلف دول العالم: الأردن، الإمارات، أستراليا، إندونيسيا، إيران، البحرين، بروناي دار السلام، الجزائر، السودان، سوريّة، عُمان، قطر، فلسطين، ليبيا، ماليزيا، مصر، المملكة العربية السعودية التي شارك باحثون من بعض جامعاتها، جامعة الملك سعود، جامعة الباحة، جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، جامعة الملك عبدالعزيز، جامعة القصيم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، جامعة أم القرى، جامعة الملك خالد. وقد أظهر الباحثون في بحوثهم أهمية بيان قدرة العربية على الوفاء بالتعبير عن العلوم الحديثة كما فعلت في تاريخها المجيد، وأن هذه اللغة ليست محصورة بالعلوم الدينية أو الأدبية بل هي لغة تقنية واتصال عالمي أيضًا، وشدد الباحثون على أنها ينبغي أن تحتل مكانها الصحيح في

العمل وفي تعليم العلوم المختلفة قديمها وحديثها. وفي هذا الإطار جاء البحث الذي تشرفت بقراءته في الجلسة الافتتاحية في اليوم الأول، وهو "صعوبات تعلم العربية وتعليمها في عصر التقنية". بقي أن أقول إننا نشعر بالامتنان لإندونيسيا التي عهدت على نفسها أن تقيم مؤتمرًا عالميًّا سنويًّا عن العربية وقضاياها، وهو أمر ينبغي أن ينبه العرب إلى قصورهم في حق لغتهم في وقت يبذلون أموالهم في سبيل التسابق إلى مباريات كأس العالم ويتناحرون حولها، وأن لو خصصوا بعض ما ضيعوه في ذلك لخدمة العربية ونشرها في العالم لكان ذلك أعود إلى لغتهم وأنفع لدينهم، وإن المرء ليشعر بشيء غير قليل من الخجل وهو يرى إندونيسيا أو ماليزيا تعقدان المؤتمرات المتتابعة للعربية، حتى قال أحد المشاركين العرب إنه قد يأتي اليوم الذي نبعث به أبناء العرب ليتعلموا منكم العربية أهل إندونيسيا. هكذا اهتموا بلغتنا؛ ونحن العرب نتنكر للغتنا وننحيها عن العمل والتعليم، بل يتفاخر بعضنا بأنه لا يجيد العربية إجادته الإنجليزية، ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

العربية ومواكبة العصر

مؤتمر اللغة العربية ومواكبة العصــــر واحد من أهم المؤتمرات التي عقدتها الجامعة الإسلامية بعد اتساع مجالات اهتماماتها. ولن أتحدث عن أهمية المؤتمر ولا قيمة الأبحاث المكتوبة؛ لأنّ ذلك حديث يطول وأمره ميســـور لمن طلبه، ولكني أكتب عن مشاهدات شخصية رأيتها جديرة باطلاع القارئ الكريم.

وصلت أنا وزوجتي الدكتورة وسمية المنصور، ونحن مشاركان في المؤتمر، إلى مطار المدينة المنورة، وأخذتنا الحافلة إلى صالة التشريفات حيث كانت المفاجأة التي لم تكن في البال، تقدم إليّ رجل تتهلل أساريره بشرًا ورحب بي بأريحية بالغة: أهلا أبا أوس. وعرّف بنفسه: محمد العقلا.

معالي مدير الجامعة يستقبل المشاركين والضيوف! كم من المؤتمرات التي شاركنا فيها نفرح إن استقبلنا أحد صغار الموظفين أو الطلاب المكلفين العمل في المؤتمر، أما أن يســـتقبلنا معالي مدير الجامعة فهذا أمر لا ينتهي منه العجب ولا الإعجاب. قال لي وهو يعانقني بكل محبة: سمعنا كثيرًا عن أبي أوس واليوم نلقاه، قلت تسمعَ بالمعيدي خير من أن تراه، فضحك وعقّب بالنفي وشكرني للمشاركة في المؤتمر، ثم قال بنغمة فيها أســى: أعتذر الدكتور إبراهيم التركي فلن يحضــر، قلت: أبو يزن؟ قال: نعم. وبعد وصول السيارة التي حملت أمتعتنا خرجنا لنركب فيها وخرج معنا مدير الجامعة يشـيعنا ويدعو لنا بالإقامة الطيبة في مدينة المصطفى.

كـان اليوم الثـاني من أيـام المؤتمر الثلاثـاء ١٤٣٣/٥/١٨هـ، وفي إحـدى قاعتي الندوات حيث كنت جالسًا مع زملائي الباحثين فاجأنا د. عبدالمحسن بن فراج القحطاني مدير الندوة بقوله بعد انتهاء كلام أحد الزملاء: "مدير الجامعة الذي تعودنا أن نراه في مقدمة الصـــفوف أين هو؟" كأنه يلومه، هذا ما خطر بالبال لولا أنه قال "إنه جالس في الصـف الرابع، ومن غير بِشـت(١)"، اشـرأبت الأعناق والتفتت الوجوه لترى الأستاذ الدكتور محمد بن علي العقلا جالسًا يجلله الوقار ويزينه التواضع الجمّ.

حملتنا الحافلات بعد انقضـاء المحاضـرات إلى قاعة واسـعة أعدت الجامعة فيها غدءًا فاخرًا للمشـاركين والضـيوف والحاضـرين المؤتمر. كنت ومن شـاركني الجلوس إلى المائدة نتحدث عن الجامعة ومديرها، رووا من خلقه ونبله العجائب، وكنت أروي لهم أن كل من لقيته يروي كيف خصّـه المدير بعنايته حين استقبله، في هذه الأثناء أفاجأ بمن ينحني عليّ، يضـــع كفه برفق على كتفي، ويتحدث بلطف بالغ مرحبًا بوجودي في الجامعة مكررًا الشـــكر لمشـــاركتي في هذا المؤتمر، فلما رفعت رأسي إليه إذا به معالي المدير، وبعد مداعبة لطيفة للحضور انصرف إلى مائدة أخرى، وأحسـبه لم يتغد ذلك اليوم بل ظل ينتقل من مائدة إلى أخرى مرحبًا شاكرًا.

كل المشاركين القائمين على أمر المؤتمر من الأساتذة الكبار الأجلاء كالأستاذ الدكتور عبدالرزاق الصاعدي أو الموظفين أو الطلاب سخروا أنفسهم

---

(١) البشت من لوازم اللباس الرسمي وهو لفظ دخيل من الفارسية وتسميه العامة مشلح وهو عباءة الرجل.

لخدمة المشاركين في المؤتمر وهو أمر ظاهر يخفي وراءه جملة من الأعمال المتتابعة المتعبة على مدى سنتين إعدادًا لهذا المؤتمر، وأسفر هذا الإعداد الرائع المحكم عن نجاح مؤتمر عالمي ضخم كهذا. ومن روائع هذا المؤتمر طباعة ما ورد إليه من بحوث أجازها المحكمون فظهرت في ثمانية مجلدات ضخمة، وشفعت بنسخة حاسوبية في قرص حاسوبيّ يضم تلك المجلدات، فجزى الله كل أولئك العاملين عن اللغة العربية وأهلها خير الجزاء. وأحسب أن من أهم عوامل نجاح المؤتمر هو الحب الذي يعمر قلوب منسوبي الجامعة وطلابها لمعالي مدير الجامعة محمد بن عليّ العقلا. إن احترام الناس ومحبتهم لك يا صاحب المعالي هي المعالي بحق، أردتها فعملت لها فكنت بها الأجدر والأحق.

اللام بأجمل كلام

بطاقةٍ إبداعية عجيبة يتناول الأستاذ الأديب محمد جبر الحربي موضوعات قد لا تظن أنها تُستنطق فإذا هي تسيل بقلمه ينابيع دافقة بألوان الثقافة والمعرفة والأشعار التي يحسن تخيرها بحس شاعر رقيق تجد الكلمات حياتها بين أسطر كتابته، وهكذا قرأت ما كتبه عن اللام بأجمل كلام في يوم الخميس ١١من صفر ١٤٣٣هـ قرأت ما كتبه عنها بمناسبة اليوم العالمي للغة العربية، (اللام:النهل والعلل)، فنهلت من كتابته وعللت، وراح ذهني إلى قصيدتين من مشهور قصيد العرب أما إحداهما فلامية العرب للشنفرى:

أقيموا بني أمّي صدور مطيّكم   فإنّي إلى قوم سواكم لأميل

كأنما العربية لا الشنفرى من يقول ذلك، وهذه قصيدة أدهشت العرب والعلماء حتى كتبت عنها الشروح والأعاريب فتناولها من القدماء غير واحد منهم المبرد والزمخشري والسهيلي والعُكبَري، وتناولها من المحدثين غير واحد منهم أخونا الدكتور سعود الرحيلي كتب عنها بحثًا تحليليًّا رائعًا، وأما القصيدة الأخرى فهي لاميّة العجم للطغرائي:

أَصالةُ الرَّأْيِ صانَتْني عنِ الخَطَلِ   وحِلْيةُ الفَضْلِ زانَتْني عنِ العَطَلِ

وقد شرحها الصفدي بسفر طبع في مجلدين كبيرين. ثمّ عدت إلى ما ألِفته من ذكر اللام في كتب النحو والصرف، فإذا هي صوت يخرج في وسط الفم لا يعوقه التقاء أعضاء النطق؛ لأن الهواء ينحرف عن هذا العائق وينساب انسياب

الماء ليجد طريقه إلى الهواء سَرَبًا، وهي تلج إلى ألفاظ نكرات فتحيلها معارف تفصح عنها الأخبار وتصفها الأحوال، وإنها لعذوبة جرسها تذوب في ما جاورها من الأصوات فتدغم فيها كما تجدها في (الشمس) ولكنها تتمنع عن البعيد الغريب فتظل ظاهرة كما في (القمر)، وأنت ترى اللام تتوسط بين الاسمين لتكشف اختصاص أحدهما بالآخر (الجنة للمؤمنين) أو ملكية أحدهما للآخر(الكتاب لزيدٍ)، أو تبعيته له (الظرف للكتابِ)، وباللام تعلل الأفعال (تجهز المسلم ليحجَّ)، وبها تأمر (ليدخلْ صاحبُك)، وبها تؤكد داخلة على المبتدأ (لزيدٌ منطلق) أو مزحلقة إلى الخبر (إنّك لعلى خلق عظيم)، وبها تجحد (ما كان أخو يوسف ليسرقَ)، وإنها لتميز (إنْ) المؤكدة من النافية، فأنت تؤكد بقولك (إنْ زيد لقادمٌ)، ولكنك تنفي بقولك (إنْ زيد قادم)، وتعبر باللام عن العاقبة (تجاوز السفيه إشارة المرور ليصدم سيارة أخرى)، وكان العرب يستعملونها في الاستغاثة (يا لَزيدٍ لعمرٍو)، ويتعجبون (يا لجمالِ الأزهار)، وترد موطئة للقسم كما ترد جوابًا له (لئن نجح ليفرحَنْ)، وهي دالة على اتجاه الحدث (سافرت لمكة). وللام دلالات مختلفة تعرّفها النحويون من النصوص الواردة فيها، ولكنها ترتد عند التأمل إلى معنى الاختصاص الذي هو معنى اللام في الأصل.

المزيني وموت النحويين

قرأت ما جاء في مقابلة مجلة أحوال المعرفة (أكتوبر ٢٠٠٨م، العدد٥٣، ص٧٤) للصديق الزميل الأستاذ الدكتور حمزة المزيني، وكان أن سأله المحاور عن مقاله الذي كان عنوانه (موت النحو)، وجاء في الجواب قوله "كان مقال (موت النحو) موجهًا لنقد التكرار الذي لازم ما يسمى (الدراسات النحوية) العربية في العالم العربي في العقود الماضية. وكنت أنعى على هذه (الدراسات) عدم استفادتها من الدراسات اللسانية الحديثة التي وصلت إلى مستوى عال من التطور. كما لحظت أن (النحويين العرب) المعاصرين لم يستفيدوا، وربما لم يطلعوا على الدراسات الجادة التي ينجزها بعض المتخصصين في الدراسات النحوية العربية من الغربيين". ويفهم من هذا البيان الواضح أن المزيني لا يصف النحو من حيث هو نظام داخلي للغة بالموت؛ فليس من المتصور حدوث هذا إلا بموت اللغة نفسها واندثارها، وليس المقصود بالنحو الجهود النظرية في تفسير النظام النحوي وتعليله وهو نظام بشري اجتهد في وضعه علماء العربية، وهو جهد مشكور يقف المزيني أمامه بإجلال، ولكن هذا الجهد العظيم نال فترة من التطوير والتهذيب حتى جاء ابن مالك فعلبّه في منظومته المشهورة (الخلاصة) ومنذ ذلك الوقت صار النحو المالكي هو النحو الرسمي وتوالت الشروح والحواشي تدور في فلك تلك المنظومة، ولم ينعتق منها الدارسون المحدثون الذين وجه المزيني كلامه إليهم، ووصف النحو الذي يزاولونه بالموت؛ لأنه مات على أيديهم، والنحو الذي لا يتناسب ومتغيرات اللغة هو نحو ميّت، ولكن هذه الفكرة ربما لم تفهم حق فهمها من صاحبها فلجأ إلى مزيد من الإيضاح بقوله "ربما كان العنوان الأوفق لذلك المقال هو (موت

النحويين) بدلا من (موت النحو)". والكلام الذي قاله الزميل هنا حقّ لا مرية فيه، فهم لم يستفيدوا من مناهج العلوم اللغوية الحديثة، وهم أيضًا لم يتيحوا لأنفسهم فرصة المراجعة الجادة الجذرية للمنجزات النحوية القديمة، بل ظلوا يرددون ما فيه على نحو من التقديس الغريب. وما وجدناه من محاولات يسيرة للمراجعات النحوية جاء بها دارسون ثقفوا الدرس اللغوي في الغرب؛ ولكن بعضهم لا يركن إلى معرفة تراثية كافية كاشفة لأبعاد النظرية النحوية، فظهر عملهم كأنما هو تركيب أنظمة غريبة على العربية، وظل عملهم درسًا نظريًّا غامضًا، ولم ينتقل إلى حيز التطبيق الذي يلبي الحاجات التعليمية لنحو العربية، وبقي التعليم في قبضة الفكرة التقليدية، ومن أجل ذلك لم يوفق المحدثون في تجديدهم على النحو المرضي، وقوبلت محاولاتهم بالرفض الشديد. ولكن المزيني وأمثاله من الزملاء الذين أتيح لهم الاطلاع على المنجزات الغربية ملومون هم أنفسهم للاكتفاء بالنعي أو بوصف النحو أو النحويين بالموت، لأنهم معنيون باللغة أصواتها وصرفها ونحوها، فكان عليهم أن يقدموا لغيرهم مثالا يحتذونه في معالجة النظام النحوي، وكان يمكنهم أن يتعاونوا مع غيرهم من التراثيين في أعمال مشتركة تجمع بين القديم والحديث. وما لم يحدث هذا سيأتي اليوم الذي يمكن القول فيه (موت اللغويين)؛ لأن العبرة بما تؤول إليه المعرفة وتنتجه، فلا خير في معرفة غير منتجة.

المشترك بين الأمثال الفلسطينية والعربية

الأمثال جمل جمعية الوضع لها تماسك تركيبي قد تعززه المحسنات البديعية التي تجعل له جرسًا موحيًا ومعِينًا على حفظه وترداده. وتكسب الأمثال قوة انتشار في الاستعمال بسبب ارتباطها بالمواقف المتكررة. ويمكن النظر إلى الأمثال على أنها مدونة لغوية تتسم بالأصالة والاتصال، فهي أصيلة لقدم وضعها أو لارتباط دلالاتها بالموروث، وهي من هذه الجهة متصفة بالاتصال فهي معبرة عن اتصال تلك الدلالات القديمة. وللأمثال الفلسطينية خصوصية مرتبطة بالبيئة الثقافية المحلية، وهذا يتضح في الخصائص الصوتية والصرفية والتركيبية، ولكنها على الرغم من ذلك مرتبطة من حيث الدلالة بالتراث العربي من جهة ومرتبطة بنظائرها من الأمثال في البيئات العربية الأخرى، ومن أمثلة ذلك المثل (آخر العنقود سكر معقود) فهذا مطابق للمثل المصري مبنى ومعنى. أما المثل (آخر الدوا الكيّ) فهو يكاد يطابق مبنى المثل النجدي (آخر الطب الكي)، وأما قولهم (ابعد عن الشر وغني له) فهو مطابق للمثل المصري، ومثله قولهم (ابن الوز عوّام) فهذا ما تسمعه في مصر وهو مثل مصري انتشر حتى أدخله الجهيمان في أمثال نجد الشعبية. وكذا قولهم في فلسطين (ابن الحرام ما خلاش لابن الحلال حاجة) فهذا ما يسمع مثله في القاهرة؛ ولكن الخلاف قد يكون في نطق الجيم فهي احتكاكية غارية في فلسطين طبقية شديدة في القاهرة خاصة، أما قولهم (اتغدى وتمدى ولو دقيقتين واتعشى وتمشى ولو خطوتين) فيكاد يشرح دلالة المثل النجدي (مِنْ تغدّى فِيتِمدّى ومن تعشّى فيتمشّى)، ويقولون (أجار المعروف عشر كفوف) وهو كالمثل النجدي

(جزا المعروف سبعة اكفوف).وأما قولهم (أجت الحزينة تفرح ما لقتلهاش مطرح) كأنه الصيغة الفلسطينية للمثل المصري (جت الحزينة تفرح ما لأتلهاش مطرح) مع ما تقتضيه القواعد اللهجية من تغيير ظهر في إقحام الهمزة في الفعل (أجت) ونطق القاف طبقية لا حنجرية كما تسمع في القاهرة. وأما المثل المصري (الرجل تدب مطرح ما تحب) فجرى عليه شيء من التغيير في التركيب والأصوات، (الاجر ما بتدب الا مطرح ما تحب)، فنلحظ أن الرجْل نطقت وفاقًا للهجة الفلسطينية (الإجر) وجعل الخبر محصورا باستعمال أداة الحصر (ما...إلا...). واختلف المثل المصري (لو تجري جري الوحوش غير رزقك ما تحوش) فهذه الصيغة الشرطية المعبرة عن امتناع الحدث لامتناع غيره تحولت في المثل الفلسطيني إلى صيغة طلبية (اجر جري الوحوش غير رزقك ما تحوش)؛ ولكنها لا تختلف في دلالتها عن المثل السابق، فهي تبين أن الرزق بيد الله، وليس بجهد الإنسان نفسه، وهذا بعد ديني أصيل يمتد إلى الثقافة العقدية التي ترسخ الإيمان بالله وبالقدر خيره وشره، وهي بهذا ترفع عن كاهل الإنسان همّ التفكير في لقمة العيش قبل الأوان. ونسمع في نجد المثل (اضرب العير يستادب الفْهَد) أو (اضرب الكلب يستادب الفهد) وهو أقرب، ويقولون في فلسطين (اضرب الكلب تايستعبر الأسد)، وهو يكاد يطابق الصيغة المصرية (اضرب الكلب يتعبر الأسد) غير أن المثل الفلسطيني أضيفت عليه أداة التعليل (تا)، وهي صورة متآكلة من الحرف (حتّى)، وأما (يتعبر) أي يعتبر، فجعل منها المزيد بالسين والتاء (يستعبر) للدلالة على بلوغ الغاية في العبرة، فالألفاظ في المثل مختلفة ولكن بنية المثل ودلالته متفقة فهو طلب لعقاب من هان أمره وسهل عقابه لعل هذا يردع من هو أقوى منه فيغني عن تكلف عقابه وهو

أمر ربما يتعذر أو يكون فوق الطاقة، وهذه الأمثال بصيغها المتقاربة تحاكي دلالة المثل العربي (اضرب البريء حتى يعترف السقيم)، ومما يطابق في الغرض ويختلف بالألفاظ المثل التونسي(اضرب القوسة تتأدب العروسة).

المعطوف على قول المعيوف*

قرأت ما كتبه ابني الدكتور علي المعيوف في المجلة الثقافية العدد ٢٦٥ الصادر في يوم الاثنين ٨ محرم ١٤٣٠هـ. وإني أشكره لمتابعته مداخلاتي وعنايته بها، وما قدمه من مقدمة تبين أن تلك المداخلات لا تختلف عن عمل أي نحوي له انفراد في الرأي أو خلاف في مسألة من مسائل النحو، وأن هذا غير مخل في اللغة نفسها، وهو أمر يلبس على كثيرين مع أنني بينته في غير موقع وبخاصة في منتدى الفصيح. وقد فرحت بمداخلة الدكتور علي وهو رجل تشرب كتاب سيبويه فقد قرأه كثيرًا وكتب رسالتيه العلميتين: (المركب الاسمي) و(نظرية الموضع) انطلاقًا من نصوص الكتاب، وكنت أستفتيه من وقت إلى آخر في بعض نصوص الكتاب لما عرفته من خبرته به، نفع الله به العربية وأهلها إن شاء الله، ولكن هذا لا يمنعني من محاورته في ما كتب.

يحتج الدكتور في مداخلته "بأنَّ نحاة البصرة كانوا ينطلقون في تفسيراتهم النحوية للظواهر التركيبية في اللغة العربية من مبادئ نظرية التزموها فلَم يُخلُّوا بها، حتى صار التحليل النحويّ عندهم (صناعةً) مبنية على تلك المبادئ، فإعرابهم مبني على منهج علمي صرف، والحكم على ذلك الإعراب بـ(التكلُّف غير المقبول) يُغفِلُ ذلك".

وهو احتجاج صحيح لو كنت وصفتهم بالتناقض، ولكني وصفت صنيعهم بالتكلف غير المقبول، ولا يكفي أن يضع الإنسان له مقدمات ويلتزمها في الإجراء

---

* وانظر الجواب عن مقالته الثانية في ص٢٧٠.

ليستحق الوصف بالمنهجية العلمية، فإن تكن أحكام اللغة منتزعة من نصوصها فينبغي الاحتكام إلى تلك النصوص، والبصريون أوجبوا تأخر الفاعل عن الفعل انطلاقًا من كثير من النصوص وتركوا نصوصًا أخرى تقدم فيها الفاعل فسموه مبتدأ، ولما تقدم في مكان لا يسوغ وصفه بالابتداء عمدوا إلى التقدير، فالخلل ليس في التزامهم بالقاعدة بل الخلل في القاعدة نفسها التي أسست على استقراء لا يتصف بالشمول.

وقال: "أعرب (زيدًا) فاعلًا في (إنّ زيدًا انطلقَ)، ولا تَحَفُّظَ لي على إعرابه هذا بناء على الاحتكام إلى المعنى وحدَه، وبناء على النظر إلى هذه الجملة وما شاكَلَها في صورتها التركيبية والعناصر المستعملة فيها؛ لكنَّ النظر إلى جملٍ أخرى استُعمِلَت فيها إنَّ وخبرُها جملةٌ فعليةٌ ورد فيها الفاعلُ ظاهرًا بعد الفعل ومعَ ذلك يردُ في تلك الجملة اسمٌ لإنّ نحو قوله تعالى: فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ [٤٦-سورة الحج]، وقوله تعالى: إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ [١١٧- سورة المؤمنون]، فإنّ هذه الجمل تُشيرُ إلى أنَّ اسمَ إنَّ وظيفة اسمية خاصة في تركيب جملتها تُملأُ بما يؤدي هذه الوظيفة وقد تبيَّنَ من نصوص العربية أنَّ هذه الوظيفة حكمها النصب، وأنَّ الفاعل كذلك وظيفة اسمية خاصة في تركيب جملته تُملأ بما يؤدي تلك الوظيفة وقد تبيّنَ من نصوص العربية أنّ هذه الوظيفة حكمها الرفع، وهاتان الوظيفتان تستويان في كون كل منهما وظيفة تركيبية في بناء جملتها تستدعي الملء، وتختلفان في الحكم الإعرابيّ".

فإن قبل الدكتور المعيوف الجملة الأولى فعليه أن يقبل الثانية لما سيتبين بعد، وأما قوله إن (اسم إنّ) وظيفة فهو موضع الخلاف؛ فما يسميه النحويون اسم

(إنَّ) أسميه المبتدأ، وأما الحكم بالنصب فلا خلاف فيه، ولكن الخلاف الذي لم يفطن إليه الدكتور هو في المبادئ والمسلمات، فكما أسلفت لست أسلم لهم بوجوب تأخر الفاعل عن فعله، ولست أسلم بارتباط الحركة بالوظيفة، بمعنى لست أرى وجوب رفع الفاعل في كل موضع، بل أراه يرفع متى تأخر عن فعله وكان لفظه قابلا للرفع، ومفاد هذا أنه قد يجر إن دخل عليه حرف جرّ (كفى بالله شهيدًا) – (ما جاءِ من أحدٍ)، وقد ينصب إن دخل عليه حرف نصب (إنّ زيدًا انطلق). وكذلك المبتدأ مرفوع في الأصل وقد يجر وقد ينصب بعد إنّ. وأفهم معنى الابتداء من حيث هو مسند إليه الخبر، ولا أفهم لاسم (إنّ) معنى، ولا يكفي نصب المبتدأ لتصير وظيفة أخرى، والموقع الذي يشير إليه الدكتور، وهو أعلم بذلك، هو موقع ابتداء؛ فـ(إنّ) قد تدخل على جملة مؤلفة من مبتدأ وخبر كما في الجمل التي مثل بها، وهي أيضًا قد تدخل على جمل تقدم الفاعل منها، وما لم يتقدم الفاعل وجب الفصل بينهما بما الكافة مثل (إنما انطلق زيد).

وقال: "ويصعبُ الاعتمادُ على المعنى وحدَه في تحديد الوظيفة المشغولة في تركيب الجملة؛ فالاسمُ الذي يؤدي وظيفة الفاعل في تركيب الجملة الفعلية قد لا يكونُ فاعلًا في الحقيقة في جملٍ منها: انكسرَ الزجاجُ، ومات الرجلُ، ومع ذلك يُنظَرُ إلى الزجاج والرجل على أنهما فاعلان مع أنَّهما في المعنى لم يفعلا شيئًا، بل وقعَ الفعلُ بهما، لكنهما فاعلان من حيثُ الوظيفة التركيبية التي يؤديانها في تركيب جملتيهما. ومهما سُمي الضميرُ الواقعُ اسمًا لإنّ في الآيتين الكريمتين السابقتين (ضمير القصة أو الشأن أو غير ذلك) فإنّ التسمية لا تُخرِجه عن كونه وقع اسمًا لإنَّ (أي أدى هذه الوظيفة التركيبية في جملتها)".

وأقول يصعب أيضًا إهمال المعنى لأن النحويين يلحّون على القول إن الإعراب فرع على المعنى، وأما أمثال الجمل التي احتج بها علي فقد أجاب عنها النحويون أنفسهم حين قالوا إن الفاعل قد يكون من أحدث الفعل أو اتصف بالحدث، فإن كان الإشكال في المعنى لا يخل بالفاعلية ولا يفسد له أمرًا فالأولى أنّ اللفظ لا يفسد للفاعلية أمرًا منذ كان اللفظ في خدمة المعنى وهو المعبر عنه، وأما قوله (وقع الفعل بهما) ففيه نظر، فإذا قلت (مات الرجل) فأنت تتحدث عن استجابة جسدية لهذه الحالة، مثل النوم والغفلة والشرود والتنفس، وأما (انكسر الزجاج) فهو مختلف عن (كسر) فالكسر هو الذي وقع في الزجاج لا الانكسار وهو فعل ما كان ليحدث لولا قابلية الزجاج لذلك.

وبغض الطرف عن طبيعة الفاعل وعلاقته بإحداث الفعل أو الاتصاف به فإنه لا يحتج به إذ يظل (زيد) هو المحدث للفعل في (زيد جاء) أو (جاء زيد). ولا معنى للزعم بوجود زيد آخر فعل المجيء لتقدم زيد على الفعل.

ويقول: "وبناء على ذلك فإنّ مناقشة كون (زيدًا) في (إنَّ زيدًا انطلقَ) اسمًا لإنّ أو فاعلًا لـ(انطلق) يُرجَعُ به (في نظري) إلى أمورٍ أخرى في الصناعة النحوية، وعلى الرغم من أهمية المعنى في ذلك فإنه ليس المبدأ الوحيد الذي يُحتكَمُ إليه في مثل هذه الجمل عند نحاة البصرة على الأقل".

وأقول: هناك فرق بين أن يكون المعنى ليس المبدأ الوحيد وأن يستبعد، وأما الاحتجاج بالصناعة النحوية فمردود؛ إذ علينا معالجة الصناعة لا إهدار المعنى، ولسنا متعبدين بأقوال البصريين ولا غيرهم.

ويقول: "وباب التنازع يُضيءُ لنا تعاملَ نحاة البصرة مع مثل الجملة التي

يُناقشها أستاذي أبو أوس: (إنَّ زيدًا انطلق)، وبه يتّضحُ أنَّ عمل نحاة البصرة في إعراب مثل هذه الجملة كان صناعةً نحويةً ذات منهجٍ لم يُخِلُّوا به على الرغم من إلمامهم بالمعنى المراد، إذ يقول سيبويه في صدر ما سُمّي بعده (باب التنازع): "قولك: ضربتُ وضَرَبَني زيدٌ، وضَرَبَني وضَرَبتُ زيدًا، تحمِلُ الاسمَ على الفعل الذي يليه. فالعامِلُ في اللفظ أحدُ الفعلين، وأمَّا في المعنى فقد يُعلَمُ أنّ الأوّلَ وقَعَ إلا أنّه لا يُعمَلُ في اسمٍ واحدٍ نصبٌ ورفعٌ[١]".

وأقول: لا يضيء باب التنازع شيئًا فحين ننظر إلى الجملتين في النص المذكور نجد أن من عناصرها ما هو محذوف، اجتزاءً بالمذكور، فلا تنازع في الحقيقة؛ فالجملة الأولى (ضربتُ وضَرَبَني زيدٌ) هي في أصلها: ضربتُ زيدًا وضربني زيد. وبسبب أن (زيدًا) عنصر مكرر لفظه حذف من الجملة الأولى. وكان يمكن أن يحذف من الجملة الثانية (ضربتُ زيدًا وضربني).

وكذلك الجملة الثانية (ضَرَبَني وضَرَبتُ زيدًا) فالأصل: ضربني زيد وضربت زيدًا، فحذف (زيد) لوجود لفظه في الجملة الثانية. والتقدير: ضربني زيد وضربت زيدًا. ويمكن القول: ضربني زيد وضربته – ضربني زيد وضربت. والمعنى أنه لا تنازع بل هما جملتان متعاطفتان فلما كان اللفظ الظاهر مشترك بينهما حذف أحدهما.

---

(١) سيبويه، الكتاب، ١: ٧٣-٧٤.

الموقع العنكبي لمركز خدمة العربية

أطلق أخيرًا الموقع العنكبي لمركز الملك عبدالله الدولي لخدمة اللغة العربية بواجهة فستقية اتخذها المركز علامة لعلها مستمدة من لون العلم السعودي، واتخذ حرف الضاد رمزًا له متابعة لما اشتهر عند العامة من أن العربية لغة الضاد، والمطلع على الموقع يجده محققًا لكثير من الأغراض التي أريد له أن يحققها؛ ففي أعلى الصفحة صفّ ضمّ سبع نوافذ: الأولى (الرئيسة) أي الرئيسية وهي الواجهة. والثانية (التعريف بالمركز) وفيه كلمة تعرف بالمركز وبسبب اللون الأخضر (أي الفستقي) واتخاذ رمز الضاد، والكلمة تحتاج إلى شيء من التحرير، ونجد تعريفًا بالمشرف على المركز وبأمينه وبرئيس مجلس الأمناء وأعضائه، وللمركز لجنة استشارية غاب ذكر أعضائها عن الموقع. والثالثة (تنظيم المركز) وهي نسخة من المواد المنظمة للمركز، وكان يمكن أن تضمن في نافذة التعريف. والرابعة (أخبار المركز) وهو رصد لأخبار المركز بتواريخها، ونجد أن بعض هذه الأخبار تتكرر في الصفحة الرئيسية. والخامسة (مكتبة الصور) وهي تضم صورًا التقطت في مناسبات لفعاليات المركز أو بعض منسوبيه؛ ولكنها صور تفتقر إلى الجودة، وتفتقر إلى التعريف فهي تضم أشخاصًا قد لا يعرف المشاهد من هم. والسادسة (خريطة البوابة) ولا أعلم سرّ التسمية ومع هذا فهي نافذة مهمة؛ لأنها دليل تفصيلي يقود بسرعة إلى المفردات المطلوبة. والسابعة (بحث) وهي نافذة للبحث في هذا الموقع. يلي صفوف النوافذ اسم المركز باللغتين العربية والإنجليزية، ونجد تحته صفًّا من ست نوافذ، الأولى (أحداث وفعاليات) وهي تشبه نافذة أخبار المركز وإن كانت أخصّ منها. والثانية (قوائم المختصين) وأراها من أهم النوافذ؛ ولكنها للأسف ظهرت في شكل باهت جدًّا

وبخط صغير، وكان يجدر بها أن تكون مصنفة تصنيفًا ألفبائيًّا حسب الأسماء فقط، ثم يكون الاسم رابطًا بالسيرة الذاتية للمختص مزودة بصورة حديثة. ويلاحظ أن الصفحة ضمنت معالج تسجيل في القائمة؛ ولكن المدخلات لا تلائم الصفحة التي يشير إليها اسم المختص فتظهر تلك الصفحة وبعض بياناته ناقصة، وينبغي أن تكون هذه الصفحة خاضعة لتدقيق الإدارة للتأكد من كون المسجل من المختصين حقيقة، ويكون هذا بتزويد الإدارة بالسيرة الذاتية المفصلة، ولا مانع من أن يكون هناك قائمة أخرى بطلاب العربية ومحبيها من غير شروط. والثالثة (مرصد اللغة العربية) وهو يشبه الأخبار فهو رصد عنكبي للأخبار عن اللغة العربية بعامة. والرابعة (بنك الأفكار) وهو مورد لاستقبال أفكار المشاهدين في ما يمكن أن يفيد العربية. والخامسة (البحوث والمشروعات العلمية) وهو يضم دليل إعداد البحوث ونماذج المشروعات. والسادسة (اتصل بنا) وهو موجه للإدارة. ويأتي بعد هذا الصف شريط متحرك يضم بعض الأخبار المتكررة في الموقع وهو شريط ملازم للنوافذ الأخرى من غير داع لذلك، وهو بالجملة مشتت بصري. والناظر في الصفحة الرئيسية وبعض الصفحات الأخرى يلحظ التكدس المزعج للنظر مع صغر بنط الخط، وبقي أن نلفت الانتباه إلى أهمية توجه الموقع إلى العالم، فهو مركز دولي لخدمة العربية ولا يرى فيه ما يلبي حاجة محبي العربية في العالم الإسلامي وغيره، إذ لابد من نوافذ لتعليم العربية، وأخرى تضم مكتبتها أو الكتب العنكبية التي يأذن أصحابها بنشرها، ويمكن أن يكون المركز وسيلة لنشر الكتاب العنكبي، ولابد من نافذة لسؤال المختصين يجيبوب عنها أو توجه الأسئلة إلى من يستطيع الإجابة، ولعل من المفيد أن يكون للموقع نسخة باللغة الإنجليزية. وأنا على ثقة

أن الموقع سيكون له أثره الطيب في خدمة العربية ومحبيها وطلابها وأنه سيتطور بإذن الله، وفق الله القائمين على مركز الملك عبدالله الدولي لخدمة اللغة العربية.

أنحتفل بالعربية أم نحفل بها

صار اليوم الثامن عشر من الشهر الثاني عشر الميلادي عيدًا للعربية يتداعى أهلها ومحبوها من غير أهلها للاحتفال بها كما يحتفل بأي شيء آخر بذكر محاسنه أو التحسر على حاله ثم ينقضي اليوم باحتفاله وبقصائده وبما دبج من كلمات فيه لتنسى العربية بعد ذلك وتبقى حبيسة في مجالاتها التي طالما حبست فيها حتى ابتعدت أو أبعدت عن حياة الناس اليومية التي تعطي للغة المستعملة فيها سمة الحياة والحيوية، وانفتح المجال واسعًا أمام العاميات المختلفة واللغات الأعجمية التي فرضت نفسها بحجة أنها وسيلة التقنية وحاملة لواء التقدم التقني الحديث ولسان العلوم التطبيقية وإن تكن العاميات أخذت مسارها إلى عصب العمل الإعلامي فصارت واجهته الظاهرة في كثير من بوادره بلا تردد ولا استحياء لتسنم مراكزها وإداراتها كثير من الذين لا حظ لهم من إتقان العربية وعلومها، إن تكن كذلك فاللغات الأعجمية أمسكت بعصب العمل في البلاد لأن العمل صار تابعًا بشكل أو بآخر لأصول أعجمية ومرتبط بحركة عالمية يجد منفذوها والمديرون شؤونها أن من الأهون عليهم ومن الأسرع لتيسير عملهم أن تكون اللغة الأعجمية هي لغة العمل فكأنهم بذلك لم يزايلوا موطن الأصول المنتجة لما يتطلبه العمل، وبهذا قبعت العربية في محرابها القديم لغة دين وأدب؛ ولكنها ليست لغة حياة وتعليم تقني وتطبيقي وعمل، ومن أجل هذا كان من حقها على أبنائها أن يتخذوا لأنفسهم سياسة لغوية تغير من هذا الواقع الذي يلوي بهويتهم ويعصف بتفردهم ويلحقهم في حاشية غيرهم، وتسعى هذه السياسة إن كانت حكيمة في ما تسعى إليه إلى أن تؤهل المجتمع تأهيلا نفسيًّا يعود بهم إلى احترام الذات والغيرة على مقومات

هويتهم ويعيد إليهم الوعي بأهمية لغتهم وقدرتها على مواكبة العصر. إن بذل الجهد للنهوض بآلياتها هو لجعلها في مواجهة الحاجات المجتمعية المتطلبة من تعليم وتعلم وخدمات عمل، ولعل توطين التقنية من أولويات هذه السياسة، وكذلك الترجمة المتقنة المستوعبة، والسعي لمعجم تفاعلي يتخذ من وسائل العصر الحديثة وعاءه، مع التفاتة جادة إلى التعليم الحقّ لمهارات اللغة تعليمًا معتمدًا على التدريب المكثف التراكمي المتجاوز للتلقين الكمي للمعرفة الموغل في فهم تفاصيلها وفهم أصولها وإعمال الفكر في التحليل، ولابد لنجاح التعليم من دقة القياس وصدقه وثباته لتكون الثمار جنية وفاعلة. ولن تكون العربية لغة حية طبيعية ما لم تكن لغة البيت والشارع والمصنع ودور الاستشفاء وكل المصالح العامة والخاصة، ولن تكون كذلك إلا باسترداد تلك المجالات من قبضة العاميات، وليس هذا الأمر بالسهل؛ ولكنه ليس بالممتنع مع العمل الصادق والسياسة الحكيمة، ولعل تضييق الهوة بين مستويي العربية فصيحها وعاميها هو السبيل إلى ذلك؛ لأن الحرب على العامية لن يجدي نفعًا بل محاولة استيعاب العامية لتكون في كنف الفصحى ومحاولة نزول الفصيحة من عليائها لتصافح مفاصل الحياة اليومية بصحة وسهولة ويسر، وعلى هذه السياسة أن تؤهل المجتمع تأهيلا نفسيًّا يزيل ما بينه وبين لغته من وحشة، وتأهيلا اجتماعيًا ينهي ما بينهما من تدابر، ويشجع الناس على تغلب إحساسهم الخجل من استعمال الفصيحة في حياتهم اليومية، ويكون ذلك باستعمال لغة قريبة في ألفاظها وتراكيبها من العامية؛ إذ لسنا نريد من استعمال الفصيحة العودة بلغتنا إلى لغة الأجداد في العصور الأولى بل أن نتكلم بلغة جامعة حديثة يفهمها العالم العربي كله ويفهمها متقنو العربية في أصقاع الأرض المختلفة التي يصدمون حين

يتصلون بأهل العربية بقوم لا يتحدثونها فصيحة بل يرتضخون لهجات مختلفة تحول دون تفاهمهم معهم، إن علينا العربَ أن نحفل بالعربية على النحو الذي حاولت وصف بعض جوانبه ولا نكتفي باحتفال سنوي لا يعود عليها بخير يذكر.

إندونيسيا تبحث عن دور العربية الحضاري

دور اللغة العربية في عملية البناء الحضـــاري هو عنوان المؤتمر العالمي الذي عقد في جامعة غاجا مادا والجامعة الإســـلامية الحكومية بمدينة يوغياكرتا من ١٤حتى ١٧ من يوليه ســـنة ٢٠١١م بإدارة من رابطة معلمي اللغة العربية. هذا هو المؤتمر السابع الذي تعقده هذه الدولة العظيمة بشعبها الكريم العاشق لثقافة الإسلام والعربية، وصدرت أعمال المؤتمر في أربعة مجلدات ضمت ١٢٩ عملًا في اللغة العربية وتعليمها وآدابها، وجاء المنتدون من ٢٤ دولة من دول العالم، لم تمنع الإمكانات المتواضـــعة المنظمين للمؤتمر أن يجتهدوا في إنجاحه، وكان للمنتدين فرصة عظيمة للقاء وتبادل وجهات النظر في قضايا اللغة وتعليمها وآدابها، تبارى المسؤولون في حفل الافتتاح في الترحيب بالوفود المشاركة والإشارة إلى أهمية عقد مثل هذه المؤتمرات، على أن ما لفت الانتباه وأثر في المســـتمعين ما ورد في كلمة محافظ المدينة التي أشـــار فيها إلى أثر اللغة العربية في اللغة الإندونيســـية وهو أثر قديم دخل مع المســـلمين الأوائل الوافدين إليها، ومثّل بأبرز مثال وهو أسماء أيام الأسـبوع، وأسماء كثير من الإندونيسـيين أنفسـهم، قال المحافظ إنا كنا في سـاقة العربية يوم كانت لغة عالمية مؤثرة، ولكن الزمن جار عليها، فكان أن انصرفنا إلى غيرها، لا لعلة فيها هي نفســـها بل لعلة في أهلها الذين أهملوها وأخملوا دورها الحضـــاري، فغلبت عليها لغات أخرى لا لفضـــل تزيد به على العربية بل لريادة أهلها، وقال إن مثل هذا المؤتمر يعبر عن رغبة قوية لهذه البلاد وأهلها في أن تستعيد العربية بما هي لغة القرآن مجدها وريادتها وتأثيرها الحضاري.

لست أملك سوى الشكر والعرفان الذي لهجت به أمامهم ورددته أمام كل مسؤول لقيته، إن هذه العناية بالعربية لافتة للانتباه منذ كنا في السفارة الإندونيسية في الرياض حين زرناها للحصول على سمة دخول للبلاد، هناك خاطبنا الموظف بالعربية، ودفع إلينا باستمارة عربية لنملأ بيانات جوازاتنا، وهو أمر لم أجده في سفارة أخرى، وفي مطارات إندونيسيا شدّ انتباهي أن لوحات الإرشادات كتبت بالعربية إلى جانب الإندونيسية، وكذلك ارتفعت الأسماء فوق أبواب مباني الكليات والمعاهد، أمام كلية الآداب كدت أطير فرحًا وأنا أرى اسم الكلية كتب بخط عربي تحت الاسم الإندونيسي الذي مزج بين لفظين عربي ولاتيني وتحت الخط العربي يأتي اسم الكلية بالإنجليزية.

كل هذا الاحتفاء بالعربية والاحتفال بأهلها شهدناه من أهل البلاد في هذه المدينة التي اشتهرت بأنها مدينة الطلاب فهي تضم ١٣٠ جامعة، كل ذلك في غياب غير مفهوم تواطأت عليه السفارات العربية كلها وملحقيها الثقافيين، وفي غياب الإعلام العربي أيضًا فلا صحافة ولا تلفزة. الصحف الإندونيسية أوردت الخبر ونشرت صورة لثلاثة من المنتدين السعوديين أستاذين من جامعة الملك سعود هما ابني الدكتور علي المعيوف وزميلي الدكتور محمد منور، وأما ثالثهم فهو الزميل الدكتور أحمد البهكلي من جامعة جازان. في إندونيسيا كان البحث عن دور حضاري للعربية، وفي بلاد العرب تسابق محموم نحو وأد العربية بإقصائها عن العلم والعمل توهمًا أن الحضارة قرينة لغة الغرب.

أرى لِرجالِ الغَربِ عِزًّا ومَنعَةً***وكم عَزَّ أقوامٌ بعِزِّ لُغات

أهذه موازين لغة!

لو لم أكن معلمًا لقواعد اللغة التي يزنها الشيخ صالح اللحيدان وينشر ما يعن على خاطره من تلك الموازين ما أجهدت نفسي في قراءتها لعلي أفهم علة نشرها. يتصدي الشيخ هداه الله لأمر دقيق كقواعد اللغة ثم يكتب ما لا يجدي إن كان صحيحًا، وقد يقع في جملة من الأخطاء قد يتابعه فيها من يثقون به وبعلمه فتضطرب عندهم الموازين. ولنضرب مثلا بآخر ما كتب في العدد السابق من المجلة الثقافية ذي الرقم (٣١٠) ولنبدأ بالعنوان المضلل وهو (ياء النسب في المقصور وآثار باطلة) فالشيخ جمع بواو العطف أمرين لا يشتركان، وإن تجاوز القارئ هذا وتجاوز مقدمته التي يسوغ بها تصديه لمعالجة هذا الأمر ومبالغته في وصف أحكام المقصور بقوله "والاسم المقصور بعيد سلّمه [يقصد طويل] إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه إذا اقترنت فيه ياء النسب" فإنه لا يجد ما يناسب هذا التقديم بل يعثر في جملة من الأمور التي يتوقف فيها، وسيحبط بعد قوله "وسوف إن شاء الله تعالى أجلب شيئًا في اختصار غير مخل ليدرك العالم والمحقق والباحث والطالب كيف يكون ذلك؟"، فكيف يكون ذلك والقارئ لا يجد سوى الإخلال، وما الذي سيدركه العالم والمحقق والباحث من سرد الشيخ لما لا جديد فيه؟ وليته نسخ من الكتب نسخًا مباشرًا ليسلم من العثار. قال الشيخ "والاسم المقصور هو: ما كان آخره ألف ممدودة، "فكيف نفرق إذن بين الاسم المقصور والاسم الممدود؟ وما قوله في الألف في (ضيفا زيدٍ)؟ ثم يقول الشيخ "إذا لحقت (ياء النسب) الاسم المقصور. فإن كانت (الياء رابعة) في اسم متحرك شريطة أن يكون

الثاني فيلزم حذفها ضرورة مثل:أ – أدرى – أدري. ب – قطنى – قطني)"، فما الياء الرابعة؟ أياء النسب؟ وما هي التي يلزم حذفها؟ وما (أدرى وقطنى)؟ لا أحسب أحدًا يفهم من قوله شيئًا. وكذا يقول الشيخ"إن كانت (الياء) رابعة في اسم ساكن فقد أجاز العلماء حذف الياء، أو قلبها واوًا وذلك كما في هذا المثال:أ – (عجلى – عُجلي). ولا بد من ضم الحرف الأول (ع). ب– (قمري – قُمري). وهنا فقط يضم الحرف الأول في(الثاني)"، فأيّ ياء تلك؟ ومن قال بوجوب ضمّ العين؟ وما معنى يضم الحرف الأول في الثاني قمري إن كان يفعل به ذلك حقًّا؟ ويقول الشيخ "إذا كانت (الياء) هي الحرف الخامس فهنا تنتفي الحال التركيبية الحذف. وذلك مثل: (وفادى – وفادي – أو وفادية)". وهذا كلام غامض غموض اللغز. فما الذي لا ينتفي إن تنتفِ (الحال التركيبية)؟. ويقول الشيخ "وفي الأكثر من كونها الخامسة فعلى هذا: (مستسقى – مستسقي) وقرأت: (مُسعى) قلت لا بأس لكن لعلها قياسية لا سماعية وقرأت: (مشفى) ولم أجده، وقرأت: (مدرى) وهو: سماعي والمدرى (قرن الوعل)". وقد يسأل القارئ عن علاقة (مُسعى) وما بعدها بالكلام عن الخماسي؟ ولا يذكر الشيخ أين قرأ (مُسعى)، وأما (مشفى) فهو لم يجده لأنه اسم مكان قياسي من (شفى)؛ ولذلك لم تورده المعجمات القديمة ولا كتب اللغة. وقال عن (مدرى) إنه سماعي ولا أدري ما قصده من ذلك، ولا ندري من قال بسماعيتها؟ أليس باسم آلة مشتق؟. وقال الشيخ "ففي ورودها (ثالثة) لك قارئي العزيز أن تقول مثل: أ– (قطى – قطوي). ب– (لُمى – لموي). ج– مرقى – مرقوى). د – مُعطى – معطوي)"، فما التي ترد ثالثة؟ أياء كالسابقات أم ألف؟ ثم أثالثة هي في (مرقى/ معطى) أم رابعة؟

وهذا المثال (قطى) من الغريب الذي لا يناسب شرح القواعد، و(لُمى) بضم الميم لا أعرف قصده به؟ ربما أراد (لَمى) بفتح اللام. ثم يعقب في نهاية الآثار التي أوردها لينكرها بقوله "وتلاحظون تكرار الياء هنا في محل لا تصلح له"، ولسنا نلاحظ ذلك ولا نلحظه، ولا ندري لماذا يزعم أنه لا تصلح الياء هنا. وفي النهاية لعل الشيخ يترك وزن اللغة لأصحابها.

بل شَكْوى وشِكايَة وشَكِيَّة وشَكاة

لا يريد الأستاذ عبدالمحسن الحقيل أن يشتكى من حيف ألمّ به؛ ولكن حُقّ له أن يشتكي من حيف ألمّ بأبنائه الطلاب، وابننا عبدالمحسن شاعر مرهف، رقيق حواشي اللفظ، يزاول التعليم بعد أن أتقن التعلّم في جامعة الملك سعود، ولست أنسى كيف ردّني بأدب ولطف إلى ما انسقت فيه من خطأ، ثم إني قرأت له ما كتبه في المجلة الثقافية (الخميس ١٥، جمادى الآخرة ١٤٣٤ العدد ٤٠٤) فأعجبني هذا الهدوء الذي يسوق به العتاب، وهو يفصح عن ألم ومرارة شديدة يجدها وهو يعلم مهارات اللغة في بيئة لا تتيح لهذه المهارات أن تنال نصيبها من الوقت تعلمًا وتدربًا، وهذه آفة التعليم عندنا، كمٌّ يجور على الكيف، يقول الأستاذ عبد المحسن "نمضي الفصل الدراسي نحدث الطلاب عن المركبات وأنواعها، ثم في عالم الرياضة والألعاب، وبعدها عالم الطيور والحشرات، وأخيرًا المهن والحرف، وهذا وربك مقرر الصف الرابع الابتدائي، وهذه الثرثرة المعرفية العامة تحتل مكانًا لتضيق الخناق على مهارات اللغة العربية، لنجد أنفسنا أمام أربع وظائف نحوية، وأربع وظائف إملائية فقط لا غير!! أحقا هذا هو مقرر اللغة العربية؟!"، كيف جارت تلك الثقافة أنى كانت أهميتها على مهارات اللغة وعلومها، وليس بغريب إذن أن تتوالى الأجيال لا يعرفون من أمور لغتهم شيئًا مذكورًا.

ثم إن الأستاذ عبد المحسن يشرح أمر تلك النصوص التي تقحم في أذهان أبنائنا إقحامًا، وهو يحس بغير قليل من السخط على تلك النصوص وما حوت، يقول "اسمح لنا أن نناقش المقررات وما حوت من هذه الثقافة العامة التي فُضّلت

على مهارات اللغة العربية، ولنتأمل معكم إن كانت ذات جدوى أو خير أو فضل. في مقرر الصف الرابع دماء وإصابات وجراح تقدم على طبق من قسوة لأطفال في العاشرة من عمرهم فهل يصح هذا؟!"، ثم يسرد، بتفصيل، كثيرًا من المشاهد التي لا تروق للكبار بله الصغار، وإني لآسى لهؤلاء الصغار الذين تنحر طفولتهم مرات ومرات؛ فهم في المدرسة يجبرون على قراءة وشهادة ما يفزع القلوب، وتشيب له الرؤوس، وهم يتعرضون في بيوتهم لقنوات ملئت بأفلام مصاصي الدماء والقتلة، هذا غير أخبار الدنيا التي لا ينتقى منها إلا مشاهد إبادة الإنسان للإنسان.

ويشير الأستاذ بحصافة إلى مستوى اللغة التي يخاطب بها الصغار؛ فهي مختلفة عن لغة الكبار بعض الاختلاف، ومهما يكن الموضوع جليلًا وأسلوبه جميلًا فإن من الخلل إن يوجه إلى غير أهله، وكما بدأ أنهى كلامه بخاتمة هادئة مجملة لأغراضها، قال "سيدي صاحب المعالي..لست أكثرَ من معلم غيور على أبنائه، حريص على نفعهم، مؤمن بمهام عمله، وهنا أقسم أمام الله ثم أمامكم أن هذا لا يناسب براءة الصغار، ولا يتماشى مع وعي الناشئة، ولا يصح عرضه لهم، فإن رأيتني مصيبًا فالبدار البدار، وكما غيّرتم المقررات الطيبة الذكر وأحللتم هذه مكانها ارحموا عقولنا وقلوبنا، وغيروا هذه، وهبونا خيرًا منها، لا حرمكم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، وإن رأيتني مخطئًا جاهلًا فالعذر كل العذر لحماستي التي يسوقها حبي لصغاري من جهة وإيماني بمنجزكم من جهة ثانية"، هذه صرخة أستاذ قدير ونذير حصيف عسى أن تلقى أذنًا واعية تستفيد من مثله تجربة ومعرفة.

تألقت العربية في العروض الزلفية

بدعوة كريمة من هيأة التعليم في محافظة الزلفي تهيأ لي أن أشهد مهرجان الإلقاء في هذه المحافظة النشطة، وفي هذا المهرجان الذي يقف وراء تنظيمه مجموعات من الأساتذة والطلاب تنافست المدارس في أدائها، كانت هناك كأس جعلت جائزة للمدرسة التي تتفوق على غيرها من المدارس، وأما الحكم في هذا ففئة مختارة من الحضور، وحين عرضت النتائج لم تكن متباعدة، وليس هذا بغريب لأن المدارس كانت في الحقيقة كلها متفوقة، وكانت كلها تستحق بجدارة كأس التفوق.

وأحسب أن المدارس شهدت تفوقها في أعين الحضور الكثيف فلم تنتظر الكأس، وما كان همها في المقام الأول؛ بل كان الهم حسن الأداء وجمال العرض.

كانت العروض لوحات تعبر كل لوحة عن موضوع واحد فهذه لوحة تعبر عن تجديد البيعة لعاهل البلاد، وتلك لوحة تحكي قصة فتح الرياض على يد المغفور له جلالة الملك عبدالعزيز، وأخرى تصور التكافل الاجتماعي الأمثل، ولوحة معبرة عن حوار الأديان كما دعا إليه خادم الحرمين الشريفين.

وتتخلل تلك اللوحات الجماعية مشاركات إلقاء فردية حيث يقف الطالب أمام الجمهور بكل ثقة، ويلقي قصيدة فلا ينتابه تردد، ولا تناله حُبسة أو يُرْتَج عليه، ولا ينسى بيتًا فيظل يستدعيه بترداد ما قبله، بل كان إلقاء ينساب كشلال ماء.

ليست اللغة جملة من الأحكام اللغوية والقواعد الصرفية والنحوية فقط، ولكنها في حقيقة أمرها جملة من المهارات والكفايات التي لا يعد المرء مالكًا

لناصيتها حتى يصدر عنها بأداء سليم لا يفسده الاضطراب. وفي مهرجان الزلفي رأيت مجموعات من الطلاب تتحرك بتنظيم رائع على المسرح حيث تتوالى مشاركات الطلاب الصغار والكبار، كل عرف دوره فيتقدم بكل هدوء وثقة ليلقي جملته الإلقائية فتنساب بهدوء إلى الأسماع لتتلقاها بالقبول، كنت انتظر أن يتلجلج أحد أو يتلكأ صغير أو ينسى من ينسى ولكن شيئًا من هذا لم يحدث. بوجوه باسمة مطمئنة تراهم يتطلعون إلى الجمهور ويسمعونهم ما أحسنوا حفظه من الأشعار.

كان التدريب جيدًا، والحركة هادئة، واللغة تنساب فصيحة من أفواه الصغار والكبار، كأن هؤلاء قد زُوِيت لهم من المعرفة اللغوية ما أعانهم على حسن الأداء، وحين سئلت عن رأيي في تلك المشاهد عبرت عن إعجابي بالكفاية الأدائية، ذلك أن للجمهور رهبة عظيمة قد تربك أعظم الرجال فيناله التلجلج، وتأخذه الحُبسة، ويعرض له النسيان. وليس من شك أن تربية هؤلاء الصغار على مقابلة الجماهير، وإلقاء الأشعار بين أيديهم هو مران فعّال في تنمية شخصية الطالب، وتعزيز ثقته بنفسه وإسعاده للتعبير عن ذاته دون وجل أو خوف. فما أكثر الناس الذين يأخذك ما يسطرونه من الكلام فيبدعون فيه ويصلون مدى بعيدًا؛ ولكنهم عند اللقاء والحديث المباشر تخونهم مهارتهم، وتقعد بهم دربتهم، ويحول بينهم وبين حسن الأداء ما تركبت عليه نفوسهم وما تربوا عليه فصار جزءًا مؤثرًا في سلوكهم.

إن تلقين العلوم العربية وإذكاء مهاراتها مهم، ومن أهمها في نظري ممارسة اللغة مشافهة في الإلقاء والحديث والحوار والسرد والشرح. فاللغة صوت في المقام الأول.

تحية للأستاذ الفيفي

الأستاذ الدكتور عبدالله بن أحمد الفيفي من أكثر الناس حماسة للعربية، ومن أكثرهم وعيًا بما يلم بها من مخاطر تكتنفها، من خارجها ومن داخلها، من أهلها ومن غير أهلها، وتوالت كتاباته المدافعة خطر العامية وخطر غيرها من لغات أعجمية، وهو ليس ضدّ تعلم لغات الأعاجم، فذلك ضرورة في بعض الأحيان؛ ولكنه ضدّ إحلالها محلّ العربية، ولعل من أكثر كتاباته المبينة لانفطار كبده وحسرته على لغته ما كتبه بعنوان (العربيَّة في مَهبِّ العَرَب) في زاويه (رؤى) من صحيفة الرأي الكويتية عددها ١٢٢٤٤، الثلاثاء ٨ يناير ٢٠١٣م، ص٢٤. ناقش ما جاء من توصيات في وثيقة بيروت التي عنوانها "اللغة العربية في خطر: الجميع شركاء في حمايتها"، ومما وقف عنده الزعم بأن "اللغة العربية هي اللغة الرسميَّة للدولة"؛ لأنه زعم لا يتعدى حدود الورق الذي كتب عليه أو اللفظ الذي تشدق به، فممارسة من يمثلون الدولة تعاند ذلك معاندة قوية، يقول "بل إن القيادات، والهيئات الدُّبلوماسيَّة العربيَّة، ما تفتأ تتباهَى بالرطانة بأيِّ لغة في العالم، غربية أو شرقية، عدا العربيَّة، خارج بلدانها، أو حتى في المسجد الحرام. لأن العقل إذا كان مغيَّبًا، والحسّ الحضاري إذا كان ميِّتًا، فلا غرابة أن يتحوّل الإنسان إلى محض ببغاء!"، ثم يلتفت إلى ما سماه (أم الدواهي) وهي المؤسسات التعليمية التي أخفقت في تعليم العربية بدعوى زائفة وهي "اللغة العربيَّة صعبة"، ويضع يده على العلة الحقيقية التي يعرفها كل معلم زاول التعليم في مجتمع استهلاكي غير منتج، يقول "وما هي بصعبة، لكن العرب زغاليل، لا قوَّة بهم على التعلُّم، ولا صبر لهم، ولا

بيئة تربويَّة وتعليميَّة صالحة تحوطهم". ثمّ ينتقل إلى أمر خطير لا مثيل له في الأمم الأخرى وهو سيطرة اللغة الإنجليزية على عصب العمل في البلاد وتحكمها في رقاب العباد، يقول "أمّا المرض الرديف، فهَوَسٌ باللغات الأجنبيَّة، تحت ذريعة سوق العمل. وهو في الحق: "سوق الهمل". ومِن أجل سوق العمل، صار مشروعًا جدًّا أن يُباع الوطن، والهويَّة، والشرف، لا لشيء إلاّ ليجد الأبناء مطامحهم في أن يكونوا عُمَّالًا في سوق العمل. وفي سوق العمل لا بُدّ من الرطانة مع الهندي، والبنغالي، والكوري، والفلبيني، بل مع العربي، بلغةٍ كونيَّةٍ واحدة، هي الإنجليزيَّة. فإذا لم نرفع الإنجليزيَّة إلى درجة القداسة في التعليم، ونرمي العربيَّة في سلَّة المهملات، ضاع مستقبل أبنائنا، وأيّ امرئٍ أحمق يرضى بذاك؟!"، وليس بغريب في مجتمع استهلاكي أسلم أمر إدارة العمل فيه لتلك اللغة الأجنبية أن يجعلها سيدة التعليم العالي أيضًا، يقول الأستاذ الفيفي "أمَّا في التعليم العالي، فنحن قوم لا طاقة لنا بالترجمة، ولا بالمصطلح، ولا بتطوُّر العلوم والتقنية. فما الحلّ؟ ليكن تعليم الطب، والهندسة، والعلوم الطبيعيَّة كافَّة بلسان قومها. لكننا سنحتفل كلّ سنة، طبعًا، بيوم اللغة العربيَّة، لنعبِّر عن طقوس الولاء والبراء من الكفَّار، ونرفع السيوف بلغتنا الضاديّة!"، وإن من المذهل أن تجد من أساتذة العربية من يجابهك بقوله لم التباكي على العربية، ويجادلك في أهمية تعليم تلك العلوم بلسان قومها والقائمين على تطويرها ومتابعتها، وفي المقابل تجد أستاذًا طبيبًا هو الدكتور عبدالقادر الحيدر يقول وأنا أسمع إن تقديم العلوم بالعربية يزيدها وضوحًا ويرسخها في الذهن أضعاف ما تفعله اللغة الأجنبية.

ويلتفت الأستاذ الفيفي آخرًا إلى ما أهملته وثيقة بيروت وهو أمر الإعلام

وخطره فيقول "أمّا الإعلام، فأرى أنه لم يحظ من بنود (وثيقة بيروت) بما يستحق، مع أنه في تقديري أخطر من التعليم الآن، وهو لا يتقاعس عن دوره في خدمة اللغة العربيَّة فحسب، بل أكثره أيضًا معاول هدمٍ يوميّ للغة العربيَّة، ولكلّ ما يتصل بها من قِيَمٍ ومبدئيَّات. إن الإعلام هو أحد معاقل الفساد اللغوي في العالم العربي، إنْ بتلهيج اللسان، ومَرْمَدَته[١] في مستنقعات العاميّات، أو بتطعيمه بما لذَّ وطاب من ألسنة الآخرين، التي يستعذبها العرب استعذاب مركوباتهم المختلفة".

هذه مقتبسات من مقالة الأستاذ التي تعبر عن غضبه للعربية وإحساسه القوي مكامن الخطر. تحية من القلب إلى الأستاذ الدكتور عبدالله بن أحمد الفيفي ودعاء بالتوفيق والسعي الدؤوب لرفعة العربية وإعادة أبنائها إلى حضيرتها قبل فوات أوان ذلك.

---

(١) لم أجد الفعل (مرمد) في المعاجم القديمة، ولعله توليد صالح من الماء الْمُرمِد أي الآجن، فالفعل مرمد على هذا ملحق بالرباعي، ومعناه غمّس في الماء الآجن.

ترياق

تكرم الأستاذ الدكتور إبراهيم بن عبدالله السرّاء بإهدائي نسخة من العدد الأول من مجلة (ترياق)، و"التِرْياقُ بكسر التاء: دواء السموم، فارسيٌّ معرّب"، هكذا جاء في معجم الصحاح للجوهري. ولعل من المجاز ما أورده أيضًا قال: "والعربُ تسمِّي الخمر تِرْياقًا وتِرْياقةً، لأنّها تذهب بِالهمّ. ومنه قول الأعشى:

سَقَتْني بصَهْباءَ تِرْياقَةٍ   متى ما تُلَيِّنْ عِظامي تَلِنْ"

ومن لطائف معاجم العربية بما اتصفت به من موسوعية أنها قد تنص على كون الشيء ترياقًا كما في قول صاحب القاموس المحيط عن (الكُرُنْبُ): "ودِرْهَمانِ مِنْ سَحيقِ عُروقِهِ الْمُجَفَّفَةِ في شَرابٍ تِرْياقٌ مُجَرَّبٌ من نَهْشَةِ الأَفْعَى". وقال عن (الضِّفْدَع): "ولَحْمُها مَطْبُوخًا بزَيتٍ ومِلْحٍ تِرْياقٌ للهَوامِّ".

وقد يكون اللفظ عربي الأرومة كما يفهم من نقل ابن منظور عن الأزهري صاحب تهذيب اللغة، قال: "التِّرْياقُ اسم على تِفْعالٌ، سُمّي بالرِّيق لما فيه من رِيق الحيَّات، ولا يقال تَرْياقٌ، ويقال دِرْياقٌ". وكذلك (طرياق)، واللفظ ورد في حديث مشهور روي في صحيح مسلم وغيره وهو "إِنَّ فِي عَجْوَةِ الْعَالِيَةِ شِفَاءً، أَوْ إِنَّهَا تِرْيَاقٌ أَوَّلَ الْبُكْرَة"، واللفظ في الحديث أقرب إلى دلالته على الوقاية كما يدل على الشفاء. ومن الريق وعلاقته بالبكور ما نجد في لهجة الكويت من استعمالهم الفعل (تريّق) والاسم (الريوق) لتناول طعام الإفطار صباحًا؛ لأنه أول طعام يفكّ به الريق بعد النوم، وجاء في المعجم الوسيط "وترَيَّقَ الماءَ أو الطعامَ: شربه أو أكله على الريق". أما (تريأة) و(يِتّريأ) في لهجة القاهرة، ودخلت إلينا في

الجزيرة فقلنا (يتّريق) أي يتتريق، فكل أولئك مأخوذ من راق أي طاب وأَعجب؛ ذلك أن من يفعل ذلك يروّق نفسـه ويبعث فيها الأنس، ويكون ذلك بمعابثة غيره والضحك عليه بما يرويه عنه من الهزل أو ما يتوجه به إليه.

وأما مجلة (ترياق) فعمل جادّ موجه إلى المجتمع لتثقيفه ثقافة دوائية؛ لذلك جاءت مصـوغة بلغة تجافت عن المصـطلحات وخاطبت الناس بما يفهمون، واستعانت بالرسوم والصور التوضيحية التي جاءت في حلة طباعية أنيقة تسرّ الناظرين.

تحدثت المجلة عن الأدوية العشبية ودعت للتعلم عنها ليأمن مستعملها؛ إذ فيها الخير والشر، وفيها العلاج والسموم، وتحدثت عن مدى سلامة استخدام مستحضرات البرد والسعال لدى الأطفال لتبين أن السلامة في حماية من هم دون السادسة من تلك الأدوية، ولفتت المجلة إلى أهمية الكلية في جسم الإنسان ودعت إلى المحافظة عليها. وتورد لنا المجلة عن الأمن والسلامة الدوائية أن الهيأة العامة للغذاء والدواء وجدت بعد مراجعة الدراسات أن مخاطر الدواء أكثر من منافعه. ونجد في المجلة أحاديث عن فيروس الكبد الوبائي وعن الحمل وأثر المضاد الحيوي فيه، وعن السرطان والمعرفة الوقائية منه، ونقص فيتامين (د)، وعن الإنفلونزاء وأنها ليست موسمية، كما نجد حديثًا عن التثقيف الصحي مستقبل أجيال، وجاءت كلمة صاحبة السمو الملكي الأميرة فلوة بنت فهد مسك الختام لهذه المجلة الرائعة، كان محورها مقارنة بين مقولة كتاب أجنبي (أن ٢٠٪من الوقاية خير من ٨٠٪) والحكمة العربية المشهورة (درهم وقاية خير من قنطار علاج)، انطلقت منها لتعميق

مفهوم الوقاية وبيان أهمية تلبية حاجة المريض لمعرفة ما يقيه من المرض قبل ما يشفيه منه، ورأت أن هذه المجلة ثمرة مباركة للإحساس بهذا التوجه، وهو الأمر الذي بدأ به الدكتور السراء حين افتتح المجلة بحديثه عن المجتمع أولوية. هذه مجلة تجمع إلى الفائدة الجمال والمتعة بلغة عربية واضحة.

تطوير الدراسات القرآنية

شهدت بعض جلسات المؤتمر الدولي الذي عقد في رحاب جامعة الملك سعود منذ يوم السبت ٦-٤-١٤٣٤هـ حتى يوم الأربعاء ١٠-٤-١٤٣٤هـ، وتبين لم شهد هذا المؤتمر الدولي توفيق من أوكل إليهم أمر تنظيمه فجاء على مستوى من الجودة التنظيمية التي لم أر مثلها من قبل، فالمؤتمر خصص له موقع في العنكبية متفرع من موقع جامعة الملك سعود، ظهر بأبهى حلة وأجود مظهر وأثرى محتوى، إذ بيّن محاور المؤتمر وجدول المحاضرات واللقاءات، وعين مواقعها واحتوى على جميع البحوث التي قدمت إلى المؤتمر وقبلت للنشر في كتابه، سواء منها ما ألقي في المؤتمر أم اكتفي بنشره، وكان كتاب المؤتمر مطبوعًا قبل افتتاحه؛ إذ تسلمه الرواد منذ اليوم الأول، فلا يكاد الزائر يسجل اسمه وبياناته حتى يتقدم إلى لجنة أخرى تسلمه الكتاب مع حقيبة تضم جملة من المطبوعات التعريفية بالمؤتمر، وظلت اللجنتان تعملان إلى آخر أيام المؤتمر من دون كلل أو ملل والابتسامة تزين أفواه الشباب المشاركين في هذه الأعمال الجليلة، أما قاعة حمد الجاسر فكانت مكتظة بالمشاهدين من الضيوف المشاركين من داخل المملكة وخارجها، ومن طلاب جامعة الملك سعود وغيرها من الجامعات السعودية، تسنى لي أن ألتقي ببعض الأعلام الذين قرأت لهم وتتلمذت على أعمالهم الجليلة منهم الأستاذ الدكتور عبدالرحمن بودرع من المغرب والدكتور غانم قدّوري الحمد من العراق.

وليس من شك أنّ من خطط لهذا المؤتمر أدركوا أنّ الدراسات القرآنية بما هي جهود إنسانية تحتاج إلى التطوير على الرغم من جهود السابقين المشكورة، وينال التطوير المضمون والوسائل، وغني عن القول إن الوسائل الحديثة بالثورة التقنية

والإعلامية تهب فرصة للإجادة والنشر، وإن كانت مجالا للخطأ أيضًا بسبب انفلاتها من الرقابة المعتمدة، وقد يكون كثير من هذه الأخطاء محفوفًا بحسن النوايا، وقد أدرك المؤتمرون ذلك فدعوا إلى شيء من ردّ الأمور إلى نصابها وأن يوكل الأمر إلى أهله، ولكن هيهات في عالم تقني عالميّ المصادر والموارد، وإنما يبقى الوعي هو الرائد للمتوجه أن يعي بمن يثق ولمن يتوجه.

طرحت أفكار كثير منها معاد لا جديد فيه، وأفكار غريبة تقف وراءها العواطف لا العقل المتدبر، من تلك ذهاب من ذهب إلى أن رسم المصحف توقيفي ينتهي أمره إلى الرسول ﷺ كالقراءات القرآنية أنفسها، ومن المعروف أن رسم المصحف هو اجتهاد بشري حسب معرفة الكتبة في تلك الأيام للخط الحجازي؛ ولذلك ساغ بعدُ أن يناله التطوير من نقط إعجام ونقط إعراب حتى صار إلى ما صار إليه الآن.

بقي أن أتوجه بالشكر لكل من شارك في هذا المؤتمر من باحثين ومديرين، وأخص بالشكر الدكتور عبدالرحمن بن معاضة الشهري الذي تردد اسمه غير مرة في قاعة حمد الجاسر ثناءً عليه وشكرًا لتفانيه في الأداء، وإنك لتراه متنقلًا من جهة إلى جهة، وإنه ليلقى كل الزوار بابتسامته ويقبل عليه كأنه أهم زائر للمؤتمر، ولا شكّ عندي أنّ المؤتمر الناجح إضافة جديدة إلى جملة أعمال جامعة الملك سعود الرائعة.

جواب بالمعروف عن ملحوظات المعيوف

قرأت المقال الرائع الذي كتبه الدكتور علي المعيوف في العدد ٢٧٠ من المجلة الثقافية في ١٤ صفر ١٤٣٠هـ، وهو قراءة شاملة لجملة مداخلاتي في المجلة، وهذه عناية منه تعبر عن محبة للنحو وأهله، فله مني الشكر الجزيل. وله ثلاث ملحوظات واقتراح، وأما (الملحوظة الأولى: يبدو همُّ التعليم غير وارد في تلك المداخلات، وهو أمرٌ جيد يساعد على الانفكاك من قيود هذا الهمّ، ويجعلُ دراسة الظاهرة في ذاتها لذاتها) فلعله إن عاد إلى المداخلات بفضل تأمل رأى أنّ همّ التعليم دافع من دوافعها ومحرك من محركاتها، وأن الغرض تلمس اختصار طويل أو تجنب فضول أو تسهيل صعب، ولعلّي أذكره بكلمة صادقة قالها، وهو يسمع، أخي الدكتور محمد صاري العياشي: إن ما تكتبه النحو الواضح.

ولنضرب الأمثلة للتوضيح، ففي جملة (زيد في المكتبة) حين نقول للمتعلم (زيد) مبتدأ؛ فإن من السهل عليه أن يفهم أنه هو المبتدأ أيضًا في (إنّ زيدًا في المكتبة) بدلًا من إشغاله بمصطلح جديد لا معنى له وهو (اسم إنّ).

وفي جملة (جاء هذا الرجل) من الأسهل أن أقول إن (هذا) إشارة لا محل له من الإعراب و(الرجل) فاعل كما هو واضح وأجنبه القول بأن (الرجل) بدل من الإشارة أو نعت.

أما عن (الملحوظة الثانية: قد يتناول أستاذي ظاهرةً لغويةً تركيبيّةً ما، ويُفسِّرُها تفسيرًا مختلفًا عن تفسير النحاة منطلقًا من مبدأ مختلف عن المبدأ الذي فسّر به النحاة الظاهرةَ نفسَها، ولكنَّه لا يخرج عن إطار المصطلحات التي استعملها النحاة؛ وقد يؤدي هذا إلى تلقّي عمله تلقّيًا مُشوَّشًا) فأقول إن هذا صنيع النحويين

أنفسهم فنصب المضارع في (زرنا فنكرمَك) عامله لفظي عند البصريين هو (أنْ) المضمرة، وعامله معنوي عند الكوفيين.

وهم اختلفوا في مثل (قائم زيد) فعد البصريون (قائم) خبرًا مقدمًا، وعده الكوفيون مبتدأ.

وأما التلقي المشوش فهو أمر متوقع لغلبة فهم نحوي جزئي؛ إذ تنال المتلقي الوحشة من شيء لم يألفه، وأما المطلعون على الخلافات النحوية فيجدون هذا سائغًا.

وأما عن (الملحوظة الثالثة ولها ارتباط وثيق بالملحوظة الثانية: قد يتناولُ أستاذي ظاهرةً لغوية تركيبية ويفسِّرُها في إطار دائرة نظرية أوسع من إطار الدائرة التي فسَّر بها النحاة الظاهرة نفسها، وبسبب استعماله مصطلحات النحاة المستعملة في دائرة أضيق يبدو عمله عند المتلقين الرافضين (هدمًا للنحو العربي)، وقد لا يتجاوز عمله عند المتلقين المحايدين كونه (ترميمًا) لما ورد في النحو العربيّ، أو توسيعًا لمفاهيم استعملها النحاة) فأقول إنها لا تختلف كثيرًا عن الملحوظة السابقة، والحقيقة ما يراه المحايدون من أن عملي هو ترميم للنحو أو توسيع للمفاهيم، وهذا هدف بدأت به في مقدمة أول مشروع علمي وهو رسالة الماجستير الجملة الشرطية عند النحاة العرب.

وأما اقتراحه (ماذا لو خرج أستاذي من دائرة نظرية العامل تمامًا؛ لأنَّها دائرة تُحكِمُ القبضةَ على الجزئيات التفصيلية في تركيب الجملة، فهي تحاول أن تُفسِّرَ أيّ تغيُّر ظاهريٍّ في الإعراب لكلِّ كلمةٍ مُعرَبة، واتّجه إلى دائرة المسند والمسند إليه؟ وبذلك رُبّما نجد كثيرًا من الأمور التي تبدو متشابكةً في مداخلات أستاذي غير

متشابكة ألبتة، بل قد نجدها سلسة جدًا) فهو اقتراح أشكره له ولكني لا أراه مناسبًا؛ لأن مصطلح (المسند/المسند إليه) فلسفي في الأصل وفيه غموض لا يناسب التعليم ولا يحل مشكلة، وأما نظرية العامل وهي عمود النحو العربي فنظرية جيدة أتمسك بها وأدافع عنها؛ ولكني أسمح لنفسي أن أجادل النحويين في تفاصيلها كما جادل بعضهم بعضًا؛ وذلك لمزيد من إحكامها ودفع ما يظهر من تناقضات في تطبيقها، وهذا يفسر البقاء على المصطلحات النحوية مع توسيع مفاهيمها.

وأما تركها والإتيان بغيرها فيبقي النظرية على علاتها، ويأتي بنظرية قد لا يكتب لها القبول مع توقف فيها أبديته.

خدمة اللغة العربية

ترد (خدمة العربية) في عنوان (مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية) معبرة عن توجه صاحب القرار؛ فهو خادم الحرمين وهو المتفاني في خدمة الشعب، فليس غريبًا أن يكون في خدمة اللغة العربية، وجعل هذا المركز دوليًّا كما أن خدمة الحرمين هي خدمة للمسلمين في العالم كله؛ فهي خدمة دولية أيضًا. شهدنا في ثلاثة الأيام من العاشر حتى الثاني عشر من جمادى الآخرة (١٤٣٣هـ) أعمال الحلقة النقاشية التي استقطب لها المركز ثلة من علماء العربية من داخل المملكة وخارجها للبحث في الآفاق التي يمكن أن يكون بها المركز رائدًا متميزًا، ناقشت الأعمال أهداف المركز وخطته المبدئية المؤقتة، وما يستشرف من المجالات التي عليه أن يسلكها، ونبه المناقشون إلى أن على المركز أن يستفيد من التجارب السابقة من غير أن يكررها، وأن يكون شريكًا فاعلًا يقود الجهود المتفرقة والإنجازات المشعثة في سبيل توحيد مسار وتخطيط لغوي يعود على اللغة وأهلها بالثمرة والإنجاز. وأدرك من شهد هذه الأعمال الجادة والحضور الغفير "مدى حب أهل العربية لها" كما قال لي أستاذي الدكتور محمد بن عبدالرحمن الهدلق، رئيس أمناء المركز الذي ما فتئ يسجل الملاحظات ويجمع الأفكار، فإذا رأى الحاجة لإيضاح غامض أو إبانة مشكل طلب الكلمة وراح بهدوئه المعروف وبرويته وحكمته السديدة يتحدث بما هو عندي فصل خطاب. وتبين للمراقبين والمهتمين بشأن اللغة من الحاضرين والحاضرات أن أمر اللغة لا يعتدل منآد حالها ولا يُطمأن على مآلها ما لم توضع موضعها وتمكن مكانها؛ وذلك بأن تكون لغة العمل في

كل مناحي حياتنا، وأن تكون لغة العلم في معاهدنا وجامعاتنا. قد يكون ذلك ذا تبعات اليوم؛ ولكنه أمر واجب لأن أمر الهوية منوط به، ومن دونه نذهب وتذهب ريحنا، وتبين بجلاء مدى تقصير الأمة العربية في سبيل نشر لغتهم في العالم بين ظهراني أمم ترحب بها اليوم في ظل منافسة عارمة بين اللغات في حرب ضروس، وإنها فرصة للعرب عليهم أن يهتبلوها قبل أن يستيئس الناس منهم ويستسلموا للغات غيرهم، سمعت شيئًا من ذلك حين كنا في إندونيسيا في افتتاح أحد المؤتمرات، قال مسؤول إننا كنا في ساقة العربية حين كان أهلها يهتمون بها فلما تركوها تركناها. وليس أمر النفقة على تعليم اللغة في تلكم البلدان بأكثر من نفقات أخرى توجه لنشاطات ليست بذات عائد مستدام كتعليم اللغة. وإن استغلال الإمكانات الحاسوبية الهائلة خير معين على نشر اللغة في تلك البلاد.

كانت جملة الأفكار والآراء التي تداولها المناقشون والحاضرون معبرة عن آمال عظيمة وتطلعات سامية؛ وكل ذلك لن يجدي إن لم يكلل بالتنفيذ ويأخذ طريقه في جدول زمني وخطة لاحبة الطريق. كانت ثلاثة الأيام التي عاشها المناقشون وضيوفهم من أكثر الأيام ثمرة ونجاحًا، واستطاع المركز أن يدير تلك الحلقة النقاشية بكفاءة عالية، وهي إدارة قادها بجدارة واقتدار صاحب العزيمة القوية والهمة العالية والحماسة المتقدة الدكتور عبدالله بن صالح الوشمي الأمين العام للمركز، كان هو وزملاؤه من اللجنة التنفيذية عاملًا من أهم عوامل نجاح هذه الحلقة النقاشية الناجحة.

شرشح العدوّين

استوقفني ما كتبه أخي الدكتور عبدالعزيز بن صالح العسكر (الخميس ١٧ شـــوال ١٤٣٢ العدد ١٤٢٣١) حول جملة كتبها أحد الطلاب وهي قوله "شرشح الله عدوين المسلمين"، وقد أنكر استعماله للفظين (شرشح) و(عدوين)، وسكت عن الخطأ النحوي، وهو الإبقاء على النون مع الإضافة. وذكر الدكتور أن (شرشح) "لفظ أخذ من عامية سوقية ساقطة"، ولست أدرك الحدّ الفاصل بين ما هو عاميّ (أي لهجيّ) وفصيح إلا على مستوى الأصوات، والإعراب، أما على مستوى المعجم فليس يكفي أن نبحث عن اللفظ في معاجمنا ثم نحكم عليه بالفصاحة أو عدم الفصاحة، إذ المسألة متعلقة بجذور الكلمة وبنيتها الصرفية، ولا جدال أن المعجم العربي قاصر في جمعه الألفاظ العربية من بيئاتها الشاسعة، وأصحاب اللغة القدماء والمحدثون تضعون من الألفاظ ما يعبرون به عن أغراضهم. وإن كانت العربية منذ الجاهلية ضمت الدخيل من لغات أخرى وورد في أفصح نصوصها النثرية والشعرية فأي بأس في أن تدخل من لهجاتها ما يناسبها، فيستعمل في الفصيحة كما استعمل الدخيل قديمًا وحديثًا، وإن من التقصير إهمال ما في العاميات واللهجات من ألفاظ معبرة ودقيقة في دلالاتها، بل من الغريب أن توصف بأنها ساقطة سوقية، فما السقوط فيها؟ وما السوقية؟ اللهجة مستوى لغوي مختلف عن الفصيح ولكنه مستغن عن الإعراب، وهذا يجعله مختلفًا؛ ولكنه لا يجعله ساقطًا. ثم أنكر الدكتور صلة (شرشح) بأصلها العربي وهو (شرح) ووّهم من قال بذلك الأصل، قال: "أما كلمة شرشح فقد

وهم أحد الكتاب حينما زعم أن لها أصلًا فصيحًا، حيث ذكر أن المعاجم اللغوية لا تذكرها ثم ذكر أن أحد المعاجم أورد ما يفهم منه أنها مرتبطة أو متفرعة من كلمة (شرح)، وذلك خلط واضح، فتصاريف كلمة (شرح) تعني الوضوح والبيان، فالشرح توضيح الغامض وبيان المبهم وتفسير الغريب، أما كلمة (شرشح) في الاستعمال السوقي العامي فيقصد بها في الغالب: العتاب واللوم وبيان العيوب والمآخذ والانتصار على الخصم بسلاطة اللسان وبذاءته.. فما وجه القرب بين هذا وبين كلمة (شرح)؟!"؛ ولكن الذي يقف على مادة (شرح) في (لسان العرب) يقرأ أول ما يقرأ قوله: "الشَّرْحُ والتَّشْريح قَطْعُ اللحم عن العضو قَطْعًا، وقيل قَطْعُ اللحم على العظم قطعًا والقِطْعَةُ منه شَرْحة وشَرِيحة وقيل الشَّرِيحةُ القِطعةُ من اللحم الْمُرَقَّقَةُ. ابن شميل: الشَّرْحة من الظِّباء الذي يُجاء به يابِسًا كما هو لم يقَدَّدْ يقال خُذْ لنا شَرْحة من الظِّباء وهو لحم مَشْرُوح وقد شَرَحْتُه وشَرَّحْتُه والتَّصْفِيفُ نَحْوٌ من التَّشْريح وهو تَرْقِيقُ البَضْعة من اللحم حتى يَشِفَّ من رِقَّتِه ثم يُلْقَى على الجَمْر". فالصلة واضحة كل الوضوح بين (شرشح) وشرّح، فالشرشحة تقطيع مجازي، وإن من اللفظ ما هو أمضى في تقطيعه من المدى. وليست الشين في (شرشح)سوى إبدال لأحد المضعفين من (شرّح)، وهو أمر يفسر طائفة كبيرة من الأفعال الرباعية، مثل: بذّل/بهذل، جرّ/جرجر، حلّل/حلحل/الحلح، حرّش حربش، حرّص/ حرمص، خرّب/ خربط، خرّش/ خربش/خرمش، دبّغ/ دلبغ، رقّط/رنقط، شخّط/شخبط، شخمط، عرّش/عرمش، عفّط/عرفط، قزّع/ قنزع، قرّط/ قرمط، قرّد/قردن ،قصّل /قصمل، كسّر/ كسمر، هلّم/ لهلم.

وتوقف الدكتور عند جمع (عدوّ) جمع سلامة قال: "ثم لفظ (عدوين)، فقد أنجز الطالب جمع كلمة (عدو) على (عدوين) وما أغرب هذا الجمع وما أشد بعده عن النحو والفصاحة، وما أبعد كاتبه عن تطبيق ما تعلمه!! وكأن هذا الطالب لم يسمع كلمة (أعداء) ولم يقرأها في القرآن الكريم!!"، والدكتور محق في أنّ الجمع المستعمل في التراث هو الجمع المكسر، والحجة أن ما يستوي فيه المذكر والمؤنث لا يجمع جمع سلامة، ولكن (عدوّ) شذّت عن هذا الأصل، جاء في (شرح الشافية) للرضي: "وإنما أدخلوا التاء (عدوّة) وإن كان يستوى المذكر والمؤنث في هذا البناء حملا له على صديقة"؛ ومن أجل ذلك كان الجمع السالم غير مدفوع؛ لأنه قياسيّ في مثل ذلك، فلك أن تقول: (عدوّون/عدوّين/ عدوّات)، وأحسب أن اللهجات حين استعملت جمعه السالم على صواب.

بقي أن أحمد لأخي غيرته على العربية الفصيحة ومدافعته عنها في هذا الزمن الذي تنكر لها أهلها وهجرها أبناؤها حين وجدوا أن أهل الحلّ والعقد لم ينصروها وجعلوا عصب العلم والعمل في يد لغة أجنبية، وهو أمر لا تفعله الأمم الأخرى، فكيف تفعله أمة اختيرت لغتها للرسالة العالمية التي عماد إبلاغها اللغة العربية.

شواهد أم أمثلة

أدهشني الدكتور جواد بن محمد بن دخيّل بموضوع(١) مثير عن جملة من بيوت الشعر التي وجدها في كتب ابن مالك وبخاصة كتاب شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، وتنبه بذكائه المعهود إلى أن هذه البيوت ليست من الشواهد التي وردت في كتب السالفين قبله، ولما دقّق في أمرها وجد أنها ترد أول ما ترد في كتب ابن مالك، وهي بيوت لا تنسب إلى شاعر من الشعراء السابقين ابن مالك؛ فهي إما غير منسوبة وإمّا منسوبة إلى أحد الطائيين، ولما كان ابن مالك طائيًّا استنتج الدكتور جواد من ذلك أن هذه البيوت من نظم ابن مالك نفسه، ويسوغ هذا أن ابن مالك شاعر نظم الكافية الشافية في ألفين وسبع مئة وسبعة وخمسين بيتًا، ولو أن الأمر بقي رهن كتب ابن مالك لهان الأمر؛ ولكنّ من جاء بعده ردّدوا هذه البيوت شواهد من غير شكّ أو مراجعة، وهو أمر دعا الدكتور جوادًا إلى التنبيه إليه لأهميته عند من يلتزم بالشواهد التزام النحويين القدماء من حيث الزمان والمكان، وخشي الدكتور أن يظن ظانٌّ الوضع في ابن مالك فدفع عنه هذه الظنة بأن شأنه شأن أبي علي الفارسيّ الذي مثّل لمسألة نحوية بشعر أبي تمام، وهو ليس من شعراء الاستشهاد، فابن مالك في إيراده تلك الأبيات كان يمثّل للظواهر لا يستشهد لها، واستدل بأنّه يصدّرها بقوله "كقول الشاعر" و"مثله

---

(١) نظرة في شواهد ابن مالك: كتاب شواهد التوضيح والتصحيح نموذجًا، مجلة الدراسات اللغوية، مج١٤، ع٢، ربيع الآخر-جمادى الآخرة، ١٤٣٣هـ، مارس-مايو ٢٠١٢م. ص ص ٤١-٦٣. وسبقت الإشارة إليه في ص١٠٦.

قول الشاعر" و"منه قول الشاعر" وبأنّه لم يقل و"من شواهد ذلك قول الشاعر" أو "يشهد على ذلك قول الشاعر"، وبيّن الدكتور أن المشكلة تكمن في وهم النحويين الخالفين أن هذه البيوت من الشواهد فأوردوها في كتبهم على هذا الأساس.

والأمر على طرافته يحوك في النفس لأمور: الأول أنّ كثيرًا من كتب العربية لَمّا تحقق بعدُ، فلعل هذه البيوت واردة فيها، والأمر الثاني استبعاد غفلة النحويين الخالفين ابن مالك عن الفرق بين التمثيل والاستشهاد، والأمر الثالث أنا نجد الشواهد في كتب القدماء لا ينص على أنها شواهد بل تساق مساق بيوت ابن مالك هذه، ومن تلك البيوت مجاهيل لا يعلم لها قائل، والأمر الرابع أن عبارة ابن مالك أقرب إلى الإشعار بالاستشهاد بالبيت لا التمثيل، كما في قوله في (ص٢٨) من شواهد التوضيح والتصحيح "أما مخالفة السماع فمن قِبَل أن الاتصال ثابت في أفصح الكلام المنثور. كقول النبيّ ﷺ لعمر رضي الله عنه (إنْ يكُنْهُ فلن تسلَّطَ عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله). وكقول بعض العرب: عليه رجلًا ليسي. وفي أفصح الكلام المنظوم كقول الشاعر:

لجارِيَ من كانه عزّةٌ يُخالُ ابنَ عمٍّ بها أَوْ أَجلّ"

والأمر الخامس أنه يلي هذا البيت بيت آخر صُدّر بعبارة ابن مالك "ومثله" وهذا البيت من شواهد سيبويه وما نصّ ابن مالك على أنه شاهد وما نسبه لقائله، وهو أبو الأسود الدؤليّ، فعبارات ابن مالك ليست قاطعة في دلالتها على التمثيل ولا الاستشهاد. ووصفه البيت المذكور بأنه من أفصح الكلام المنظوم يشعر بالاستشهاد لا التمثيل مع تقديمه على شاهد سيبويه وتسويته به بقوله (ومثله).

والأمر السادس أن الكتاب موسوم بأنه (شواهد) وقد نص على هذه التسمية في أول الكتاب، قال "هذا كتاب سمّيته شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح"، فالمتوقع أن يكون محتواه كذلك.

ومن أجل ذلك لا أرى النحويين مخطئين في ثقتهم بابن مالك ورواية ما أورده في معرض الاستشهاد.

ضاد سيبويه في الجنوب

كتبت الدكتورة القديرة منيرة الأزرقي بحثًا نشرته في مجلة الدراسات اللغوية في العدد ٦٠ عنوانه (صوت الضاد بجنوب غرب المملكة العربية السعودية دراسة ميدانية)، والكتابة عن الضاد مستفيضة والكتب التي دونت لها كثيرة، ولم يفتأ الدارسون يتعرضون لها من قريب أو من بعيد؛ ولكن تلك الكتابات في معظمها تنطلق من مسلمة غير مؤكدة وهي وجود (وحدة صوتية) هي الضاد.

حاولت الباحثة القديرة البحث عن جذور للضاد كما وصفها سيبويه، وهي الصوت الجانبي المطبق الاحتكاكي المجهور، وأما وصف أستاذه الخليل فهو مختلف وهو أمر غريب، وكانت الباحثة قد أجرت عددًا من الدراسات في لهجات الجنوب، ولكن هذه الدراسة أوسع حسب قولها وكانت بدعم من مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، واعتمدت الباحثة على جمع البيانات الصوتية ثم صنع قالب حنكي ملائم متصل بأسلاك توصله إلى الحاسوب، وحللت البيانات الصوتية سمعيًّا وأكوستيًّا وآليًّا، وأظهرت النتائج طائفة من الأصوات: صوت رنيني مطبق جانبي، وصوت أسنانيّ احتكاكيّ مطبق مجهور شبه جانبي، وصوت أسناني احتكاكي مطبق مهموس شبه جانبي. والأمر المثير الذي تقرره الباحثة هو أنه "لن نستطيع أن نجزم بأن كلّ كلمة تكتب بحرف الظاء لها صوت محدد، والأمر متشابه مع كلّ الكلمات المكتوبة بحرف الضاد. أي: ليس هناك علاقة بين حرف الظاء والضاد المكتوبة والصوت المستخدم لهما.. وهنا قد نخرج بقوائم مختلفة من الكلمات تبعًا لأصواتها".. وما تقرره هنا يزيدنا يقينًا أنّ ما سميّ بالضاد ليس سوى

صورة صوتية (ألفون) من الظاء. وذكرت الباحثة في خلاصة البحث "أنّ الضاد الفصيحة كما وصفها سيبويه، التي لم يعرف نطقها الكثيرون نظرًا لتغيرها واندثارها الذي بدأ منذ القرن الرابع الهجري والتي مازال البعض يستغربها والبعض ينكر وجودها والبعض يشكك في وصفها، تستخدم في وقتنا الحالي بين بعض المتحدثين بجنوب غرب المملكة العربية السعودية، ولها عدة صور فحصها الباحثون في هذه الدراسة". وليس يغير أمر استمرار هذا الصوت كما وصفه سيبويه من احتمال كون الصوت بصوره المختلفة صورًا صوتية للوحدة الصوتية (الظاء).

كنت أودّ لو وازنت الباحثة بين دراستها الميدانية وما أنجزته مدينة الملك عبدالعزيز للتقنية ونشر على أنه "قاعدة بيانات الصوتيات العربية" لأنه عمل اعتمد على الحنك الصناعي وآلات التصوير التي تصور أوضاع التقاء أعضاء النطق أثناء التلفظ؛ ولكن الذي يعيب تلك المحاولة أنها مفتعلة؛ إذ لم تؤخذ من أفواه المتكلمين أخذًا مباشرًا من دون عوائق ماديّة تؤثر على النطق، ثم إن الأمر لم يكن يسلم من التصور السابق لكيفيات التلفظ.

قراءة التراث الأدبي واللغوي في الدراسات الحديثة

ليس كالعربية وتراثها لغة اتصلت ووصلت إلى وقتنا الراهن؛ إذ ما نزال نقرأ أشعارًا مرويّة، وكتابًا منزلًا منذ نيّف وأربعة عشر قرنًا، وهو تراث ثريّ بما استوعبه من روافد ثقافية كسبها من الأمم المجاورة بلاد العرب، ومن النشاط الثقافي الذي اقتضته النقلة الحضارية من عهد شتات قبلي إلى عهد أمة موحدة قائدة، وكان هذا التراث محط تفاعل داخلي بقراءات مستمرة، حتى جاء العصر الحديث وانفتحت الأذهان على ثقافات جديدة كان لابد من معاودة مراجعة التراث، وتأتي في هذا السياق هذه الندوة العالمية التي عقدها قسم اللغة العربية في جامعة الملك سعود في ٢٥-٢٧ من ربيع الآخر عام ١٤٣٥هـ الموافق ٢٥-٢٧ من أكتوبر عام ٢٠١٤م، وقدم الباحثون أعمالهم في (قراءة التراث الأدبي واللغوي في الدراسات الحديثة) في سبع جلسات بدئت بجلسة عالجت "إشكالية المنهج في قراءة التراث الأدبي" وبهذا العنوان نفسه تحدثت أميرة بنت سليمان القفاري، وتحدث دياب رابح قديد عن "قراءة حداثية للتراث وإشكالات المنهج"، وأما رشيد سلاوي فحديثه "من جهود المغاربة في قراءة النصوص الأدبية والنقدية التراثية قراءة مصطلحية"، وعالج عبدالقادر محمد الحسون "إشكالية المنهج عند النقاد المعاصرين ودورها في تطوير قراءات الشعر القديم"، وختمت هذه الجلسة فاتحة الطايب أمخزون بكلمتها عن "نموذج تأصيل الكيان من المنظور الحواري"، ويتصل موضوع الجلسة الثانية بموضوع الجلسة الأولى حيث يأتي ليتناول "الأسس النظرية للقراءة" وفيها "معالم النظرية الإشارية في فكر الإمام ابن قيم الجوزية والدرس اللساني الحديث" لإدريس بن خويا، وكذا "الشروط الأساسية في قراءة التراث اللغوي اللساني" لمجدي

بن صالح بن صوف، وأما محمود أبوالمعاطي أحمد فتحدث عن "تفسير النص القرآني وتأويله بين المنهج السلفي والاتجاهات الحداثية" وفسّر هذا بأنه دراسة مقارنة بين مفهوم تفسير النص القرآني عند السلفيين ومفهوم تأويله عند الاتجاهات الحديثة العربية، ونجد الحديث ينتقل شيئًا إلى جانب لغوي مع مختار درقاري عن "الآليات التداولية لتحليل الخطاب من وجهتي نظر الأصوليين المحدثين"، وخصصت الجلسة الثالثة لتكون "في قراءة التراث الأدبي والبلاغي" بدئت بدراسة إبراهيم مصطفى الدهون عن "التناص بين الرؤية والتطبيق؛ مرثية المعرّيّ الإنسانية أنموذجًا"، وقدم أبوعبدالسلام محمد الإدريسي "قراءة عبدالقاهر الجرجانيّ، وتصوره لفعل القراءة"، ومثلها "قراءة القرطاجنّيّ في ضوء نظريات تحليل الخطاب الحديثة" لخليفة بن الهادي الميساوي، وأما سعيد يقطين فخصص دائرة البحث لتكون "قراءة التراث الأدبي: التراث السردي نموذجًا"، وختمت الجلسة بما كتبه عبدالرحمن عبدالله بوعلي عن "القراءة العاشقة أو استراتيجية قراءة النص السردي الكلاسيكي: عبدالفتاح كيليطو نموذجًا"، وأما الجلسة الرابعة فهي "قراءة لسانية للتراث النحويّ العربيّ" وكان أول موضوعاتها "أسلوب النداء في العربية دراسة في تداولية الخطاب" لأيمن محمود إبراهيم، وعالج الجمعي محمود بولعراس "القضايا التداولية للواسمات في الدرس اللساني العربي ومحطات التقاطع الإبستمولوجي في الدرس المعاصر"، وكذا عبدالرحمن بودرع في "نحو قراءة إبستمولوجية معرفية للتراث النحويّ العربيّ"، وتواصل الابستمولوجية مع محمد بن صالح وحيدي في "اللسانيات والتراث النحوي. إشكالات منهجية وإبستمولوجية" وختمت هذه الجلسة منال محمد هاشم نجار عن "الضرورة الشعرية بين نحو الجملة ولسانيات النص"، وعالجت

الجلسة الخامسة موضوع "التراث والمقاربة السيميائية" بدأت بمشاركة عبدالفتاح أحمد يوسف عن "سيميائيات التلفّظ وتأويل الخطاب بائية علقمة الفحل أنموذجًا"، وفيها عودة إلى جهود عبدالفتاح كيليطو؛ إذ كتب عبداللطيف محفوظ عن "التحليل السيميائي للنصوص التراثية: مقاربة لتجربة عبدالفتاح كيليطو"، وختمت الجلسة بما كتبته نادية لقجع جلول سايح عن "آليات تحليل النص التراثي في ضوء المناهج المعاصرة السيميائية والتداولية: نماذج تطبيقية من تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة"، وأما الجلسة السادسة فهي "قراءة حديثة للنص العربي" حيث وقفتنا إيمان جربوعة على "قضايا تداولية في الخطاب القصصي القرآني: قصة سيدنا يوسف نموذجًا"، وعالج عبدالرحمان أحمد يجيوي "المعجمية الحديثة وإعادة قراءة التراث اللغوي العربي" وقارب المعجم كذلك عبدالقادر بن ميلود سلّامي في "المهمل في المعجم العربي وسبل استثماره في وضع المصطلح"، وأما حميدي بن يوسف عمر فكانت ورقته هي "نحو تسطيح (المرايا المقعّرة): قراءة نقدية في بعض القضايا اللغوية الواردة في كتاب (المرايا المقعّرة) لعبدالعزيز حمودة، وختمت وسمية عبدالمحسن المنصور الجلسة ببحثها "وقائع الخطاب في كتاب مجالس العلماء للزجاجي"، وكانت آخر جلسات الندوة عن "التراث وسؤال الحداثة" بدأ الجلسة بشير أحمد يوسف عمر بورقته "تأصيل التراث في ظل الأدب المقارن"، وكتب حبيب بُوهْرور عن "ماهيّة التراث ضمن المحمولات الأيديولوجية الحديثة عند الشاعر العربي المعاصر"، وعالج عبدالله العشي موضوع "القراءة الحداثية للتراث موقع التراث في بيانات الحداثيين العرب"، وأما لعموري زاوي فكلمته عن "النقد الحداثي ورهاناته بين نصوصيّة عربية وإجرائية غربية"،

وختم الحلقة مختار عبدالقادر لزعر عن "المصطلح النقدي Hermeneutics بين خلفية الفكر الغربي وواقع التطور العربي".

وهكذا رأينا أعمال هذه الصفوة من علماء العربية تجمع على غنى التراث وأصالته واتصاله بعالمنا الحاضر، وهو أمر يدعونا إلى إعادة الثقة في أنفسنا وإلى الجمع بين ما يحتويه من خير وما أفاضت به الجهود العالمية من أفكار جديدة؛ ليكون من ثمرة تلاقح الأفكار ما يهيئ لنا من المكانة العالمية ما هو في مستوى الطموح.

كرسي المانع

كان تأسيس كرسي الأستاذ الدكتور عبدالعزيز المانع من أهم أعمال الأستاذ الدكتور عبدالله العثمان مدير جامعة الملك سعود وأجلّها. وتأتي قيمة هذا الكرسي من ارتباطه باللغة العربية وآدابها، وقد نشط هذا الكرسي بإدارة أ.د. عبدالعزيز المانع إلى تحقيق أهدافه بخطوات مدروسة من شأنها خدمة العربية تليدها وطارفها، ومن يطّلع على أعمال الكرسي يجد أنها تجمع بين النظرية والتطبيق، ويجدها متنوعة، فمنها الندوات ومنها المحاضرات وورش العمل والدورات التدريبية، ومنها نشر الكتب في مجال اللغة والأدب، ولم أتمكن من أن أشهد كل تلك الإنجازات، ولذلك سأذكر ما كنت شاهده أو مشاركًا فيه، وأول محاضرة شهدتها كانت بعنوان: "اللغة العربية في الصحافة المقروءة" تحدث فيها الدكتور أحمد الضبيب عن مشكلات اللغة العربية في الصحافة المقروءة، واقتراح بعض الحلول لها في إطار السياسة اللغوية التي يجب اتخاذها للارتقاء باللغة العربية.

وشهدت وشاركت في الندوة التي نظمها كرسي المانع بالتعاون مع كرسي صحيفة الجزيرة للصحافة الدولية ندوة مشتركة عن "اللغة والإعلام" وذلك صباح الاثنين ١٣/٢/ ١٤٣٢هـ .

وجاءت الندوة في جلستين الأولى رأسها الدكتور علي بن شويل القرني المشرف على كرسي صحيفة الجزيرة للصحافة الدولية وشارك فيها الدكتور فهد العرابي الحارثي رئيس مركز أسبار للدراسات والإعلام والدكتور أحمد بن راشد السعيد الأستاذ المشارك بقسم الإعلام، أما الجلسة الثانية فرأسها الدكتور عبدالعزيز المانع المشرف على كرسي المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها، وشارك فيها أبوأوس

إبراهيم الشمسان والدكتور فالح العجمي الأستاذان بقسم اللغة العربية في كلية الآداب.

وإن تكن جملة الأعمال التي نهض بها الكرسي جليلة فإن أجلها في نظري وأدومها نفعًا هذا الاتجاه المبارك لنشر الكتب والدراسات الجادة، وكان من التوفيق المبارك أن جاء كتاب (الشاهد الشعري في النحو العربي) للدكتور محمد الباتل الحربي أول سلسلة الإصدارات التي أصدرها الكرسي، ويمثل هذا الكتاب نقطة لقاء الأدب والنحو؛ فهو درس لمصدر من أهم مصادر التقعيد، وهو الشعر، حيث يظهر التفاعل بين الإبداع الأدبي والدرس النحوي، وصدر من هذه السلسلة (نظر في الشعر القديم) للدكتور حسين الواد، و(الأسلوبيات الأدبية) للدكتور محي الدين محسب، و(الشعار على مختار نقد الأشعار)، و(من اسمه عمرو من الشعراء) حققهما الدكتور عبدالعزيز المانع، و(تحليل القصص) للدكتور ناصر الحجيلان، و(نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب) للدكتورين أحمد كمال وحسن الشماع، و(قياس العكس) للدكتور محمد العمري. وإن من يعرف المشرف على الكرسي عن قرب يدرك أن هذا العالم فريد في علمه وخلقه وطبعه، فقد زويت له معارف التراث مطبوعها ومخطوطها التي أفنى شطرًا من عمره في طلبها ومعالجتها وإخراجها في أجمل حلة، وإنه لا يلقاك إلا بابتسامة تضيء وجهه الصبوح، وإنه على ما يجد من العنت من الآخرين لا ترى في وجهه تمعرًا ولا تسمع من لسانه تذمُّرًا. هنيئًا للعربية بكرسيّ المانع، وهنيئا لنا بالمانع، أمد الله بعمر أستاذنا وشيخنا وبارك له بوقته وصحته وسدد عمله وحقق آماله وكل ما يرجوه لخير العربية، وإن من سعادتي تشرفي بمعرفته ومزاملته في قسم اللغة العربية.

لنقل أخي عبدالله خيرًا

قرأت لأخي وحبيبي الأستاذ المؤرخ الدكتور عبدالله بن إبراهيم العسكر في صحيفة الرياض يوم الأربعاء ٢٨شعبان ١٤٣٣هـ (العدد ١٦٠٩٥) مقاله عن (قل ولا تقل)، فرأيته ابتدأ باعترافه أنه ليس من أهل الاختصاص في النحو وعلوم اللغة العربية، ولكنه يعشقها، ولا أدري أعشقه للغة أم لعلوم اللغة؛ ولكنه مع عشقه هذا أراد أن يتخذ النحو واللغة العربية مجالا للهذر والترويح عن النفس، توقف أخي العسكر عند أبيات قال إنه يحفظها، وهي تلخص بعض أعاريب البسملة، وذكر أن أعاريب البسملة تصل إلى تسعة نقلا عن صديقه. ومعروف عن النحويين المتأخرين وطلابهم شغفهم بالتدريب النحوي وطرق كل الاحتمالات الرياضية في الإعراب إظهارًا للمعرفة والتفوق في التحليل النحوي، وارجع إلى حاشية الخضري على شرح ابن عقيل لتجد أنهم أوصلوا أعاريب البسملة إلى (مئتين وتسعة وسبعين صورة)، ولكن كل ذلك موجه للمتخصصين من النحويين ولا حاجة للعامة به. ويقول صاحبي "أرى العبث النحوي جعل لغتنا الجميلة عصية على المبتدئ والمتعلم إلاّ من رحم ربي. لهذا كله اقتنعت أن آفة لغتنا الجميلة هو النحو". وهو يشير هنا إلى الضعف الشديد في مهارات المتعلمين العربية، وهو ضعف مشهود واضح؛ ولكن النحو وما سماه العبث النحوي ليس سببًا لذلك، ولا ينبغي أن يكون؛ لأن تعلم مهارات اللغة ليس طريقها تعلم النحو، النحو معين على التعلم ولكنه ليس معلمًا، وإنه يمكن أن يتعلم الإنسان اللغة من غير أن يلقن حرفًا واحدًا من قواعدها، وهكذا يتعلم الطفل اللغة من غير أن يعلم نحوها تعلمًا مباشرًا،

وهكذا يتعلم الوافدون إلى بلادنا العربية، فمنهم مجيد ومنهم دون ذلك، إن الوهم الذي استقر في أذهان الناس أن النحو علة العلل وأنه سبب جهل الناس بلغتهم، والحقيقة أن السبب غير ذلك، فالسبب أنهم لا يتعلمون اللغة تعلمًا كافيًا ولا يتدربون تدربًا كافيًا، اسأل أي متخرج من الثانوية العامة: كم قرأت قراءة شفهية؟ وانظر بم يجيب. ويقول أخي عبدالله "وكيف لي أن أعرف النحو على الوجه الذي يريده النحويون الذين يعدون كل من سواهم من الحمير – أكرمكم الله – قياسًا على قاعدتهم الذهبية: لولا الحذف والتقدير لعرف النحوَ الحميرُ". والحق أنك لست بحاجة إلى النحو حاجتَك إلى تعلم لغة القرآن، وأما ما سميته قاعدة ذهبية فليست بقاعدة أصلًا، وإنما هي مقولة متأخر أعجبه السجع فسجع، والنحويون أعقل وأحكم من أن يعدوا غيرهم بما وصفت، والمقولة هدفها بيان أهمية معرفة ما يعرض للتراكيب من حذف وما يقتضيه فهمها من تقدير، واللغة قد لا يستعملها المتكلمون تامة العناصر؛ لأنهم يتفاهمون بأوجز كلام وأخصره. وقال حفظه الله في معرض إصلاح النحو "على أن نكتفي بأبواب النحو الرئيسة التي تعيننا على ضبط حديثنا وكتاباتنا". وأقول لأخي: ما أبواب النحو؟ أليست باب الفاعل والمفعول وكان وأخواتها وإنّ وأخواتها؟ وفي هذه الأبواب تكثر أخطاء المتعلمين، وأما مشكلة الهمزة والإملاء بعامة فالدعوة إلى توحيد الطرائق محمودة؛ ولكنها ليست بالمشكلة المؤرقة، وكنت ناقشتك أخي عبدالله ونحن في بيتكم العامر وقلت لك ألسنا نحفظ هجاء الكلمات الأجنبية عن ظهر قلب؟ قلت: بلى، فقلت: لم لا نحفظ الكلمات المهموزة كذلك، والذي أعنيه أن تعلم الإملاء مرهون بالتدرب. أما قولك "كما يمكن التفكير بالتقليل من حركات الإعراب وتسكين أواخر الكلمات" فأمر لا

ينتهي منه العجب، أنت أنكرت العبث النحوي وتدعونا إلى العبث اللغوي، تدعونا إلى تغيير اللغة، ولا أظنك تدعونا إلى قراءة القرآن بتسكين أواخر كلماته، وكيف نقرأ الشعر مسكنة أواخر كلماته؟ بل كيف نقرأ مقالاتك أنت أيضًا؟ وأغرب من هذا قولك "إن بعض قواعد العدد تتعارض مع نص قرآني فصيح. حيث تقول القاعدة إن العدد من ثلاثة إلى عشرة تكون على عكس المعدود في التذكير والتأنيث. بينما القرآن يقول: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها"، وليس ثمة تعارض فالمعدود في الآية ليس بمذكر، ألم تلاحظ أن الحديث عن الحسنات المضاعفات فمن جاء بالحسنة فله عشر أي عشر حسنات، وأما أمثال فقد عومل معاملة المؤنث لإضافته إلى ضمير المؤنث (ويسمى التأنيث الحكمي)، واعلم أخي أن القواعد تؤخذ من جمهرة الاستعمال ولا يخرم القاعدة ما يرد مخالفًا لها، مثال ذلك قاعدة نصب (إنّ) للاسم الذي يليها (إنّ زيدًا منطلق) فهذه القاعدة مبنية على عدد هائل من النصوص، ولكن ورد قوله تعالى (إنّ هذان لساحران) أنعود إلى تلك القاعدة فنصفها بالخطأ أم نعترف بأنّ اللغة أوسع من القواعد. وتقول "إن هذا النحو يؤدي إلى كره الناشئة لغتَهم، وما لم يقم علماء النحو واللغة بتبسيط النحو فقبول الدارسين للنحو مشكوك فيه". وأقول لك ولغيرك ارجئوا درس النحو، وعليكم بتعلم العربية كما تتعلمون اللغات الأجنبية. وأما ما نقلته من ابن الأثير فمنتزع من سياقه ومورد في غير مورده، وابن الأثير يريد أن يقول إن الفصاحة والبلاغة أمر فوق السلامة اللغوية، وهو أمر قرره سيبويه في كتابه، فقد يكون الكلام صحيحًا نحويًّا؛ ولكنه كذب أو مستحيل أو قبيح، وكذلك يكون ركيكًا غامضًا ليس فيه فصاحة، والفصاحة والبلاغة تكون أيضًا في العاميات التي

لا تلتزم بالإعراب، ولكن ذلك كله ليس مدعاة لمعاندة قوانين اللغة. وأما حكاية لحن الحجاج التي ذكرتها فتدل على لحنه هو ولا تدل على أن جهابذة النحويين يلحنون إلا إن كنت تعده من جهابذة النحويين، وإن كان من جهابذة النحويين من يلحن فليس لجهله بالنحو بل لضعف مهارته باللغة كغيره. وأما ختامك بقولك (قل وقل) فلعلها دعوة للتركيز على الصواب ليعلم فيقال، من غير تذكير بالخطأ، وهذا منهج تربوي حكيم، إذن فلنقل أخي عبدالله خيراً.

ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه

تُتداول في الشبكة العنكبية قصة تدور حول هذه الآية، تتضمن الزعم أن استعمال لفظ (رجل) في قوله تعالى ﴿ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [٤-الأحزاب] هو من قبيل الإعجاز القرآني، والحجة المذكورة على طرافتها متوقف فيها، والحجة الطريفة هي أن المرأة قد تحمل جنينًا فيكون في جوفها قلبان، وإنما يتوقف في هذا الزعم من جهات، أما الأولى فسبب النزول وهو السياق الذي يجب أن يراعى عند فهم المعنى، فالسياق يتحدث عن رجل زعم أنّ في جوفه قلبين، جاء في تفسير مقاتل بن سليمان(٣: ٣٤): "نزلت في أبي معمر بن أنس الفهري ، كان رجلًا حافظًا لما سمع وأهدى الناس بالطريق وكان لبيبًا، فقالت قريش: ما أحفظ أبا معمر، ألا إنّه ذو قلبين، فكان جميل يقول: إن في جوفي قلبين أحدهما أعقل من محمد، فلما كان يوم بدر انهزم وأخذ نعله في يده، فقال له سليمان بن الحارث: أين تذهب يا جميل؟ تزعم أن لك قلبين أحدهما أعقل من محمد ﷺ"، وأما الثانية فإنه إن فرض قبول استعمال (رجل) لرعاية الدقة في المعنى بخلاف (بشر) الشاملة للذكر والأنثى، فإن الدقة صفة غير الإعجاز؛ لأن الدقة في التعبير يتصف بها القرآن وغيره، والثالثة أنه يمكن القول هنا أيضًا إن لفظ (رجل) قد لا يراد به المقابل للفظ (امرأة) بل يقصد به معنى الإنسان ذكرًا أو أنثى، وهذا معروف في العربية وغير العربية من اللغات، والرابعة أنه لا حجة بما يعرض للأنثى من أحوال طارئة كما لا يعتد بما قد يحدث من تشوه خلقي فيشتمل جوف الرجل على قلبين أو ثلاث كليات وهو من الأمور التي عالجها الطب الحديث. والخامسة أن المقصود بالقلب الذهن لا العضلة الضاخة الدم في الجسم،

وهذا من مجازات اللغة العجيبة، ومن الطريف أن يغيب هذا عن الشيخ الشعراوي؛ إذ نجده يقول "ومعلوم أن القلب هو أهم عضو في الجسم البشري فإذا أصيب الإنسان بمرض مثلًا يصف له الطبيب دواءًا، الدواء يُؤخذ عن طريق الفم ويمرُّ بالجهاز الهضمي، ويحتاج إلى وقت ليتمثل في الجسم، فإنْ كانت الحالة أشدَّ يصف حقنة في العضل، فيصبُّ الدواء في الجسم مباشرة، فإنْ كان المرض أشد يُعْطَى حقنة في الوريد لماذا؟ ليصل الدواء المطلوب جاهزًا إلى الدم مباشرة، ليضخه القلب إلى جميع الأعضاء في أسرع وقت. إذن: فالدم هو الذي يحمل خصائص الشفاء والعافية إلى البدن كله، والقلب هو (الموتور) الذي يؤدي هذه المهمة؛ لذلك عليك أنْ تحتفظ به في حالة جيدة، بأن تملأه بالحق حتى لا يفسده الباطل ... وإذا كان القلب هو المضخة التي تضخ الدم إلى كل الجوارح والأعضاء حاملًا معه الغذاء والشفاء والعافية، كذلك حين تستقر عقائد الخير في القلب، يحملها الدم كذلك إلى الجوارح والأعضاء، فتتجه جميعها إلى طاعة الله"[1]، وإنما يحسن سياق المعرفة بعد معرفة السياق.

---

(١) الشعراوي، تفسيره، ١: ٧٤١٧.

ما منعكَ ألا تسجدَ

ورد إليّ بالبريد الشبكي سؤال عن فاعل الفعل (منع) الوارد في قوله تعالى ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف١٢]، وجملة الإشكال عند السائل تدور حول إمكان مجيء الفاعل ظاهرًا، ثم حيرة السائل في تقدير الفاعل إن كان ضميرًا، أيقدر بهو أم يقدر بأنت. وعلى الرغم من مخالفتي للقدماء في طريقة إعراب جملة الاستفهام أجبته بما لعلهم يجيبون به، فبينت أن فاعل هذا الفعل لا يمكن أن يكون ظاهرًا؛ لأن (ما) سؤال عن الفاعل، وإنما تعرب مبتدأ لتصدرها وتقدمها على الفعل، وبينت أن الضمير يجب أن يكون (هو) ليعود إلى (ما) فيربط جملة الخبر بالمبتدأ، ولا معنى لتقديره بالضمير (أنت)؛ لأن المخاطب ليس فاعلًا للفعل (منع) بل هو مفعول به، وآية ذلك اتصال ضميره (ك) بالفعل، ولا يكون الفاعل والمفعول لشخص واحد إلا في الأفعال القلبية مثل (أظنني مهتمًا بأمره). وكان يمكن أن ينتهي الأمر إلى هنا، ولكن السائل عاود المراجعة برسائل متعددة ففاجأني بأنه قرأ لمن يقدر الفاعل بالضمير (أنت)، وهذا نص رسالته "هذا اقتباس من إعراب الدكتور مسعد زياد لقوله تعالى:{ما منعكَ ألا تسجدَ} وقد قدّر الضمير بـ(أنت) وقال بوجوب استتاره: (ما: استفهامية في محل رفع مبتدأ، منعك: فعل ماض وفاعله ضمير مستتر فيه وجوبا تقديره: أنت. والكاف ضمير متصل مبني على الفتح في محل نصب مفعول به. والجملة الفعلية في محل رفع خبر)". ثم ذكر الموقع الشبكي الوارد فيه الإعراب. http://www.drmosad.com/index35.htm

وكتبت ردًّا إلى السائل بينت فيه أن قول الدكتور مسعد وهمٌ في إعرابه، ثم عاود السائل يريد استفتاء كتب التفسير وأعاريب القرآن، وتبين بالبحث أن مثل

هذه المسألة السهلة تكاد لا تستوقف أصحاب تلك الكتب على طولها، وبالبحث وجدت من المحدثين من وقع في الوهم أيضًا، وهو قاسم حميدان دعاس، قال "(قالَ) الجملة مستأنفة (ما مَنَعَكَ) ما اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، منعك فعل ماض ومفعوله وفاعله أنت والجملة في محل رفع خبر"(١)، وربما اعتمد الدكتور مسعد على دعاس في إعرابه. وأما القدماء فوجدت مكي بن أبي طالب القيسي قد بيّن الإعراب بوضوح في كتابه (مشكل إعراب القرآن)، قال: "قوله ما منعك ألا تسجد ما استفهام معناه الإنكار وهي رفع بالابتداء وما بعدها خبرها وأن في موضع نصب بمنعك مفعول بها ولا زائدة والتقدير أي شيء منعك من السجود ففي منعك ضمير الفاعل يعود على ما"(٢).

وهذا الذي وجدته من وهم من يعربون القرآن من المحدثين هو ما دعاني للكتابة ليتبين للقارئ أنّ نشر الكتاب لا يكفل له الدقة أو الصواب، والخطأ مذموم في الكتب السائرة؛ ولكنه محرم في إعراب القرآن ما لم يكن المعرب له رأي تسنده الحجة.

---

(١) قاسم حميدان دعاس، إعراب القرآن الكريم) الذي نشرته دار المنير. دار الفارابي/ دمشق، ١٤٢٥ ه، ١: ٣٥٢.

(٢) مكي بن أبي طالب القيسي، مشكل إعراب القرآن، تحقيق: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة/بيروت، ١٤٠٥هـ، ١: ٢٨٤.

مجلة نادي طالبات الإنجليزية

اطلعت على العددين الثاني والثالث من المجلة التي يصدرها نادي طالبات اللغة الإنجليزية واسمها (muse magazine) و(مقزين) لفظ عربي دخل إلى اللغة الإنجليزية فهو (مخزن) وبهذا استعمل ومازال يستعمل، غير أنه استعمل أيضًا بمعنى المجلة مجازًا، واشتهر اللفظ المجازي حتى صار حقيقيًّا.

قلبت صفحات المجلة المميزة بلغتها الواضحة وأناقتها وجمال طباعتها وانتابتني مشاعر متباينة؛ إذ امتلأت نفسي بهجة بإنجاز طالباتنا وإبداعهن الرائع، وشعرت بالأسى أن يكون هذا الإبداع منصبًا في حوض اللغة الأعجمية، والتفت إلى حال طلاب قسم اللغة العربية الذين لا يحسن بعضهم القراءة ولا الكتابة.

موضوعات هذه المجلة تدور في فلك اهتمام طلاب اللغة وطالباتها من مثل تقرير عن ورشة عمل عنوانها "كيف تكون فصيحًا في الإنجليزية"، وحديث عن (جماعة الكِتاب) يحاول تصحيح فهم الطالبات عنها، وأكثر ما تقفنا عليه المجلة طرافة جملة مختارة من أقوال الأستاذات، ومن أجملها قول د.إيمان كمال "تطلعي دائمًا إلى النجوم، فالعلم يهيّئ الذهن للكشف والتحليل والتركيب والتقييم والنقد". ومثل هذا مقتبسات من الكتب، منها ما جاء في كتاب (إسماعيل): "إنك لن تعرف حقًّا كيف تعالج مشكلة حتى تقع فيها". ومنها ما جاء في كتاب (الدرس الآخِر): "إن قلت لصديقك أنه إذا مات مات جزء منك فرافقه، وأنه حيثما يذهب تذهب؛ فإنه لن يكون وحيدًا أبدًا". ومن موضوعات المجلة (ما الذي جعلهم مشهورين)، وهو أمر أشغل الكاتبة منذ كانت طفلة فلمَ يشتهر بعض الناس؟ وكيف يشتهرون؟ ما الذي فعلوه ليكونوا كذلك؟ ومن أجل ذلك

تستعرض حيوات بعض الناس الذين اشتهروا وأثروا في غيرهم، وأرادت أن تضيء جوانب من حياة تلك الشخصيات التي ربما لم يسمع بها بعضنا على الرغم من شهرتها. ومن موضوعات المجلة موضوع عن الفن أراه بالغ الطرافة بمضمونه الرائع وعنوانه المبدع "محاكاة الحياة للفن أروع من محاكاة الفن للحياة"، ومن موضوعات المجلة مختارات من الأدب الأمريكي، ومقال يعالج الفروق النفسية بين المرأة والرجل في مسرحية (تريفلس)، ومن موضوعات المجلة "المعنى من اللسانيات إلى الأدب" وجاء في مطلعه أن الأدب ليس نصًّا خاصًّا أبدعته نخبة من المجتمع بل هو يقدمنا وهو الذي جعلنا ما نحن عليه، فهو الواصف طبيعتنا وفكرنا اللذين يتبينان في أفعالنا، إنه رحلة فكرية تاريخية أسعدتها لغتنا الجميلة وآدابها التي ألّفت حضارتنا، ليس الأدب مجرد نص بل هو مضمون حيواتنا ومحتوى فكرنا، إنه مثال منا مثال من لغتنا".

وليس غريبًا بعدُ أن كان قسم اللغة الإنجليزية من أكثر أقسام كلية الآداب تميزًا، وبسببه نال الاعتمادُ الكليةَ، تحية من القلب إلى نادي طالبات اللغة الإنجليزية، وشكرٌ للأستاذة منى القحطاني التي ناضلت لإنشاء هذا النادي حتى استوى على سوقه.

مراجعة لمراجعات

أعجبني البحث الذي كتبه زميلنا الدكتور خالد بن إبراهيم النملة في مجلة الدرعية (ع ٤٤–٤٥) عنوانه (مراجعات في التصحيح اللغوي)، جعل القسم الأول منه لمراجعة منهج التصحيح، وفيه نبّه إلى أن التطرف في التخطئة أو التصويب أمر غير محمود، ووقفنا على ثغرات التشدد في التصحيح، منها التسرع والعجلة في التغليط، كتغليط استعمال أمهات لغير العاقل، وجمع ريح على أرياح، ومصدر صاغ على صياغة، ومن الثغرات المبالغة في الاعتماد على القياس، كردهم جمع مصيبة على مصائب، وتغليطهم مثل (مكره أخاك لا بطل)، ومن الثغرات الإلزام بأحد الوجهين أو الأوجه الجائزة، كإلزامهم بنغق (المعجمة) وترك نعق (المهملة).

وأما القسم الثاني: مراجعات تطبيقية في التصحيح اللغوي، فصحح فيه ما غلطته كتب التصحيح، منها صحة نفي الفعل الماضي بـ(لا) غير مكررة، وصحة تأنيث (أيّ) المشدّدة، وصحة وقوع خبر (لعلّ) فعلا ماضيًا، وصحة استعمال (أبدًا) في تأكيد الماضي المنفي، وصحة استعمال (قد) مع المضارع المنفي بـ(لا)، وصحة دخول حرف النفي على خبر (كاد)، وصحة تعدية الفعل (شكا) بحرف الجر (من). وهذا العمل البحثي الرصين جهد مشكور؛ ولكنه يثير سؤالًا مهمًا وهو ما المستوى الصوابي المنشود؟ أيجوز أن نقبل استعمال المحدثين لمجرد أنّ استعمالهم وافق لغة قديمة أو بيتًا قد وضعه واضع، أو بيتًا أخطأ صاحبه وإن يكن متقدمًا، إذ لا يستغرب أن يقع الخطأ واللحن من الأفراد، وإنما المعوّل في

التقعيد والقياس على الاستعمال الجمعيّ، ولعل هذا موطن الخلاف بين الباحث وأصحاب معاجم الأخطاء الشائعة الذين حدّدوا لأنفسهم مستوى صوابيًّا كما فعل العدناني في ردّه ما يجيء على لغة القصر في الأسماء الستة والمثنى، لا جهلًا منه باللغة وقواعدها بل تحديدًا للمستوى الذي جعله معيارًا، وهو اللغة المشتركة؛ إذ لغة الإتمام مشتركة، أما لغة القصر فليست بمشتركة، ومن المهم أن نفرق بين قواعد اللغة واللغة نفسها، فاللغة أعم من القواعد، فكل ما جاءَ على لغة القصر نقبله كما جاء، ونستعمله كما جاء، ولكن لا نقيس عليه، لا يخطّئ العدناني من يستعمل هذا المثل (مكره أخاك لا بطل)، ولكنه يخطّئ من يقول اليومَ: (مُدرَّب أباك، وجاء أخاك، ومررت بحماك)، ومن الأمور التي تدعو إلى التوقف إنكار الباحث "تغليط [بعض المصححين]صياغة اسم الفاعل من الماضي الرباعي (أُبِيع) في نحو: هذه السيارة مُباعة"، ويعد من المغلّطين محمد أبوالفتوح شريف، وحمدي محمود عبدالمطلب، ولعل هذا وهم من الباحث، إذ الكاتبان لا يغلّطان صياغته من الرباعي، ولا يتصور حدوثه منهما؛ ولكنهما يغلّطان استعمال المزيد في معنى المجرد؛ قال شريف: "يقولون خطأً: هذه الأرض الزراعية مُباعة، حقك مُصان، والصواب أن تقول: هذه الأرض مبيعة، حقك مصون. لأنّ اسم المفعول من الأجوف (معتل الوسط[1]) الثلاثي يصاغ على هيئة مضارعه مع إبدال ياء المضارعة ميمًا مفتوحة"[2]، فثمّ إذن باع وأباع وثم مَبيع

---

(١) الصواب: المعتل الوسط.

(٢) محمد أبوالفتوح شريف، من الأخطاء الشائعة (ط١، مكتبة الشباب/ القاهرة، ١٩٧٦م) ص٥١.

ومُباع؛ ولكن معنى المجرد يختلف عن معنى المزيد في اللغة المشتركة الفصيحة، جاء في (جمهرة اللغة): "قال أبو بكر: وسألتُ أبا حاتم عن باعَ وأباعَ فقال: سألتُ الأصمعي عن هذا فقال: لا يقال أباع، فقلت: قول الشاعر:

ورَضِيتُ آلاءَ الكُمَيْت فمن يَبِعْ فَرَسًا فليس جوادُنا بمُباع

فقال: أي غير معرَّض للبيع".

وللباحث إن أراد تصحيح استعمال (مباع) بمعنى (مبيع) أن يتمسك بما ورد في المعجم نفسه في الموضع نفسه، وذلك قوله: "وقال الأصمعي: لعلها لغة لهم، يعني أهل اليمن. قال أبو بكر: وقد سمعت جماعةً من جَرْم فصحاء يقولون: أبعتُ الشيءَ، فعلمتُ أنها لغة لهم"، ولكن المعتد به الاستعمال في اللغة المشتركة، نقل الجواليقي أنّ الفراء قال: "واعلم أنّ كثيرًا ممّا نهيتك عن الكلام به من شاذّ اللغات ومستكره الكلام، لو توسَّعتُ بإجازته لرخَّصتُ لك أنْ تقول: "رأيت رجلان[1]، ولقُلْتُ: أرَدتُ عن[2] تقولَ ذاك؛ ولكنْ وَضَعْنا ما يتكلّم به أهلُ الحجاز وما يختارُهُ فُصحاءُ أهلِ الأمصارِ، فلا تلتفت إلى مَنْ قالَ يجوزُ، فإنّا قد سمعناه، إلاّ أنّا نُجيزُ للأعرابيّ الذي لا يتَخَيَّرُ، ولا نُجيزُ لِأَهْلِ الحَضَرِ والفصاحةِ

(١) من لغات العرب لغة القصر وهي التزام الألف رفعًا ونصبًا وجرًّا.

(٢) أي (أنْ) وهي عنعنة تميم، تنطق الهمزة عينًا.

أنْ يقولوا: السَّـلامُ عليكِم[١]، ولا: جئتُ مِن عَنْدِك، وأشـباهه مما لا نُحصـيه من القبيح"[٢].

(١) هي لغة الوكم، كسر الكاف من ضمير المخاطبين.

(٢) أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي، تكملة إصلاح ما تغلط به العامة، تحقيق: حاتم صالح الضامن (ط١، دار البشائر/ دمشق،٢٠٠٧م)،ص ٤٦.

مصيدة المشترك اللفظي

الأصل في استعمال اللغة أن يكون للمعنى لفظ لا يشاركه فيه معنى آخر مختلف عنه كل الاختلاف؛ ولكن اللغة ليست عقلًا بل لها من المنطق ما يخالف المنطق الرياضي، فقد تجري استعمالاتها على خلاف الأصول المفترضة لأسباب مختلفة، ومن أمثلة المعنيين يشتركان بلفظ واحد دلالة الفعل (قال) الدال على القول والدال على القيلولة ظهرًا، وأما (الخال) فهو أخ الأم، وهو نقطة سوداء في الوجه. وربما استغلت إمكانية الاشتراك اللفظي في الألغاز والطرائف، ومن هذه الألغاز:

إنَّ هندُ المليحةُ الحسناءَ   وأْيَ مَنْ أضْمرَتْ لخِلّ وفاءا[1]

فالسامع يعجب كيف ترفع (إنَّ) الاسم بعدها (هندُ) فإذا عرف اللغز تبين له الاشتراك اللغوي بين (إنَّ) الحرف و(إنَّ) الذي هو فعل أمر مؤكد بنون التوكيد من المصدر (وأي) أي وعد، فالمضارع منه (يئي) والأمر للمخاطبة (إي) والمؤكد بالنون تحذف منه الياء فيكون (إنَّ)، وأما هند فضم للنداء والمليحة رفع متابعة للفظ المنادى والحسناء نصب لأنه نعت للمنادى فنصب رعاية لموقع النصب.

ومن الطرائف أن أم كلثوم قالت للسنباطي: إنتَ ليش ما بتلحن لفريد الأطرش؟ فقال: أنا ما بتلاءمش معاه، فقالت: هوّ أنت لازم تتلائم مع كل الناس.

والمصريون بعامة ذوو بديهة وخاطرة سريعة وعجيبة فكأنهم مجبولون على الفكاهة وربما يسمون هذا بالأفية أي القافية، أي ما يلحق اللفظ من طرفة منتهزة

---

(١) انظر: ابن هشام، مغني اللبيب بتحقيق الخطيب، ١: ٩٨.

لاذعة أحيانًا. ويقال إن أهل عيون الجواء في القصيم أهل طرفة تعتمد على المشترك اللغوي، من ذلك أن أحدهم جلب بعيرًا إلى بريدة فوقف أحدهم عنده وهو لا يريد الشراء بل الثرثرة وصاحب البعير يدرك ذلك، فلما سأله: البعير كم هو عليه؟ (أي كم ثمنه) قال: على أربع. (أي أربع قوائم)، فرد الرجل: أقول لك وشوّ عليه؟، فقال: على الأرض. فغضب الرجل من سخريته وشك أنه من أهل العيون فسأله: أنت عيوني؟ فقال: لا، عيونك في راسك.

والتورية باب بلاغي يستغل المشترك اللفظي، ومن ذلك ما قاله شوقي معرضًا بحافظ إبراهيم:

وأودعت إنسانًا وكلبًا أمانة   فضيعها الإنسان والكلب حافظ

وقال حافظ في شوقي:

يقولون إن الشوق نار ولوعة   فما بال شوقي أصبح اليوم باردا

وكنت كتبت في هذه المجلة مداخلة عن (ليت شعري) وكان مما جاء فيها، "والطريف أن يستعمل عنوانًا لكتاب (ليت نثري: كلمات لها قضية تربوية وما أتت من فراغ كتبه: علي محمد العيسى، نشر في (١٤١٧هـ/١٩٩٦م)."، والشاعر له (ليت شعري) وهو ديوان رائع كله حكمة ويمتاز بأن الشاعر يختمه ببيت صدره تفاعيل، فقصيدة (حديث الصمت) ختمها بقوله:

مستفعلن مستفعلن مستفعلن   بك يا رفيقي حالة مما بي

فهل يريد الشاعر أن يقول إن الشعر الذي صار فعله ونفعه متعذرًا مستحيلًا حتى أدخل في الرجاء (ليت شعري) قد فُرّغت ألفاظه من مضموناتها فلم يبق سوى صورة اللحن المتمثل في التفاعيل وحدها.

إن الشاعر الفحل الذي يجترح المعاني ويبتكر الدلالات لم يقل مقالة الفرزدق علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا؛ فحين قرأ شاعرنا ما كتبته كان من كرمه أن بحث عن هاتفي وتلطف بالسلام وبدأ بمناقشتي في ما كتبت، وكنت كتبت ما كتبت دون اطلاع على أعماله، وهو تقصير مني لست أدفعه، ثم بيّن لي أن (ليت شعري) التي أرادها تختلف عن استعمال القدماء وإن شاركتها اللفظ، وعند ذلك أدركت أني وقعت في مصيدة المشترك اللفظي، والحق أن ما أشار إليه كان قد عنّ على خاطري؛ ولكني دافعته مأخوذًا بسَورة التصحيح. شرح الشاعر في بداية ديوانه جملة (ليت شعري)، فبين أن الشعراء ربما بلغت بهم الأزمة مبلغًا يقصر الشعر عن وصفها (قالوا بحرقة وألم واستنجاد: ليت شعري. ليته يسعفني لأقول، وليوصل المراد إلى المتلقي كما أريد بكل معناه ومغزاه ومرماه...

ف...ليت شعري، ليت شعري ليته يُجدي ويُثْري

ليته يلقى صداه ليته يُغري فيُسْري[(١)]

نعم قد تتزاحم في النفس المعاني حتى تعجز الآلة عن ترجمتها لفظًا مؤثرًا، ولا عجب أن يستعين الشاعر أو المتحدث بكل جوارحه ليوصل رسالته، ولعل ما يصاب به الإنسان من حُبسة أو لجلجة إنما مردها إحساس تعاظم الفكرة وتخاذل الآلة المترجمة عن تلك الفكرة، فإن بلغ اليأس منه مبلغه قال: ليت شعري وليت نثري، وإن من حق المحْدث أن يُفرغ في اللفظ معنى جديدًا يخدم غرضه، وهو أمر تزخر به اللغة عبر عصورها المختلفة.

---

(١) العيسى، ديوان ليت شعري، ص٨ — ٩.

من أجل التيسير يسرق اليسير

نبهني الأستاذ فهد الخلف المعيد في قسم اللغة العربية وآدابها إلى ما اطلع عليه من سطو على بحثي (أقوال العلماء في صرف أشياء)، وهو بحث نشر في مجلة جامعة الملك سعود-الآداب(١)، الرياض، ٢٠٠١م. مج١٣. وجعلته في موقعي الجامعي ليطلع عليه طلابي ومن يريد الاستفادة منه، وكان لطلابي مراجعات لهذا البحث دعتني إلى تطويره ونشره مرة أخرى في كتابي (دراسات لغوية) الذي نشره كرسي الدكتور عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها، جامعة الملك سعود/الرياض، ٢٠١٢م.

واليوم ١٨يونيو ٢٠١٤م نطالع موضوعًا بعنوان (من أجل التيسير في اللغة العربية – ما نختلف حوله نجيز فيه الوجهين) بتوقيع أ. دوان موسى الزبيدي، نشرته صحيفة (صاحبة الجلالة اللغة العربية) التي يرعاها المجلس الدولي للغة العربية، ولا أشك أن القائمين على الصحيفة لا يعلمون من قريب أو بعيد أن الأستاذ دوان سطا على جهد غيره لما أراد أن يدون ما ينسب إليه في هذه الصحيفة، وإن غضضنا الطرف عن الخطأ في مضمون العنوان فإنه لا يجوز أن نغض الطرف عن المحتوى المسلوخ جملة وتفصيلا من عمل آخر، ولعل الشيطان أنسى الأستاذ دوان أن يدون اسمي هنا أو هناك، وما كان يضيره أن يشير إلى العمل، وأن يناقشه ويورد طائفة مما ورد فيه معزوًّا إلى مكانه؛ ولكنه الاستعجال والإهمال، والجزم بأن أحدًا لن يصل إلى العمل الأساسيّ إن كان صاحبه نكرة في تقدير الساطي، وأن وعاء النشر الذي ضم العمل الأصلي ليس منتشرًا أو متاحًا لكل أحد.

ومن اليسير لمن يريد الاطلاع على حقيقة الأمر أن يرجع إلى خاتمة بحثي (أقوال العلماء في صرف أشياء) ليجد أن الأستاذ دوان ليس له من مقاله سوى العنوان، وأن الذي له من مقاله سطران. وأما بقية المكتوب فهو بنصة كلمة كلمة من بحثي كما يظهر في كتاب (دراسات لغوية) في الصفحات ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨.

وإذا رجعت إلى الشبكة العنكبية تبحث عن هذا الأستاذ تجد أنه واسع النشاط كثير الإنتاج، نشرت له الصحيفة المذكورة عددًا من الموضوعات، وهو يصف نفسه بالمدقق اللغوي؛ ولكن المرء لا يطمئن إلى تدقيقه ولا إلى إنتاجه، فعلى الباحثين الحذر منه والتأكد من الأعمال التي يصدّر عليها اسمه، وعلى أوعية النشر أن تنتبه إلى هذا ومثله فلا تتيح أن ينشر له إلا ما ثبت أنه له. ومن موضوعاته التي نشرت في الصحيفة المذكورة آنفًا (ما يؤرقنا – تخطئة ما هو صحيح) وهذا رابط الموضوع:

http://www.arabiclanguageic.org/view_page.php?id=1794

نجده أغار فيه على شيء مما جاء في كتاب أرشيف أهل الحديث المنشور في المكتبة الشاملة، فانظر ما جاء عن (نقّز، روقني) فيها، ومحركات البحث كفيلة ببيان الموضع أيضًا.

مهرجان جُواثى الرابع

عاملان يؤثران في نجاح أي ملتقى ثقافيّ: مستوى التنظيم الإداري ومستوى الأعمال البحثية المقدمة مدى وفائها بالمحاور المقررة لموضوع اللقاء، وأما المستوى الأول فقد كان موفقًا كل التوفيق؛ إذ تظافرت جهود المسؤولين عن التنظيم في سبيل إنجاح المهرجان ابتداءًا بحسن الاستقبال وتسهيل مهمة المشاركين وتلبية ما يحتاجون إليه، وأما الأعمال البحثية فقد اتصفت بالرصانة والإبداع وتلبية مقتضيات محاور موضوع المهرجان وهو "العربية في أدب الجزيرة والخليج العربي الواقع والمأمول قراءة في لغة الإبداع الادبي"، وأفسح المهرجان بهذا الموضوع مجالًا للغويين ليبدوا رأيهم بلغة الأدب الإبداعي التي كانت مجالًا للتخفف من قيودهم، وكان النحويون منذ عهد مبكّر يتتبعون مخالفات الشعراء وإن اعتذروا لهم بما سميّ بالضرورات الشعرية، وكان عبدالله بن أبي إسحاق من أشهر من تتبع الشعراء وبخاصة الفرزدق حتى أجاءه إلى هجائه ببيت لم يسلم من نقد الحضرمي أيضًا، وليس من هدف اللغويين القدماء أو المحدثين الزراية أو عيب لغة الأدب ولكنها غيرة مزدوجة، فهي غيرة على اللغة من ناحية، وغيرة على جماليات الأدب أن يشوبها اللحن أو استعمال ما لا يحقق غرض المبدع لجهله بالاستعمال الصحيح.

وأما "(جُواثى) بضم أوله وبالثاء المثلثة، [فهي] مدينة بالبحرين [محافظة الأحساء الآن] لعبدالقيس، قال امرؤ القيس:

ورُحنا كأنّا من جُواثى عشيةً   نُعالي النعاجَ بين عَدلٍ ومُشْنَقِ

يريد كأنّا من تجار جواثى لكثرة ما معهم من الصيد، أراد كثرة أمتعة تجار

جواثى، بين عدل أي بين معدول في أعدال، ومشنق أي معلّق. وأول جمعة جمّعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ بجُواثى من البحرين [٦٢٨م]، نقله البخاري. وكان الصدّيق رضي الله عنه بعث العلاء بن الحضرمي واليًا على البحرين، فسار حتى نزل حصن جُواثى فسار إليه من ارتد من أهل البحرين فحصروه ومن معه بجُواثى، فقال بعضهم:

ألا أبلـغ أبـا بكـر رسـولا   وسـكان المدينـة أجمعينـا

فهـل لكـم إلى نفـر يسـير   مقـيم في جُـواثى محصـرينا

توكلنـا علـى الـرحمن إنّـا   وجـدنا النصـر للمتوكلينـا

ثم إنّ المسلمين بَيَّتوهم ووضعوا فيهم السلاح، فلم يفلت من المرتدة أحد، وغنم المسلمون خيولهم ومتاعهم، وبعث بمال كثير إلى المدينة، ثم سار العلاء بن الحضرمي إلى الخط.

وحدّث الأصمعي قال: كان قوم من أهل البحرين من جُواثى يتواصلون على العلم والأدب، فغاب رجل منهم إلى أكناف العراق فأقام بها برهة ثم عاد فوجد قريبين له قد ماتا فضرب على قبريهما فسطاطًا وأقام حولًا بينهما فلما انقضى الحول قوض فسطاطه ثم قال [قصيدة جاء فيها]:

ألم تعلما ما لي براوند كلها   ولا بجواثى من حبيب سواكما"[١]

فالعلم والأدب في جُواثى قديم، والخير فيها عميم، وقاطنها كريم تجلى هذا الكرم في تسابق أهالي الأحساء إلى الحفاوة البالغة بضيوف المؤتمر والتسابق إلى

---

(١) الروض المعطار في خبر الأقطار لمحمد بن عبد المنعم الحِميري ص١٨١.

إضافتهم، وهذه عادة أهلنا في مناطقنا المختلفة، وجدته من قبل في أماكن أتيح لي زيارتها منها: الباحة، والزلفي والدوادمي، وبريدة، والمذنب، وعنيزة.

ندوة المنهجية عود على بدء

تتطلع الأوساط العلمية إلى أن تشهد فعاليات الندوة الدولية (قضايا المنهج في الدراسات اللغوية والأدبية: النظرية والتطبيق) التي ينظمها قسم اللغة العربية في كلية الآداب أمّ كليات جامعة الملك سعود، في الفترة في ٢١ من ربيع الأول عام ١٤٣١هـ الموافق ٧ من مارس عام ٢٠١٠م إلى ٢٥من ربيع الأول عام ١٤٣١هـ الموافق ١١ من مارس عام ٢٠١٠م.

وليس هذا التوجه من قسم اللغة العربية وكلية الآداب بجديد فقد كان الدكتور حمزة بن قبلان المزيني الأستاذ في قسم اللغة العربية هو رئيس اللجنة المنظمة للحلقة العلمية للمنهجية في العلوم الإنسانية في كلية الآداب لعدة سنوات امتدت من ١٤١١هـ إلى ١٤١٥هـ.

وأما هذه الندوة الدولية فهي ثمرة اقتراح من الزميلات في القسم النسائي؛ ولذلك شكلت لجنة علمية مشتركة بين أعضاء القسم رجالًا ونساءًا، ورشحت الأستاذة الدكتورة نورة الشملان لترأس الندوة ولجانها العلمية والتنفيذية. واستطاعت هذه اللجنة أن تستقطب للمشاركة في أعمال الندوة من خيرة العلماء والباحثين المتخصصين في اللغة والأدب ونقده والبلاغة العربية، واستطاعت أن تختار من عدد هائل من الأعمال التي قدمت ملخصاتها أجودها وأحراها بالتقديم.

وتأتي الندوة مواكبة لما تشهده جامعة الملك سعود من نقلة نرجو أن تكون نوعية كيفية لا كمية فقط، وهي تأتي في وقت تمر لغتنا وآدابها بمحنة عظيمة في ظل عصر العولمة وتفجر المعلومات وغلبة اللغات الأخرى على بيئتها ومزاحمتها في

عقر دارها وخطف فرص التعبير منها؛ إذ صارت اللغة الأجنبية لغة العلم ولغة العمل والإدارة، ثمّ لم تعد العربية تشكل هاجسًا لأهلها، وكثرت الجراءة عليها، فما عدت ترى متحدثها إن هو تحدث بها يحس خطأه حين يخطئ، ولا هو يأبه إن أحس، وإن من الدواهي أن تجد المبدعين والمبتدعين تكاثروا لما خفّت عليهم المؤونة، ورفعت الكلفة، فما هي سوى صحف بيضاء يسودها كيف يشاء، وليس مهمًا بعدُ أصحيحة جاءت أم مليئة بالأخطاء.

وتأتي هذه الندوة لتقف وقفة مراجعة لمناهج العلوم اللغوية ومناهج الدرس الأدبي ونقده بعد أن تعددت الطرائق وتشعبت الطرق وتعددت المسالك وتحير الناس بين طارف مستورد وتليد ما عاد يجدي الوقوف عند حدوده والانزواء في حجَراته.

وإني لأرجو أن يمتد التفكير إلى مراجعة لمنهج كل ما يمس حياة الإنسان العربي اجتماعًا وأمنًا واقتصادًا وسياسة، ومن غير منهجية صحيحة يكون الفشل والضياع الذي أرانا نحصد ثماره اليوم.

هل أساء الدكتور المهيري التعبير

أتيح لي أن أداخل بعد كلمة الأستاذ الدكتور عبدالقادر المهيري في اللقاء المفتوح عن جهوده البحثية، وهو لقاء دعا إليه ونظمه مركز الملك عبدالله لخدمة اللغة العربية يوم الثلاثاء ٢/٤/ ١٤٣٤هـ، واستضافته مشكورة كلية اللغة العربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وكان هدفي دعوته إلى مزيد من تعميق موقفه من تحديد مفهوم الجملة الاسمية، وهو موقف بدأه في العدد الخامس من حوليات الجامعة التونسية(١٩٦٠م) سماه "مساهمة في تحديد مفهوم الجملة الاسمية"، عرض فيه لرأي الدكتور مهدي المخزومي رحمه الله الذي يخالف فيه رأي النحويين القائلين بأن الجملة الاسمية ما صدرت باسم مرفوع، والفعلية ما صدرت بفعل، والقارئ لتلك المساهمة لا يحس رفض المهيري قول المخزومي؛ ولكنه ينبه إلى ما يثيره من مشكلات تعاند النحو التقليدي، وكأنه يدعو إلى تلك المعالجة، ثم عاد الدكتور المهيري إلى المسألة فزادها تعميقًا وبسطًا في كتابه (نظرات في التراث اللغوي،ط١، دار الغرب الإسلامي/بيروت، ١٩٩٣م) بعنوان "قضية الجملة الاسمية"، وبعد عرضه لقول المخزومي ركز على مشكلة التصنيف النحوي للجملة فقال "ذلك شأن الجملة المستهلة باسم متبوع بفعل مثل (الولد نام)، ومن أغرب ما يلاحظ أنه بمجرّد تأخير الاسم يصبح التركيب الحاصل من قبيل الجملة الفعلية في نظر النحاة"(ص٤٤). ثم وقف عند جملتين بدأتا باسم مرفوع هو مبتدأ عند النحويين، ولكنْ بين الاسمين اختلاف من حيث المعنى الوظيفي، والجملتان هما (الزائرُ حبيبه/ الزائرُ حملت حقيبته)، وهو يرى أن الاسم المرفوع له علاقة معنوية

بما بعده "إلا أن هذه العلاقة المعنوية لم تخضع للأحكام المتفق عليها؛ أي النصب بالنسبة إلى المفعول، والجر بالنسبة إلى المضاف إليه، فاتفاق الاسمين المبدوء بهما من حيث الإعراب يبرر غض النظر عمّا لكل منهما بما بعده من علاقة معنوية ويقتضي اعتبار كليهما مبتدأ" (ص ٤٧)، ونرى المهيري لا يوافق النحويين بمذهبهم الذي يهدر هذه العلاقة المعنوية، فيقول "ولا يمكن للدارس في العصر الحديث أن يسلم بهذه النظرة، وأن يقتفي أثر النحاة في تخريجاتهم المنطقية، والأسباب الداعية إلى ذلك عديدة؛ فمنها أنها تقتضي غض النظر عن نوع العناصر المكونة للجملة الفعلية؛ فالفعل لم يحسب له حساب وكأن وجوده لا يكسب الكلام صبغة خاصة ولا يمحضه لأداء معان لا تتسنى تأديتها بدونه"(ص٤٧). ويزيد المهيري الكشف عن اللبس الذي تهبه النظرة النحوية إلى عدّ الجمل المبدوءة باسم مرفوع بعده فعل من قبيل الجمل الاسمية، قال "ثم إن اعتبار هذا النوع من الجمل جملًا اسمية رهين إعراب صدرها في غالب الأحيان، فهي تعتبر فعلية بمجرّد تغير حركة هذا الصدر من الرفع إلى النصب، فجملة مثل: ﴿وأما ثمود فهديناهم﴾ تعتبر اسمية إذا قرئت ثمود بالرفع، فعلية إذا قرئت بالنصب، والقراءتان موجودتان. وهكذا فالتمييز بين الصنفين ليس رهين الجانب الشكلي فحسب بل هو مدعاة إلى الالتباس إذ الجملة الواحدة يمكن إرجاعها إلى هذا الصنف أو ذاك بدون أن يطرأ عليها ما يُغيّر طبيعتها اللغوية"(ص٤٧-٤٨). وبعد تفصيل لجملة من الأمور الداعية إلى تجاوز التصنيف النحوي للجملتين ينتهي إلى تقرير موقفه أو ما يفهم القارئ أنه موقفه، قال "وهكذا يتضح أن اعتبار الجملة المبدوءة باسم أردف بفعل اسمية اعتبار لا تؤيده المعطيات الملموسة ولا يبرره الواقع اللغوي وليست له أية مزية منهجية سوى

أنه يدعو إلى التشبث بالشكليات من ناحية أولى، ويتسبب في الالتباس من ناحية ثانية ويجر التعقيد من ناحية ثالثة، ويكفي دليلًا على أن هذه الطريقة في التمييز بين صنفي الجملة غير مقنعة أنها لا تمد الدارس بمقياس مضبوط يجنب الخلط بين هذين الصنفين. النتيجة من كل هذا أن الفصل بين الجملة الاسمية والفعلية ينبغي أن يقع على أساس آخر وهو نوع العناصر الأصلية المكونة لكل واحدة منهما، فلا تعتبر الجملة اسمية إلا إذا خلت من الفعل، وتوضع في صنف الجمل الفعلية كل جملة تضمنت فعلًا بغض النظر عن مرتبته"(ص٤٨). وهذا القول يثير مشكلات تعاند أصول قررها النحو التقليدي، ومن أجل ذلك حاول تقديم حل لها، قال "هذه المشاكل يمكن حلها في نظرنا إذا تخلينا عن مبدأين من المبادئ الملتزمة عند النحاة: المبدأ الأول هو اعتبار علامات الإعراب مرتبطة بالدور الذي تقوم به الكلمة في أداء المعنى، فالفاعلية حكمها الرفع والمفعولية حكمها النصب والإضافة حكمها الجر. إن التزام هذا لا يؤيده الواقع اللغوي فنوع إعراب الكلمة ليس في غالب الأحيان سوى نتيجة لمرتبتها في التركيب أو لورودها إثر بعض الأدوات"(ص٤٩). وختم المهيري بحثه بجدول أعرب فيه جملًا مختلفة تبدأ باسم، منها (الزائرُ أخذتُ حقيبته) فأعرب الزائر بأنه "مضاف إليه بدئ به مرفوع"(ص٥١)، وكان سؤالي له كيف نفسر الرفع وكيف نفسر النصب وهو احتمال ذكره سيبويه في مثل هذا النمط وهو مشهور في باب الاشتغال[١]؛ إذ يمكن القول (الزائرَ أخذتُ حقيبته)، ولست أدري إن كان الأستاذ فهم سؤالي؛

---

(١) سيبويه، الكتاب،١: ٨٣.

ولكن جوابه كان في غاية الغرابة؛ إذ أجاب بشرح علة تفصيله وبسطه المسألة، وهي أنه أراد بيان ما يثيره قول مهدي المخزومي، وختم بقوله إنّ ذلك لا يعني موافقته عليه، وأنه إنْ فُهِم سوى ذلك فلأنه ربما أساء التعبير عنه. ولست أرى الأستاذ المهيري قد أساء التعبير بحال؛ فقوله في دراسته لا جمجمة فيه، ولكنّ جوابه في اللقاء جواب أحسن ما يقال فيه إنه جواب مجلسيّ لا أظنه يلائم ما جاء في الدراسة إلا أن يكون قد رجع عن ما قرره فيها، فلعله إن شاء أن يصرح بذلك تصريحًا لا مدخل لسوء التعبير فيه.

هل الإنسان غبي؟

المقصود بالإنسان في هذا السؤال جنسه أمام الأجناس الأخرى، وتستعمل (ال) لتعريف الجنس، وهو تعريف لا يبعد المعرَّف كثيرًا عن التنكير؛ لأنه يدل على الشياع والعموم، وقد يكون المقصود بتعريف الجنس هذا الدلالة على ماهية المعرَّف، ومن هنا لا يكون المعنى (هل كل إنسان غبي؟) بل المقصود هل الإنسان بعامة غبي، بما هو ماهية تختلف عن غيرها، وبهذا الاستعمال الدال على الماهية جاءت بعض الآيات في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَة مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر-٤٩] جاء في (تفسير الجلالين): "(فإذا مس الإنسان) الجنس (ضر دعانا ثم إذا خولناه) أعطيناه (نعمة) إنعامًا (منّا قال إنما أوتيته على علم) من الله بأني له أهل (بل هي) القولة (فتنة) بلية يبتلى بها العبد (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أنّ التخويل استدراج وامتحان". فهذا السلوك ليس مستغرقًا لجميع أفراد هذا الجنس؛ إذ ليس كل إنسان يسلك ذلك السلوك. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ﴾ [فصلت-٥١]، جاء في (تفسير الجلالين): "(وإذا أنعمنا على الإنسان) الجنس (أعرض) عن الشكر (ونأى بجانبه) ثنى عِطفه متبخترًا ... (وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) كثير". ومن ذلك قوله تعالى:﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد-٤]. فالمراد جنس الإنسان. وقد يدل تعريف الجنس على استغراق الأفراد كما في قوله تعالى:

﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[القيامة-١٣]، وقوله تعالى:﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى﴾[النازعات-٣٥]، فالمقصود هنا كل إنسان أي كلّ فرد.

فكيف يكون جواب سؤال المداخلة؟ يكون بنعم إن أردنا بالإنسان ماهيته وعموم جنسه من غير التفات إلى أفراد لا يشملهم الوصف بالغباء، ويكون بلا إن أردنا استغراق الجنس؛ إذ ليس كل إنسان غبيًّا. وأما الذي يدعونا إلى وصف هذا الجنس من الكائنات التي تعيش على الأرض بالغباء فهو ما آلت إليه حياته من شقاء؛ إذ على الرغم من سيطرته المطلقة على مقدرات البيئة ومواردها وعلى الرغم من معارفه المتزايدة وعلى الرغم من تقدمه المدني والعمراني على الرغم من ذلك كله نجده بائسًا يعيش فريسة للطمع والجشع والأمراض النفسية، سخر كثيرًا من موارده لصناعة السلاح الذي يقتل به نفسه بعد أن كان يصيد به غذاءه، يتطاحن البشر على موارد المياه على الرغم من أن الماء أكثر من اليابسة، يتعارك البشر ليجبر بعضهم بعضًا على الاعتقاد بمعتقداتهم الخاصة التي يرونها صحيحة ويرون غيرها الضلال، قتلوا الرسل والعلماء والمصلحين، لم يفلح البشر بالوصول إلى إدارة كونية تستثمر الطاقات البشرية والإمكانات المادية الموزعة في العالم توزيعًا عشوائيًّا. بل الإنسان جنى على البيئات الطبيعية فأهلك أحياءها وأخل بما فيها من توازن بين تلك الأحياء، وما زال الإنسان عاجزًا عن حلّ مشكلات يسيرة، فما زالت الأمية ضاربة بأطنابها، وما زالت الخرافات والأوهام معششة في أذهان الناس، لا ترى بارقة أمل في تصحيحها، مازال الإنسان عاجزًا عن تحقيق السلام العادل بين مجتمعاته، مازال الاسترقاق وإن تغيرت صوره هو سمة منظومة العلاقة

بين العامة والخاصة، أليست الحكمة في أن يُسخّر الإنسان علمه وموارده لمكافحة ثالوث الفقر والجهل والمرض، نعم إنّ الإنسان يبذل جهودًا في هذا الاتجاه؛ ولكن جهوده في عوامل الفناء أقوى وأخطر، حتى صح لنا أن نسأل: هل الإنسان غبي؟

هل يعذر المحدَثون

صادف الأستاذ عمر الخميس الإعلان (إطار لصورتان) فرآه منكرًا يجب أن ينبه إليه، فصوّره ونشره في برنامج الواجهة (facebook) وعلق عليه، والأستاذ عمر معيد في قسم اللغة الإنجليزية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وهو حاسوبي بارع أيضًا؛ ولكنّ غيرته على العربية شديدة، وأما أخوه الشيخ إبراهيم فأستاذ في الحديث والعلوم الشرعية، مطلع على العلوم العربية، وهو من الدعاة المتميزين، فكان أن حاور الشيخ أخاه معتمدًا على معرفته بالتراث، في شيء من التفسير لهذا الاستعمال المخالف، فذكر أن هذا يوافق استعمالا قديمًا تردد في كتب النحو، وذلك أن من لغات العرب استعمال المثنى كالاسم المقصور الذي لا يتغير آخره في المواقع الإعرابية كالاسم (فتى) و(عصا)، يقولون: جاء فتًى، ورأيت فتًى، ومررت بفتًى، وذكر الشاهد المشهور:

إنَّ أباها وَأَبا أباها   قد بلغا في المجدِ غايتاها

ولو تابع الشاعر اللغة المشتركة المشهورة لقال (غايتيها). وكان يمكن أن ينتهي الأمر عند هذا بين الأخوين؛ ولكن الأستاذ عمر لم يفته أنّ المخالفةَ لنزوع إلى لغة غيرُ المخالفة لجهل باللغة؛ إذ كتب في الجواب على بيان الشيخ قوله: "لكنهم إيكيا".

نعم إنها شركة إيكيا، وليست شاعرًا نزع إلى لغة قومه فعذر لذلك، وهذا الذي أثاره الأخوان الرائعان منبهة إلى أن المحدثين لا يعذرون إن هم وقعوا في مخالفة ما استقر عليه الاستعمال وإن وافق لغة قديمة؛ لأن المحدَث يخالف إما لجهله بجهة

الصواب؛ لأن العربية الفصيحة ليست لغته المستعملة استعمالا طبيعيًّا، وإما لتوهمه، وهو ما قد يقع في الكتابة على نحو ما وقع لي حين كتبت عن كتاب ندوة قضايا المنهج فأخطأت، ولذلك جاء الاعتذار الآتي: "وقع في عدد أمس من نشرة الندوة خطأ هو قول الشمسان في (رحلة كتاب الندوة): "ورأيت أنَّ هذا حسنًا"، وهو يعتذر منه؛ لأنَّ رفع خبر (إنّ) هو المشهور المتداول، ولكن جاء في مغني اللبيب لابن هشام قوله: "وقد تنصبهما في لغة، كقوله:

إذا اسودّ جُنْحُ اللّيلِ فلتأتِ ولْتكُنْ***خُطاكَ خِفافًا إنَّ حرّاسَنَا أُسْدا

وفي الحديث (إنّ قعرَ جهنمَ سبعين خريفًا) وقد خُرّج البيت ... والحديث"[1].

وذكر محقق المغني أن البيت لعمر بن أبي ربيعة، وأما الحديث فليس من قول الرسول ﷺ بل هو من قول أبي هريرة؛ ولعل هذا الذي ذكره المحقق وراء قول من ذهب إلى أنّ هذا الحديث لا يحتج به. ولكن كيف يحتج بقول الشاعر ويترك قول الناثر وهو صاحب رسول الله، وإن يكن نصب الركنين لغة كما ذكر ابن هشام فما تخريج البيت أو ردّ قول أبي هريرة.

---

(١) ابن هشام، مغني اللبيب، ١: ٢٢٧.

وا تحقيقاه

هل يحق للأستاذ الأديب سليمان أحمد أبوستة محقق كتاب العروض للزجاج أن يقول: وا تحقيقاه. كتب الأستاذ إلي رسالة نشرت على منتدى الفصيح ولم أرها في حينها لانقطاعي عن المنتدى فترة، وهذا رابطها:

http://www.alfaseeh.com/vb/showthread.php?59772 -

ويسأل فيها بهذا السؤال:

"هل من الممكن سرقة كتاب محقق، بالتواطؤ مع المؤسسة الجامعية؟كتاب العروض للزجاج أنموذجا!"

وقبل أن أبين الباعث على السؤال أبادر إلى استبعاد مثل هذا، فالمؤسسة الجامعية أو غيرها قد تخدع، وكثيرًا ما يحدث ذلك، نسمع عن الأطباء المزورين والممرضين وغيرهم من المهن التي نجح أصحابها في خداع المؤسسات، وكذلك يحدث في التخصصات النظرية، وأما الذي أجاء الأستاذ إلى السؤال فهو أنه اطلع على موقع الدكتورة مضاوي بنت صالح بن حمد الحميده:

http://www.dr-madhawi.com/articles.php?action=show&id=3

فوجد أنّ من أعمالها البحثية "(كتاب العروض) للزجاج، دراسة وتحقيق، مجلة مركز الخدمة للاستشارات البحثية، جامعة المنوفية، مارس ٢٠٠٩ م".

حاول العثور على هذا التحقيق ليرى إن كانت المحققة وصلت إلى شيء لم يصل إليه، وتبين أنها حسب قوله طلبت طباعة خمسين نسخة لها فقط أخذتها كلها، وربما يفهم من كلامه أنّ الدكتورة سطت على عمله ونشرته. وقد أراد مني تقصي الحقيقة والكتابة عن هذا الأمر. ويعلم الأستاذ الفاضل أن مثل هذا غير

ممكن ما لم أطلع على عملها، وهي الوحيدة القادرة على بيان الفرق بين عملها وعملك وبخاصة أنّه تحقيق ودراسة، فقد تختلف دراستها على الأقل عن دراستك وإن ضاق مجال الاختلاف في التحقيق نفسه.

وتكرار التحقيق وارد وهو كثير وقد يكون المتأخر دون المتقدم في مستوى عمله، والكتب التي تعاورها المحققون كثيرة جدًّا، فكتاب القراءات للأزهري حقق غير مرة، وكتاب نتائج الفكر للسهيلي حقق غير مرة، وكتاب همع الهوامع للسيوطي كذلك.

وكما يقع التكرار في التحقيق يقع في الترجمة؛ إذ الكتاب ربما ترجم غير مرة، وقد يكون المتأخر معذورًا كما فعل مترجم كتاب اللهجات لرايبن، وقد لا يعذره الناس كما فعلوا حين أعاد رمضان عبدالتواب نشر العربية ليوهان فك.

وتكرار الترجمة كثير كما أن تكرار التحقيق كثير. وربما لا يقتضي الأمر إعادة تحقيق أو أعادة ترجمة؛ إذ ربما تكون جملة الخلافات يسيرة يغني التنبيه إليها من غير حاجة إلى إعادة العمل كله كاملًا، وتكون الطامة الكبرى حين يتصدى للتحقيق من هو غير مؤهل لذلك، وإنما دعاه وجدانه بعض النسخ الأخرى التي قد لا تضيف جديدًا أن يعمد إلى التحقيق الذي صار مطية لنيل الشهادات ودرجات الترقية، وحسب المحقق ذلك من غير التفات على ما سواه من خدمة العلم والعربية وأهلها، وإنّا لنجد من سوء الضبط وجهل القراءة وقلة معرفة التراث ما يجعلنا نأسف على ما أضيع من ورق، وربما عدنا إلى نسخ للكتاب قديمة لم تنلها يد التحقيق لكن نالتها يد صناع تحسن القراءة والطباعة كما هو الحال في مطبوعات بولاق.

وإني لأرجو أن تتفضل الدكتورة مضاوي بنشر عملها كاملًا على الشبكة العنكبية، كما أن عمل الأستاذ سليمان أبوستة منشور في مواقع كثيرة فهو كتاب إليكتروني متداول، لعلنا بهذا نتبين وجه الحقيقة.

وا دكتوراه

توجع وتفجع على الشهادة العلمية صاحبها نحيف الأمانة. وإنما الأمانة العلمية ركن من أركان البحث العلمي، وإن من يضع نفسه موضع الشبهة يشكك في أمر شهادته، وهو يسيء وإن من غير قصد إلى من شهد له بذلك، والأمثلة كثيرة على السطو الجائر على جهود الآخرين، ومن أحدث ما اطلعت عليه ما فعله الدكتور* عادل عامر الذي سطا على مقال كان نشره الأستاذ عبدالمجيد محمد الغيلي، وعبدالمجيد من أبناء اليمن الأعزاء، يواصل دراساته العليا في قسم اللغة العربية في كلية الآداب، جامعة الملك سعود، وكان تفاجأ بهذا السطو، وهاله أمره، فكتب إليّ من حيرته ما نصه:

"السلام عليكم

كيف أحوالكم يا دكتور

أتمنى أن تكونوا بصحة وعافية....

أحببت أن أستشيركم في هذه السرقة الفكرية التي أنا ضحيتها، إن أمكن أن ترشدوني إلى فعل الأنسب، ولكم جزيل الشكر مقدما.

***

يعود الفضل للسيد قوقل في كشف لصوص الأفكار الذين يعمدون إلى موائد قد تعب أناس في صنعها، فيختلسونها في وضح النهار، ويتباهون أنها لهم!!

مقالي الذي نشرته في موقع الإسلام اليوم بتاريخ ٦/إبريل ٢٠١٠م، على هذا الرابط:

(http://islamtoday.net/bohooth/artshow-34-130588.htm)

لم ينل راحته كثيرا، تلك الراحة التي يحظى بها حين ينتسب إلى أبيه الحقيقي، حتى سطا عليه ساط من سطاة الإنترنت، المتثاقفين من ظهر الشيخ قوقل، فقام بتغيير عنوان الموضوع، وأضاف له مقدمة (فقرتين فقط)، ثم نقل الموضوع كما هو، بألفاظه وفواصله، وأخيرا جاء ببعض الهوامش!!!

ومنتدى قانوني أيضا؟!

تجدونه على هذا الرابط:

(http://www.adel-amer.com/vb/showthread.php?t=8366).

عبد المجيد محمد الغيلي

جامعة الملك سعود، كلية الآداب"

الجريمة التي اقترفها رجل نحيف الأمانة وقعت في (منتدى دار العلوم القانونية والإسلامية والإنسانية)، وهو فعل يعاند كل ذلك، يعاند القانون والإسلام والإنسانية. وما شئت غير ذلك (إذا لم تستح فاصنع ما شئت). نصحت ابننا عبدالمجيد أن يكتب إلى موقع (نادي لصوص الكلمة)[١]، لعلهم يضيفونه إلى غيره من الأدعياء.

وإن تكن السرقات الورقية قد يتأخر كشفها فإن السرقات العنكبية سريع كشفها. وإن التورط في أتونها دليل غباء مرتكبها. والمؤسف أنه ما من سبيل إلى إنصاف من سلب حقه. ولكن يكفي أن يطلع القارئ ليعلم من هو على حق ومن هو في ضلال مبين.

(١) رابط النادي http://bader59.com/main.htm

وقفات مع الشيخ اللحيدان حول (نعم وبئس)

للشيخ صالح اللحيدان قرّاء كثيرون يثقون بما يكتبه ثقة منهم بأنه يركن إلى التراث الموثق وأنه لا ينطلق من معرفته الخاصة.

ولما كان الإنسان معرضًا للنسيان والسهو والوهم كان عليه أن يراجع ما يكتب، وهي مسألة نبّه إليها الأستاذ الفاضل فيصل المنصور في تعقيبه على الشيخ.

وسأذكر الآن بعض ما أتوقف فيه من قول الشيخ المنشور في العدد ٢٧٦ من المجلة الثقافية الصادرة في الخميس الموافق ٢٩ ربيع الأول ١٤٣٠هـ.

قوله:

أولًا: أن نعم وبئس فعلان خلافًا لمن قال غير ذلك، وكونهما فعلين إنما جاء ذلك بسبب دخول: تاء التأنيث، ولو لم يجز ذلك لما صارتا فعلين، وهذا يبيّنه المثال فيقال: (نعمت الأخلاق الفاضلة). ويقال: (بئست العادة الكبر).

أقول: إن تاء التأنيث علامة يستدل بها على فعلية الفعل وليست علة أو سببًا لفعليته، وإنما السبب في فعليته دلالته على حدث مقترن بزمن، والتاء علامة خاصة بالأفعال، ومن أجل ذلك مثل ابن عقيل، بذكاء، لاتصالها بالأفعال بالفعلين (نعمت وبئست) تاركًا كل الأفعال، ولم يشر ابن عقيل لعلة اختياره الفعلين؛ ولكن العلة ظاهرة؛ فهو يريد أن يقطع على الخصم حجته؛ فلا يزعم أن التاء قد تتصل باسم ثم يمثل بالفعلين؛ لأن الكوفيين يذهبون إلى اسميتهما.

وقال الشيخ:

ثانيًا: من زعم أنهما ليسا فعلين فحسب فهمي أن لا وجه لهذا إلا القول

إنهما فعلان جامدان، وهذا لا يمنع ذاك بوجه.

أقول: هذا وهم من الشيخ؛ فالكوفيون ذهبوا إلى اسميتهما مستدلين بدخول حرف الجر عليهما، وذهب الكسائي وأكثر الكوفيين إلى أنهما اسمان، واستدلوا بدخول حرف الجر في نحو قوله: (ما هي بنعم الولد)، و(نعم السير على بئس العير)[١]، وثم أفعال جامدة غيرهما لم يقل الكوفيون باسميتها.

قال الشيخ:

قال أحدهم: (نعم الكاتبة (....) فهي من الطراز الأول..) وهذه سقطة كبيرة، ولا سيما أنها من (ناقد) يُحتفى به، والأصل: (نعمت).... وورد في شعر أحدهم:

(وبئس الناثرات على وهادِ ....)

ولا يقال ضرورة شعرية؛ لأنه لا مكان لهذا هنا (وصاحبكم - بحمد الله - شاعر مقل)، وماذا عليه لو قال: (وبئست ناثرات......)؟

أقول:إنّ ما أنكره الشيخ غير منكر بل صحيح حسب استعمال العرب والشعراء، وحسب ما قرره سيبويه وغيره. قال الأخطل:

نِعِمَ الخُؤولَةُ مِن كَلبٍ خُؤولَتُهُ   وَنِعمَ ما وَلَدَ الأَقوامُ إِذ وَلَدوا

وقال عبدالله بن همام السلولي:

نعم حاجةٌ كلفتها القيظَ كلَّه   أُراوحها البَرَدَينِ حتى شتيتُها

---

(١) الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بتحقيق جودة مبروك، ص٨٦. أما الفراء فعلى فعليتهما كما في معاني القرآن، ١: ٢٦٧- ٢٦٨.

وأما سيبويه فقال: "واعلم أن (نعم) تؤنث وتذكر وذلك قولك نعمت المرأة وإن شئت قلت نعم المرأة كما قالوا ذهب المرأة والحذف في نعمت أكثر"[١].

قال الشيخ:

"لتستقيم المعاني ويكون أجود لمفردات لغة البيت فإنه كلما قلّ اللفظ قوي المعنى وبز غيره".

وأقول: إن الشيخ وهم في استعماله الفعل (بزّ) بالزاي إن لم يكن خطأ طابع، والصواب (بذّ) بالذال. جاء في معجم العين: (تقول العربُ بَذَّ يَبُذُّ بَذًّا إذا خَرَجَ شيءٌ على الآخر في حُسْن أو عَمَل كائنًا ما كانَ). وأما البَزُّ فقال عنه: (والبَزُّ: السَّلْبُ، يقال: غَزَوْته فبززته. ويقال: من عَزَّ بَزَّ؛ أي من غَلَبَ سَلَبَ).

قال الشيخ:

"ثالثًا: أن يكون فاعل نعم وبئس ضميرًا مستترًا يتعذّر ظهوره".

وأقول: ليس في تصنيف النحويين ضمير يتعذر ظهوره، بل الضمير إما ضمير بارز وإما ضمير مستتر، والضمير المستتر إما واجب الاستتار وإما جائز الاستتار، وليس المقصود بجائز الاستتار أنه يمكن إبرازه بل المقصود أن موضعه يمكن أن يأتي فيه الاسم الظاهر، نحو: (محمد جاء) فالضمير في الفعل (جاء) ضمير جائز الاستتار؛ لأنه يمكن القول: محمد جاء والده. بخلاف الفعل (أجيء) أو (نجيء) أو (تجيء)، فليس يوضع في مواضع الضمائر فاعل ظاهر ولذا عدّوا الاستتار هنا واجبًا.

---

(١) سيبويه، الكتاب، ٢-١٧٨.

يا ساتر

أستوقفني ما كتبه الصديق الأستاذ الدكتور فالح العجمي في زاويته (رؤية) المنشورة في المجلة الثقافية يوم الخميس ٤ شعبان ١٤٣٤هـ العدد ٤١٠، وكان عنواناها (انثربولوجية الدعاء)، وهو عنوان كبير يصلح أن يكون موضوع كتاب أو بحث طويل، قال الدكتور "فقد سمعت بعض الأدعية منذ نزولي من الطائرة في مطار أبها من مثل: "الله يستر عليكم!"؛ "ربنا يسترك يا ولدي!"؛ "يا رب سترك!".

تساءلت بداخلي: لماذا يركزون في دعائهم على طلب الستر لهم من الرب، ويظنون مكافآت الآخرين في أعلى مراتبها، إذا طلبوا لهم سترًا في الدعاء؟

لم أحظ بإجابات مقنعة من تأملي في القرائن، التي تحيط بظروف نشأة تلك الأدعية، ولم تسعفني خلفياتي في التداولية في معرفة ما يمكن أن يكون قد دعاهم إلى اختيار ذلك النوع من الطلب من الرب. فهو لديه خيرات كثيرة، وأنواع متعددة مما يمكنه أن يرسله إلى من طلبه منه؛ فهو لديه الرحمة والمغفرة والعفو والقوة والعزة، وصفات أخرى كثيرة يمكنه أن يمنح منها شيئًا يسيرًا لعباده الطالبين منه بالدعاء."

إنّ الأمر أوضح من أن تعجز التداولية عن حله، وهي التي تعنى بلفظ المتكلم الذي يتجاوز به حرفيته، فالدعاء بالستر ليس يراد به ظاهر اللفظ، إذ الستر مطلب اجتماعي، وربما كان من أهم موجهات السلوك الاجتماعي، فقد يستدين الفقير ليقوم بواجب الضيافة طلبًا للستر، وبالستر عُبر عن الكفاف الذي يدفع عن المرء صفة الفقر التي لا يحب أن يعلم بها أحد، فيقول إن سئل عن حاله "الحال مستورة"

أي حال فقر يستر أمره عن الناس، وطلب الستر من أسباب تزويج البنات مبكرًا، حتى الابتلاء تواصوا بالاستتار معه فقالوا "إذا بليتم فاستتروا"، والمصيبة إذا حلت بالمرء علم أمرها وصارت على كل لسان وهو أمر يتحاماه الناس ويكرهونه؛ ولذلك يطلبون الستر، ومن هنا صار الستر قرين السلامة، وطلب الستر طلب للسلامة من الأذى أو من ألسنة الناس وحديثهم، فالذين دعوا بالستر للقادم بالسفر لا يريدون أكثر من الدعاء بالسلامة، كذلك من يقول وهو يتوقع مخوفًا أو خطرًا (الله يستر) أي الله يسلم ويحفظ، ومن هذا العبارة الانفعالية التي ذكرها الدكتور وهي "يا ساتر!" نطلقها عند الرعب والشدة، أي يا حافظ يا مسلّم.

وأما كثرة سماعها في تلك المنطقة فمرده للوازم المتداولة في تلك البيئة، فالأدعية جزء من نظام التواصل الاجتماعي المعتاد بلوازمه الموروثة، فأنت تسمع من أهل الرياض الأصليين الدعاء (الله يحييك)، وفي حائل (يا بعد حيّ) وفي بيئات أخرى تسمع (الله يعافيك)، (جزاك الله خير).

وقال الدكتور في ختام كلامه "وبعد تأمل طويل توصلت إلى مقارنة تلك العبارة بما لدى البراهيمية من إشارة إلى قول الرب بكلمة "سترا"، فهل هي مما دخل إلى الثقافة الإسلامية من خلال الدعاء الشعبي؟"، وهذا كلام غامض لا يصح أن يكون نتاج تأمل طويل، إذ لم يفصح عن معنى اللفظ، وإنما المعوّل على المعنى، أما التشابه اللفظي فلا يعوّل عليه، وكيف يدخل لفظ للثقافة الإسلامية من خلال الدعاء الشعبي سوى ما هو شعبي أي عربيّ.

والفعل ستر ومشتقاته عربي متداول في البيئات العربية وطلب الستر من الخطر والعيب مطلب من أهم مطالبهم.

خامسًا–من هموم اللغة وتعليمها

بأبأة الطلاب

جاء في لسان العرب "البَأْبَأَةُ قولُ الإنسان لصاحبهِ بِأَبي أَنْتَ، ومعناهُ أَفْدِيكَ بِأَبي، فيُشتقُّ من ذلك فعلٌ فيقال: بَأْبَأَ بِهِ" وقال "وبَأْبَأْتُ الصبيَّ وبَأْبأْتُ به قلتُ له بَأبي ًانتَ وأُمي... وقالوا بَأْبَأَ الصبيَّ أَبوهُ إِذا قال له بَابَا وبَأْبَأَهُ الصبيُّ إِذا قال له بَابَا"، ونجد في اللسان شرحًا لنحت هذا الفعل، قال "فالباء في أَوَّلِ الاسمِ حرفُ جر بمنزلة اللامِ في قولكَ (للّه أنتَ) فإِذا اشتَقَقْتَ منهُ فِعْلًا اشتقاقًا صَوْتِيًا اسْتَحَالَ ذلك التقدير، فقلت: بَأْبَأْتُ به بِئباءً، وقد أَكثرت من البَأْبَاة؛ فالباء الآن في لفظِ الأصل وإِن كان قد عُلم أَنها فيما اشْتُقَّت منهُ زائدةٌ للجَر"، وكذلك يقال "وبَأْبَأَ الفَحْلُ، وهو تَرْجِيعُ الباءِ في هَدِيرِه، وبَأْبأَ الرَّجُلُ أَسْرَعَ، وبأْبأْنا أَي أَسْرَعْنا".

أما (بأبأة الطلاب) فليست من المعاني التي جاءت في (لسان العرب)، وليست منحوتة من (بأبي) وليست من ترديد صوت الباء، بل هو لفظ وهبَته مناقشة دارت بيني وبين زميلي الدكتور حسين المناصرة، وطالما كان مكتبه مجلس علم تدور فيه المناقشات الجادة، وكان من حديثنا في ذلك اليوم ما هالنا من أمر ضعف مستوى كثير من المتقدمين للدراسات العليا بفرعيها الماجستير والدكتوراه، وهؤلاء يشترط في قبولهم ارتفاع المعدل. وإنه شيء لا ينتهي منه العجب أن تراهم قد نالوا درجات عالية؛ ولكنهم في الاختبار الشفهي يكشفون عن مستوى متدن لا يناسب المعدل المرتفع الذي أثبت لهم، فلا تجدهم يحسنون القراءة إن هم قرأوا، ولا هم على معرفة بمصادر العلم الذي يريدون مواصلة دراساتهم فيه، ولا هم على

معرفة كافية بمصطلحات العلم، وكان من الأسئلة المطروحة في سبيل التعليل أبعض الجامعات ربما رفعت نسب بعض طلابها لتنالهم فرصة في مجال الدراسات العليا؟ أتعمد بعض الجامعات إلى منح بعض طلابها تقادير (ب) و(أ)؟ وهذا ما سميناه بأبأة الطلاب، وقد تكون البأبأة من كيفية القياس، فقد يكلفون معلومات محددة فيسألون بها عينها، فهم لا يحسنون غيرها بعدئذ.

وأمر آخر أمرّ من سابقه وهو ما استولى على جامعاتنا من وهم الاتصاف بالجودة أو الادعاء بالجودة التي وضعت لها معاييرها وشرائطها التي هي عند من ابتدعوها تفضي إلى تحقيق المراد، وتعلي من شأن الأداء، ولكنها عند من يصطنعون صورة الجودة ويحرصون على الوفاء بالجوانب الشكلية الموهمة بها ليست سوى عبء من الأعباء وجملة من الأعمال المبدّدة وقت الأساتذة المهدرة طاقاتهم. وإن من لوازم هذه الجودة الاحتكام إلى رأي الطالب في تقديره معلم المقرر، وكثير من الطلاب في مجتمعاتنا ليس الإنصاف ديدنهم ولا الصدق رائدهم بل اقتناص الدرجات همهم في المقام الأول، ويبدأ الأمر في درجات الأعمال الفصلية التي تؤلف (٦٠%) من الدرجة فإن هم رأوا المعلم قد كال لهم منها بلا حساب عقدوا العزم كل العزم على الإشادة به، وعلى أن يرصدوا له من التقدير ما يجعل الجامعة تستمر في استعماله، فإذا جلسوا للاختبار النهائي ووجدوه في الصورة المرضيّة وأجابوا بما يضمن لهم (الباء) أو (الألف) مضوا إلى تنفيذ ما عزموا عليه من أمر تقييمه بما لا يزعجه عن مكانه ولا يقلقه من موقعه، وإن كانت هذه الصورة ليست عامة على المعلمين أو الطلاب فإنها بلا جدال سبب من الأسباب وعلة من العلل إن كنا نريد المكاشفة والشفافية وترك المداراة، فتقييم الطلاب معلميهم صار سيفًا

مصلتًا على عقد الجامعة مع هؤلاء المعلمين، وإن لم يكن المعيار الوحيد، وقد يدفع هذا المعلم المسكين المحتاج للعمل إلى بأبأة الطلاب، ولم يبق إلا أن يقول لهم: بأبي أنتم وأمي.

سعي للجودة أم سعي للتغريب

إنّ سعي جامعة الملك سعود في سبيل الجودة أمر محمود يشكر عليه معالي مدير الجامعة عبدالله العثمان وكل القائمين على تنفيذ مقتضيات الجودة، ولكن الأمر المحير أن تتخذ الجامعة من الإجراءات التي لا يظنها المراقب الحصيف من الجودة؛ لأن الجودة لا تعني أن تحارب أهم رموز الهويته الوطنية وهي اللغة القومية. أن تكون واجهة موقع الجامعة باللغة الإنجليزية وتكون النسخة العربية مجرد خيار في تلك الصفحة هو لون من التغريب لا شك فيه، وأن تحول الجامعة مقرر (١٠١عرب، المهارات اللغوية) ومقرر (١٠٣ عرب، التحرير العربي) من مقررين إلزاميين لطلاب الجامعة إلى مقررين اختياريين هو تنحية للعربية وتحييد لها وبتر لآخر صلة لطلاب الجامعة بلغتهم في حين أنها تلزمهم بدراسة ثمانية ساعات للغة الإنجليزية، أليس هذا سعيًا حثيثًا نحو التغريب؟ وأن تصر الجامعة على تعليم الطلاب في الكليات العلمية باللغة الإنجليزية هو إصرار على التغريب. قد يقول قائل إن لغة العمل في البلاد هي اللغة الإنجليزية، وهذا هو واقع الحال الأليم، نعم هذا ضد السياسة اللغوية التي تسعى الدول إلى انتهاجها، فكل أمة لها سياسة لغوية تسعى فيها إلى تعزيز مكان لغتها وتحسن تعليمها وتمكنها من ميادين العمل ولا تقصيها لتغزوها لغة أخرى في قعر دارها.

كانت اللغة العبرية في عداد اللغات الميتة في سنوات مضت، ولكنها اليوم لغة العلم والعمل في إسرائيل. ونحن اليوم نحيد لغتنا ونعطل إمكاناتها بحجج واهية لا تثبت عند التمحيص، عقدت مؤتمرات كثيرة ودارت ندوات كثيرة وألقيت محاضرات كثيرة كلها تلتقي في أهمية أن توضع العربية موضعها من حياة الناس في

العمل والتعليم والإعلام. وإن يكن القطاع الخاص يستسهل استعمال اللغة الأجنبية لكثرة الأجانب العاملين فيه ولكثرة تعامله مع الاقتصاد العالمي فإن الأجهزة الحكومية وعلى رأسها الجامعات غير معذورة في تخليها عن اللغة القومية.

يشهد العالم اليوم إقبالا شديدًا على تعلم العربية في أوربا وآسيا وأفريقيا والأمريكتين، ولكننا في المقابل نجد من أهل هذه اللغة ازورارًا عنها وارتماء في حضن اللغات الأجنبية مضحين بما تمثله هذه اللغة من تراثهم وما تمثله من هوية تخصهم.

وإني لأرجو أن يتدخل مدير الجامعة فيعيد الأمور إلى نصابها، وأن يضع العربية في موضعها الذي يليق بلغة القرآن وبلغة أمة تريد أن يكون لها منزلة بين أمم هذه الأرض وأن لا تذوب في غيرها فتكون تاريخًا عفا عليه الزمن.

وإني لأرجو من هذا المدير الجريء الطموح أن ينقل الجامعة نقلة نوعية بتعريب تعليمها، وهذا أحسبه أول طريق الجودة، قد يكون الأمر شاقًّا محفوفًا بالعقبات ولكني أحسبه قادرًا على تجاوز ذلك لما تنطوي عليه نفسه الكريمة من رغبة قوية صادقة في الخير.

صعوبات تعلم العربية وتعليمها

لِمَ نجد صعوبة في التعلم في حين أن أبناءنا يتفوقون في تعلمهم في البلاد الأجنبية؟ أهي مشكلة لغة أم مشكلة بيئة حاضنة للتعلم فهي لا تحسنه ولا تجيد قياسه ولا تجدّ فيه كل الجدّ، أفي التعليم وحده الضعف أم في كل أحوال الأمة: في سياساتها وإداراتها وتخطيطها وتنفيذها ومزاولتها لأعمالها وأخلاقها. لم تكن العربية لغة علوم وهي في الجزيرة ولكنها حين صدرت عنها وصارت لغة البلاد المفتوحة أو لغة معظمها انصبت فيها ألوان الثقافات واستوعبت معارف العلم مترجمة ثم تمثلتها لتكون هي الصادرةَ بها المبلغةَ عنها فصارت العربية لغةَ العالم ولغةَ العلم، فكانت أوربا تبعث بأبنائها إلى الأندلس ليتعلموا العربية، واليهود صاغوا نحو اللغة العبرية مقتبسينه من نحو العربية وكتبوه بلغة عربية. حين كان العرب أمةَ قيادة وإنتاج كانت لغتهم عزيزةً مؤثرة، ولكنهم بعد تفكك دولتهم وتغلب الأعاجم على سياستهم انحسرت العربية الفصيحة في بيئات تعليمية ضيقة وفقدت تأثيرها العام في الأمة، وهكذا انكفأ عامة الناس في بيئات منعزلة على لغات محلية كانت قديمة قدم العربية مستمرة استمرارها؛ ولكنها لم تكن بعيدة عن الفصيحة كل البعد. وبسبب من الإقليمية بل البيئية الضيقة صارت اللهجة المميزة لها رمزَ هُوية وانتماء لهذه البيئات في ظل تفكك عربي وتشرذم كان نتيجة عزلة طويلة وزاده التقسيم الاستعماري الحديث الذي خلق كياناتٍ سياسيةً منفصلةً فعزز الانفصالُ الشكلي الانفصالَ في المضمون، وصارت الفصيحةُ محصورةً في نطاقات رسمية ضيقة، وحين سيطر الإعلام على حياة الناس كان للعامياتِ نصيبُ الأسد، ومع انتشار البث الفضائي تعالت أصوات العامية وسادت سيادةً قوية زحزحت

العربية عن مجالها. والإعلام أثره خطير فقد كاد يكون بديلا تربويًّا للبيت والمدرسة، فكثير من المعارف والعلوم والقيم تبث فيه بشكل متواصل عشوائي، والمرء يتأثر حسب ميوله وما يشاهده من أعمال، ولذلك يمكن للإعلام الرفع من شأن العربية وتعزيز تعليمها ويمكن أن يكون له أثر سلبي كما هو حال كثير من الفضائيات الجذابة.

وفي ظل هذا الوضع الذي وُضعته الفصيحةُ نشأت صعوبة من أهم صعوبات تعلمها وهي أنها تعلم لأهلها كأنها لغةٌ ثانية، وحيدت العربية فلا هي لغة علم ولا هي لغة عمل، وصار من صعوباتها الخلط بين المعرفة اللغوية والمهارة اللغوية، وكذا الخلط بين النحو العلمي والنحو التعليمي، والغفلة عن مراعاة التعلم على التراكمية، كما أهمل المحتوى التعليمي النوعي، والكيفية التعليمية الصحيحة، والاعتماد على كيفيات التدريب، والاهتمام بالقياس، وبيان أثر انتشار التعليم وكثرة المتعلمين وارتباط التعليم بزمن، والطالب ركن من أركان التعلم، ففاعليته مؤثرة وسلبيته ومشكلاته النفسية كالخوف من الخطأ أو رهاب الجمهور من صعوبات التعليم والتعلم.

ومن الصعوبات ما يتعلق بالمعلم وقدراته وتطويرها المستمر، ومن صعوبات التعلم الزمان المخصص وحسن الاستفادة منه واستثماره، والمكان الذي هو بيئة التعلم ما لم تكن حسنة وافية بما يقتضيه كانت من صعوبات التعلم، وجاءت التقنية لتكون فتحًا في تعليم العربية وتعلمها، ولكن العلاقة منفكة بين التقنيين والمتخصصين وهذا ما قد يعوق النهوض بها ونشرها في العالم الذي تتسابق فيه اللغات إلى الانتشار والصمود في عالم متغير.

ناقوس خطر

كتبت زميلتنا من كلية اللغات والترجمة الأستاذة الدكتورة ريما الجرف عن (آخر الابتكارات في الامتحانات النهائية) بما أسميه ناقوس خطر فهي تقول:"يبدو أن هناك هدفًا جديدًا للتعليم الجامعي وهو أن ينجح الطلاب بنسبة ١٠٠٪ حتى لا يدخل الأستاذ نفسه في دوامة الشكاوي من الطلاب الراسبين أو الحاصلين على درجات منخفضة، من الطلاب أنفسهم، وذويهم، وبعض الجهات المعنية. وحتى يتحقق النجاح لجميع الطالبات، قام بعض الأستاذات هذا الفصل بوضع أسئلة الاختبارات النهائية في موقعهن، وكانت تلك هي الأسئلة التي وضعت في ورقة الامتحان النهائي، وخرجت الطالبات بعد ربع ساعة فقط من قاعة الامتحان لأنهن أنهين الإجابة عن جميع الأسئلة مع أن العرف السائد أن يسمح للطلاب بالخروج بعد نصف وقت الامتحان أي بعد مرور ساعة. ولكن أستاذة المادة سمحت للطالبات بمغادرة القاعة بعد ربع ساعة فقط. وخرجت الطالبات مسرورات لأنهن أخذن الأسئلة من موقع أستاذتهن وحفظنها وهي التي جاءت في الامتحان. أمن أجل هذا أنشئت المواقع؟! لو كان هناك من يسأل ويحاسب لما جرأ أمثال هؤلاء الأستاذات على عمل غير أكاديمي وغير أخلاقي مثل هذا. ولكن من يحاسب من؟ هذا أمر لا يخضع للمساءلة والتحقيق من قبل الجهات المعنية. ومن فعلنه لا يتعرضن للعقوبة. لو كان هناك شكوى من طالبة ضد إحدى أعضاء هيئة التدريس لهرع أصحاب الصلاحيات إلى التحقيق في الأمر دون تباطؤ. أما أن يحدث أمر كهذا، فلا شأن لأحد به، ويغضون الطرف عنه. هذا أحد المعايير

الجديدة في الجودة التي ينبغي أن تضيفها منظمة المعايير الدولية ISO إلى معاييرها".
وهذا هو الرابط:

http://forums.ksu.edu.sa/showthread.php?t=٣٧٦٥

وأقول إن الإجراءات المتبعة على الأقل في قسم اللغة العربية تسوق العمل إلى ما يعاند الجودة، إذ يضطر الأستاذ كل فصل إلى تصوير ثلاثة نماذج من إجابات الطلاب لثلاثة اختبارات تصويرًا ضوئيًّا وهذا ميسور وتصويرًا إليكترونيًّا وهذا غير متاح لكل أحد، وهذا سيجعله يحول الأسئلة والأجوبة لكي لا تخرج عن نطاق الصفحة الواحدة تفاديًا للعنت الذي يجده من الصفحات الكثيرة التي يصعب تسكينها. وسيكون همّ الأستاذ أن يفي بهذه المتطلبات الورقية المكررة في كل فصل من تقرير المقرر الذي سيكتب فيه خلاف ما يجري في الواقع لأنه إن كتب حسب الواقع لزمه أن يعلل ويفسر، والسيرة الذاتية يكررها مع كل مقرر وهي موجودة في موقعه، وفي النهاية تتجمع تلال من الأوراق التي تخزن في ملفات، وأما العمل الحقيقي المفيد فهو المغيب حقًّا لخلل في الخطط الموضوعة التي لا تفي الساعات المرصودة فيها للمقررات بما تقتضيه من تعليم وتدريب، ولا توزيع ساعات المقرر تخدم التعليم. ألا إن للجودة سبيل غير تكديس الأوراق.

هكذا تسجن الكتب

الكتب التي هي أوعية المعرفة بما هي غذاء للفكر والعقل والروح من أهم لوازم حياته؛ ولكنها قد تتعرض للسجن حقيقة أو مجازًا، فأما الحقيقة فهي في تلك الكتب التي تنشرها بعض المؤسسات الرسمية والشبيهة بالرسمية لتقبرها في مخازنها فلا ترى النور إلا في معارض الكتب أحيانًا، فليس من سياسة تلك المؤسسات أن تدفع بالكتاب إلى السوق كغيره من الكتب التي تنشرها دور النشر العامة، وأما السجن المجازي فذلك أن بعض الكتب تناله عناية فائقة من المؤسسة الرسمية فتنشره نشرة بالغة الأناقة، تتخير له أغلى الورق وتتأنق في إخراجه وتجليده حتى تصير النسخة من الكتاب باهظة الثمن، مثال ذلك كتاب (أصول الخيل العربية) الذي نشرته في مجلدين مكتبة الملك عبدالعزيز، نشرت الكتاب في ثلاث طبعات أولاها الطبعة الخاصة وليست هذه الطبعة متاحة للبيع، والثانية الطبعة الفاخرة وهي مجلدة تجليدًا فاخرًا وتباع بما يزيد على ألف ريال، وأما الثالثة فهي الطبعة العادية وهي طبعة مجلدة أيضًا وثمنها ثماني مئة ريال، وهو ثمن لا يطيقه كل قارئ، وهكذا صار هذا الكتاب سجين سعره، منذ بات سعر الكتاب من أهم صوارف القارئ عن اقتنائه وقراءته.

بعد ترقب طويل نشرت مكتبة الملك عبدالعزيز (معجم الأصول الفصيحة للألفاظ الدارجة) للشيخ محمد بن ناصر العبودي وفرحت بنبأ نشره فرحًا عظيمًا تضاعف بتكريمه النادي الأدبي بأن نالته جائزة كتاب العام، ثم إني شهدت التكريم ورأيت صورة مجلدات الكتاب؛ ولكن شعورًا بات يغالبني لا أستطيع دفعه حول سعر الكتاب، أسيكون في طوق من يريد اقتناءه من المواطنين البسطاء أو من

العلماء وطلاب العلم المهتمين الاهتمام كله بمضمون المعجم ويقدرونه كل التقدير، كم تمنيت أن لو أتيح لهذا الكتاب وأمثاله أن ينشر نشرة شعبية على أرخص أنواع الورق ليكون في متناول المريدين إلى جانب النسخ الفاخرة للميسورين. والنشر بالطريقتين سياسة تتخذها بعض دور النشر في غير بلادنا، وربما حققت من النشرات الشعبية ريعًا أضعاف ما تحققه من النشرات الفاخرة. ويمكن للمكتبة إن هي أرادت تعميم الفائدة أن تنشر المعجم نشرًا حاسوبيًّا على رقائق رخيصة الثمن(CD) أو ترفعه على الشبكية وتبيعه لمن يريد ذلك كما تباع غيره من الكتب في العالم الغربي، وأحسبها إن هي فعلت تحول دون نشره من غير حق كما نشرت كتب كثيرة على العنكبية ما كان القارئ سيحصل عليها بيسر لولا هؤلاء المتبرعين الذين حسنت نواياهم وأخطأ الصواب عملهم.

هكذا تطلق الكتب

كتبت في مداخلة سابقة كيف تسجن الكتب بنشرها نشرة خاصة تحول دون تداولها، ومن الحق أن أشير إلى ما تشهده مكتبة الأمير سلمان بن عبدالعزيز في جامعة الملك سعود من قفزة نوعية في التعامل مع الكتاب؛ إذ لم تعد خزانة كتب أو بالأحرى جملة من خزائن الكتب التي تضم الكتب العربية والأجنبية المعروضة للإعارة وأخرى تضم الكتب المهداة إليها، مثل مكتبة الزركلي والشامخ والشاذلي، والمخطوطات والرسائل والكتب النادرة، فإلى جانب ما تقدمه من لقاءات علمية تنويرية تمكنت من تسخير ما تتيحه التقنية الرقمية، فالمخطوطات انتهي من تصويرها تصويرًا رقميًّا، وأضحى بإمكان الباحث والقارئ في أي بلاد الدنيا أن يطلع عليها بعد أن كان طلابها يعانون سلسلة من الرحلات في طلبها وجملة من الصعوبات، والنفقات المالية التي طالما وصفها الباحثون في تصدير أعمالهم. وأما الرسائل العلمية فهي جهود بحثية أنفق في إعدادها السنوات الطوال ونالت من الإشراف والمناقشة ما يجعلها جديرة بالنشر والانتفاع بها؛ ولكنها تظل حبيسة الرفوف قد لا يمكن الاطلاع عليها بيسر، وها هي مكتبة جامعة الملك سعود اليوم تسابق الزمن في سبيل تصوير هذه الرسائل لتطلقها في موقعها الشبكي، وصار بإمكان الباحث الحصول على نص الرسالة أو قراءتها بل إن الموقع الذي يضمها يمكنه من كشف ما يماثل عباراتها، ولا شكّ أن هذا الأمر سيكشف بصدق تأثر الرسائل بعضها ببعض أو أخذ بعضها عن بعض. وأما الكتب النادرة التي تكاد توازي المخطوطات في قيمتها وأهمية المحافظة عليها فإنها ليست من الكتب التي تعار؛ بل على مريد الاطلاع عليها أن يلازم المكان، وفي هذا عنت

على الباحث بله القارئ العادي، ولكن هذا أصبح حديث الأمس؛ فالتقنية الرقمية التي اتخذتها المكتبة ستجعل الباحث والقارئ يقرأ الكتاب وهو في بيته، بل إنه يستطيع أن يبحث في دقائق الكتاب عن أي لفظ يريد؛ فالموقع العارض الكتاب ذو برنامج يغني عن أدق كشاف يمكن إعداده. وتصوير هذه الكتب على درجة فائقة من الدقة، وقد أتيح لي أن أطلع على بعض الكتب المصورة فإذا بإمكان الصفحة الصغيرة أن تكبر وتتضح لمن يعاني من قراءة الأحرف الصغيرة. هذه القفزة النوعية المستثمرة لمنجزات التقنية التي أخذت سبيلها إلى التنفيذ هي أفكار وجهود عميد المكتبات الشاب المبدع ابننا الدكتور ناصر الحجيلان برعاية منقطعة النظير من مدير الجامعة رائد الجودة والتطوير الدكتور عبدالله العثمان. سألت الدكتور الحجيلان ما شأن الكتب الأخرى غير النوادر والمخطوطات والرسائل، فقال إن حقوق النشر تحول دون تحويلها إلى الشكل الرقمي؛ ولذا سيكتفى بغلاف الكتاب وقائمة محتوياته وجزء من فصله الأول، وهذا ما سيظهر للقارئ في الموقع الشبكي فيمكنه بهذا أن يلم بالكتاب إن لم يقرأه كله، وقال إنّ كل كتاب سيصحب باستمارة موجهة للمؤلف فإن هو أراد معاودة استكمال تصوير كتابه ونشره كاملا عبّأ الاستمارة. وستحتفل المكتبة قريبًا بإطلاق هذه الكتب والرسائل والمخطوطات في موقعها لتكون على طرف الثمام لكل قارئ وباحث، وهكذا تطلق الكتب.

هل سيقف أبوطلال على الأطلال

لم تكن الإجابة الكاملة وحدها ما شدني في ورقتي أخوين في شعبة النحو التي أدرسها بل جمال الخط الذي إن أمكن أن يجوّد في السعة فإن ساعة الاختبار لا تهب من الوقت لتجويده شيئًا، رفعت الورقتين أمام الطلاب جميعًا وأنا أشعر بسعادة بالغة بهما.

تخرج خالد وناصر الحجيلان ثم عيّنا معلمين في وزارة التربية، وما مضت سنوات حتى عاد ناصر إلى القسم معيدًا. عرفت فيه تعلقه بالأدب قديمه وحديثه وبالتراث الفصيح واللهجي، وهو مع هذا كله طُلَعة؛ إذ استطاع أن يلم بالتقنيات الحاسوبية إلمامًا لا يتيسر لأي أحد. لم تنقطع الصلات بيننا وهو في الولايات المتحدة الأمريكية حيث يستكمل دراساته العليا، وفاجأني ذات يوم بإنشائه موقعًا عنكبيًّا باسمي، ففتح لي بهذا طاقة أطل بها إلى العالم، ولما عاد إلينا مرة أخرى كانت لنا اجتماعات كنا نتناول فيها هموم الدرس والتراث، وأبديت أحيانًا مخاوفي أن تعصف العولمة بالبقية الباقية من تراثنا الشعبي الذي تكتنز به بيئاتنا المحلية، فحكى لي كيف أنه أعدّ مشروعًا علميًّا دقيقًا وتوجه به إلى محافظة حائل لعلها تهتم بتنفيذه، ولكن علمت منه بعد هذا أنّ المشروع لم يتيسر له أن يجد طريقه إلى التنفيذ، أخذت الفكرة منه كما أرسلها إليّ وحملتها إلى محافظ المذنب وسلمتها إليه بعد شرح لأهمية ذلك الأمر؛ ولكن تلك الورقة طويت، وبعد أن أنشئ فرع لنادي القصيم الأدبي في محافظة المذنب نقلت الفكرة إلى رئيس الفرع

الأســـتاذ عبدالرحمن الغنايم الذي وعدني خيرًا، ولا أعلم بعد ذلك أنهم بدأوا مشروعًا.

أثبت الدكتور ناصر أنه كفاءة إدارية متسلحة بالعلم النظري والتقني، وآية ذلك ما أحدثه في مكتبة جامعة الملك ســـعود من نِقلة نوعية نحو الرقمية حين كلف العمل فيها ثم تولى عمادتها بعد ذلك. والأمل معقود اليوم في أن يقف أبوطلال، بعد أن كلف وكالة وزارة الثقافة، على أطلال الثقافة الشعبية من أمثال وكنايات وكلمات لا نجدها في المعجمات القديمة، وســواليف الرجال وســباحين النســـاء. إن التأهيل العلمي الذي تأهله الدكتور أبوطلال والقدرات المعرفية والإدارية والتفاني الشديد في العمل كل أولئك باعثة للأمل أن يصل من مشاريعه ما انقطع وأن يهيئ الأســباب لذلك الجمع الثقافي وأن يحث النوادي الثقافية أن تجعل نصـــيبًا من اهتمامها لهذا العمل الميداني الجليل المنظم الذي هو أبقى من كثير من المؤتمرات والندوات التي ينتهي محصول كثير منها بانتهاء عقدها.

شـؤون الثقافة في بلادنا معقدة متشــابكة، لتعدد ألوانها واختلاف أطيافها ومســـتوياتها، وأن كثيرًا من العمل الإداري والتنظيمي ربما يغذمر طاقات الوكيل الجديد، وأعلم أن كثرة من يعدون أنفسـهم أوصياء على الثقافة ستكون مضيعة لوقته متلفة لجهده؛ ولكن ملكاته الإدارية وحسـن تصرفه وطبعه الهادئ لا شـك ستكون من ضوابط اتجاه السفينة.

وإذا كانت النفوسُ كبارًا ‏ ‏ ‏ ‏ تعبتْ في مرادها الأجسامُ

هل وعد الله بحفظ العربية

لا جدال أن (القرآن) كان وراء كثير من النشاط اللغوي في العربية، وكان دخول أفواج من الأمم في الإسلام دافعًا لتعلم العربية وآدابها حبًّا بالقرآن ولما كان لمعرفة العربية في الزمن السابق من وجاهة. وكانت العربية مستعملة في جزء كبير من آسيه وجزء من أوربه ثم انحسرت إلى ما نعرفه اليوم من حدود البلاد العربية. والمتأمل في حال العربية اليوم يجد إقصاءًا لها من أهم الميادين، ففي التعليم سادت اللغة الإنجليزية، وأما في العمل فالممسك بعصبه المدير لدفته الآمر فيه اللغة الإنجليزية أيضًا، وإذا التفتنا إلى إعلامنا وجدنا العاميات المختلفة هي التي تتحدث باسمه، وهي أيضًا مهجنة بكلمات وتعابير من اللغة الإنجليزية؛ إذ صار الناس يفكرون باللغة الإنجليزية وهم يتحدثون بعامياتهم. وحين ينادي المنادون أن تداركوا لغتكم أيها العرب يُردّ عليهم بأن الله قد تكفل بحفظها، وما أرى أنّ الله وعد بحفظ العربية، وإنما وعد بحفظ الذكر كما قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر-٩]، فليس يلزم من حفظ القرآن أن تحفظ العربية، ولم يرد في تفسير هذه الآية ما يشير إلى حفظ العربية، قال الطبري "يقول تعالى ذكره:(إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ) وهو القرآن(وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) قال: وإنا للقرآن لحافظون من أن يزاد فيه باطل مَّا ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه من أحكامه وحدوده وفرائضه، والهاء في قوله: (لَهُ) من ذكر الذكر. وبنحو الذي قلنا في ذلك ، قال أهل التأويل"[١]. وآية ما نقوله أن المسلمين من غير العرب أو الناطقين بها قد

---

(١) الطبري، جامع البيان، ١٧: ٦٧.

يقرأون القرآن؛ ولكنهم لا يقرأون غيره ولا يتحدثون بالعربية أو يفهمونها، أي إن العربية يمكن أن يأتي عليها يوم تموت فيه وإن ظلّ القرآن يتلى ويقرأ، وآية ذلك أنّ استعمالها انحسر بعد أن كان قد انتشر، وأنها اليوم مضيّعة بين أهلها، وليس من مخرجٍ يعيد إلى تلك اللغة مكانتها ويحافظ عليها سوى الاستعمال. سمعنا عالِمًا من علماءِ العربية هو (الدكتور مازن المبارك) يتحدث في خميسية حمد الجاسر رحمه الله، وكان يكاد يتميز غيظًا وهو يعرض لحال العربية، وينادي بأن تكون شريكة على الأقل في التعليم وإدارة العمل، وقال أستاذنا الدكتور أحمد الضبيب معلقًا على تلك الكلمة إن ترك التعليم بالعربية بحجة المصطلحات باطلة، فلتدرس العلوم بالعربية مع الإبقاء على المصطلحات كما هي؛ إذ المصطلحات لا تشكل نسبة كبيرة، ومعظم ما يقال هو كلام العربية قادرة على الوفاء به خير الوفاء. واتفق المتحدثون على أن هوية الأمة أي أمة هي اللغة، وأنّ بيدها الحفاظ عليها وإحياءها كما أن بيدها إضاعتها وإماتتها. وليس من الحكمة الاكتفاء بالقول: إن الله وعد بحفظ العربية.



الاسم رباعيًّا: إبراهيم سليمان رشيد الشمسان

الكنية: أبوأوس

تاريخ الميلاد: ١٣٦٦/٧/١هـ . ١٩٤٧/٥/٢١م

محل الميلاد: محافظة المذنب، منطقة القصيم، المملكة العربية السعودية.

*تخرج في كلية الآداب- جامعة الملك سعود، سنة١٣٩٣هـ-١٩٧٣م

*الدكتوراه في الآداب من كلية الآداب-جامعة القاهرة في١٤٠٥/٦/١٧هـ-١٩٨٥/٣/٩م.

*يعمل أستاذًا غير متفرغ منذ ١٤٢٦/٧/١هـ

كتب منشورة منها:

الجملة الشرطية عند النحاة العرب، الفعل في القرآن الكريم:تعديته ولزومه، قضايا التعدي واللزوم في الدرس النحوي، حروف الجر دلالاتها وعلاقاتها. أبنية الأفعال دلالاتها وعلاقاتها. دروس في علم الصرف. كراسة التدريبات الصرفية. مساحة لغوية، الإبدال إلى الهمزة وأحرف العلة في ضوء كتاب سر صناعة الإعراب لابن جني، أسماء الناس في المملكة العربية السعودية، جدلية المحفوظ والملفوظ، مقدمة في تاريخ النحو.

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠١-٧٦٨٥-٤